الواضح في التفسير

السيد عباس علي الموسوي

الجزء الثالث

سورة آل عمران

مركز الغدير
للدراسات والنشر والتوزيع

الواضح في التفسير

مركز الغدير للدراسات والنشر والتوزيع

لبنان - بيروت - حارة حريك - شارع السيد عباس الموسوي - بناية مركز الغدير
تلفاكس: ٥٥٨٢١٥ / ٠١ ـــ ٥٥٢٢٦٢ / ٠١ خليوي: ٦٤٤٦٦٢ / ٠٣
ص.ب.: ٥٠/٢٤ - الرمز البريدي: ١٠١٧ - ٢٠١٠ - برج البراجنة

www.alqadir.org

www.alqadir.net

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

الواضح في التفسير

السيد عباس علي الموسوي

الجزء الثالث

سورة آل عمران

مركز الغدير

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة آل عمران

«مدنية»

«آياتها مائتان»

سورة آل عمران

التسمية

سُمّيت بسورة آل عمران لورود «قصة آل عمران» وما فيها من عبر، حيث كانت ولادة مريم وما جرى لها وولادتها للمسيح.

فضلها

في كتاب ثواب الأعمال بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام قال[1]: من قرأ البقرة وآل عمران جاء يوم القيامة يظلانه على رأسه مثل الغمامتين أو مثل الغيابتين (والغيابة: كل ما أظل الإنسان كالسحابة).

السورة

سورة آل عمران من السور الطوال وهي تتضمن أصول العقيدة من التوحيد والأدلة عليها والنبوة وصحة القرآن وردّ الشبهات التي أوردها الكفار وأهل الكتاب.

(١) وسائل الشيعة، ج٤، باب كراهة السفر بالقرآن، ج١.

كما تتضمن مواقف أهل الكتاب من يهود ونصارى نحو الإسلام والنبيﷺ وكيف واجهوا الدعوة الجديدة بالإنكار والكيد والدّس وإلقاء الشبهات.

وتعرضت السورة إلى معركة بدر وكيف انتصر الإسلام، ثم تعرضت لمعركة أُحد وكيف انتصر المسلمون في أولها وخسروا الجولة في آخرها نتيجة مخالفتهم للنبي وعصيان أمره، وكيف كانت درساً كبيراً جعلتهم يتنبهون لأنفسهم، وأن المخالفة والتمرد والعصيان لأوامر القيادة يعقبها الهزيمة المريعة، وذلك من السنن الطبيعية لقوانين النصر والهزيمة التي يخضع لها هذا المجتمع المؤمن كما يخضع لها غيره من المجتمعات...

وتعرضت السورة بشكل واضح لمريم بنت عمران وابنها عيسى (عليهما السلام) وشرحت ولادته وردَّت على من اتخذه إلهاً..

كما تعرضت االسورة للمنافقين ودورهم السيّء.. وذكرت ملكوت السماوات والأرض وحضّت على التفكير فيهما وما فيهما من إبداع وعظمة يخرج الإنسان منهما إلى الإيمان بالله الواحد الأحد...

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٦﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿ٱلۡحَيُّ﴾: الباقي الدائم الذي لا يفنى ولا يموت.

﴿ٱلۡقَيُّومُ﴾: القائم على تدبير شؤون العباد.

﴿ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾: هو الكتاب الذي أنزله الله على نبيه موسى.

﴿ٱلۡإِنجِيلَ﴾: هو الكتاب الذي أنزله الله على نبيه عيسى.

﴿ٱلۡفُرۡقَانَۗ﴾: ما يفصل بين الحق والباطل.

﴿عَزِيزٞ﴾: من عز، والعزة: حالة مانعة من أن يُغلب، من قولهم: أرض عزاز: أي صُلبة، والعزيز: الذي يَقهر ولا يُقهَر.

﴿ٱنتِقَامٍ﴾: من النقمة: وهي العقوبة.

﴿يُصَوِّرُكُمْ﴾: الصورة: ما ينتقش به الأعيان ويتميز بها غيرها، ويصوركم: يخلقكم.

﴿الْأَرْحَامِ﴾: جمع رحم: وهو محل تكوّن الجنين في بطن الأم.

التفسير

﴿الٓمٓ﴾ تقرأ ألف، لام، ميم.

وهذه من الحروف المقطّعة التي وردت في أوائل بعض السور، وقد تقدم معنا المختار في أول سورة البقرة وقلنا هناك «قالوا: إن هذه الأحرف المقطعة في أوائل بعض السور من العلم المحجوب الذي استأثر الله بعلمه، فمعناها عنده لم يطلع عليه أحداً من خلقه».

وقالوا: بل إن لها معانٍ واختلفوا في معناها حتى بلغت أقوالهم واحداً وعشرين قولاً، بعضها اجتهاد محض بدون مستند أو استحسان يتمشّى مع ذوق مستحسنه، وأجود الأقوال وأقربها إلى الفهم قولان:

١ ـ إنها إشارة إلى حروف الهجاء التي تُبنى عليها لغة العرب، فقد تحداهم أن يأتوا بمثل هذه الآيات مع أنها مؤلفة من حروفهم التي يتعاطونها ويتكلمون بها، فإذا عجزوا عن ذلك مع وجود المواد الأولية بأيديهم كان ذلك إعجازاً قرآنياً فوق طاقة البشر، ويدعم ذلك أن أكثر السور التي افتتحت بها هذه الحروف كان فيها بيان ذكر القرآن والانتصار له.

وبيان إعجازه كما في مطلع سورة البقرة: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

وكما في سورة الأعراف: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾.

وكذلك في سورة غافر: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢﴾ وهكذا غيرها من السور التي افتتحت بها هذه الحروف المقطعة.

٢ ـ كانت هذه الحروف لإلفات نظر العرب كي يستمعوا إلى القرآن من حيث كانوا قد تعاقدوا على عدم الاستماع إليه، فكانت هذه الأحرف منبهة لهم، وقد شدتهم إليها لاستغرابها، فاستمعوا إلى القرآن قهراً عنهم ولربما قام المرء بما يلفت النظر من أجل أن يستمع الآخرون لكلامه فيستفيدوا منه.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ الله اسم علم لذات الجلالة المقدّسة، وهو الواجب الوجود المستغني عن كل موجود.

﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ نفي لجميع الآلهة وهدم لكل مفهوم يمكن أن يتصوره الإنسان عن الله، وهدم الأفكار الضالة يجب أن يتقدم عملية البناء الجديدة.

نفي الآلهة التي كان يتوجه إليها الإنسان سواء كانت حجرية أو بشرية أو اتخذت أي شكل من الأشكال، ثم إثبات الألوهية لله المستحق لها وكما هو أهل له . . .

هدم ثم بناء يترافقان . . ونفي ثم إثبات يتوافقان . . .

إن الله لا إله هو الحي الذي له صفة الحياة لزوماً ودواماً بدوام الذات المقدسة.

﴿ٱلۡقَيُّومُ﴾ الذي يتولى إيجاد هذا العالم وكل ما فيه ويقوم بتدبيره وتنظيمه والمبالغة لجهة عمومية هذا التدبير ودوامه . .

وإذا صحّت الرواية بأن سورة آل عمران من أولها إلى نيف وثمانين آية منها نزلت في النصارى ـ نصارى نجران ـ فتكون هذه الآيات رداً عليهم وأن عيسى الذي باعتقادكم أنه صلب ومات لا يمكن أن يكون إلهاً لأن الإله حي ـ باستمرار ولا يعترض الموت سبيله كما أنه القيوم بتدبير الخلق فإذا مات كيف يبقى هذا الخلق . . .

﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ نزّل عليك القرآن منجّماً بحسب الظروف والأحوال والدواعي التي اقتضت تنزيله نزّله بالحق بالحجج والبينات القاطعة وإنه من عند الله أو بالأخبار الصادقة . . .

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ جاء القرآن مُصدِّقاً لكل الكتب المنزلة من عند الله التي تقدمت عليه . .

ومن هنا نعرف أن القرآن يحكم بأن كل كتاب من عند الله يعتبره مقدساً وطاهراً وكان وصفة إلهية لزمن معين احتاجتها الناس في وقتها، ولمّا مضى وقتها وانقضى زمانها جاءت الوصفة الأخيرة التي بها يكون شفاء البشرية وعلاجها الناجع . . . إنها وصفة القرآن الكريم التي متى توفقت الأمة الإنسانية إلى أخذها واستعمالها دبّ الشفاء في بدنها والسعادة في دينها ودنياها . . .

﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ التعبير «بأنزل» للتدليل على أن التوراة والإنجيل أنزلهما الله دفعة واحدة لم يكن تنزيل كل منهما بحسب الظروف والأحوال . . .

والتوراة لموسى والإنجيل لعيسى، وقد أنزلهما الله قبل القرآن لهداية الناس وردّهم إلى الله وشدهم إلى جواره والتزام طريقه . . .

إنّ توراة موسى هي التي أخرجت بني إسرائيل من ظلم الفراعنة وحررتهم من جورهم واستعبادهم . .

وإنّ إنجيل عيسى هو الذي صحّح مسيرة بني إسرائيل ووضعهم على الدرب الصحيح .

ولكن كلاً منهما كان في زمانه فكما أن البشرية كانت في دور موسى بحاجة إلى التوراة وتعاليمها وما فيها من هدى، فقد اقتضى الزمان أن تتغير الوصفة ليكون الإنجيل الذي يعالج أمراض الناس في زمانه ولو كانت الوصفة واحدة لاكتفى المسيح بالتوراة . .

وهكذا نقول في القرآن: أنه الوصفة النهائية لشفاء الأمراض الإنسانية . .

كانت التوراة وكان الإنجيل يوم لم يكن القرآن في البين، أمّا وقد جاء القرآن . . فقد انتهى دورهما وانتهى مفعولهما إلا من بعض النصائح والفوائد والأخلاقيات العامة . .

﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَۗ﴾ أنزل كل ما يفرّق بين الحق والباطل والهدى والضلال، وقيل: إنه سبحانه أراد بالفرقان القرآن وكرّر ذكره تعظيماً لشأنه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ﴾ إنّ الذين جحدوا بآيات الله وهي كتبه المنزلة ولم يؤمنوا بها مع قيام الأدلة على أحقيتها وصدقها وماتوا على كفرهم ولم يتوبوا عمّا هم فيه لهم عذاب شديد أي عظيم أليم في الآخرة..

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ تعزيز لقوة الله وقدرته وأنه غالب في أمره لا يمنعه مانع عن الانتقام وإنزال العقوبة بالكافرين المنحرفين الذين ضلّوا السبيل عن علم ومعرفة...

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥﴾ هذا من مقتضى القيومية لله على الخلق وأنه سبحانه يعلم كل شيء في الأرض وفي السماء، أي كل ما في الكون يعلمه الله بتفاصيله وجزئياته فعلمه شامل كامل وافٍ تام.

وعليه فلا يصبح إلهاً من عرف بعض الأشياء أو أدركها بتعليم إلهي كما وقع لعيسى أو ما يجري لبعض الأولياء من كشف يعلمون به بعض الأمور...

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ الله هو الذي يخلقكم في أرحام أمهاتكم كيف يشاء من حسن وقبح وسعادة وشقاوة وغيرها من الصفات البدنية والأُخرى الروحية والنفسية.

هذه النطفة على حقارتها ومهانتها وضعفها تُحبس في رحم الأم الضيّق الصغير ثم تتولى إرادة الله بقوانين وضعها لنموها تتحول لتأخذ رزقها من الأم، فهي خارجة عنها بعيدة منها ألقيت فيها فأخذت تقترب ثم تلتحم ثم تأخذ حظها في النمو وهكذا تتشكل ضمن مراحل.. من ماء مهين إلى أن تصبح إنساناً كاملاً في بُنيته وتكوينه، ثم يخرج بقدرة الله إلى عالم الوجود وهكذا حتى يصبح كبيراً...

لو تتبّع العاقل هذه الحالة من التكوين لوقف أمام عظمة الله وأدرك أنه سبحانه الخالق العالم الخبير البصير المحيي المميت...

سبحانك يا رب أنت رسمت صورة هذا الإنسان الكبير كيف شئت وهو نطفة حقيرة لا وزن لها ولا قيمة... ولا يعتدّ بها أو يهتم بها ثم بعد التكوين والخروج إلى عالم الدنيا لم تتركه في مهبِّ الريح، بل رسمت له طريق السعادة والفوز فأرسلت إليه الأنبياء وأنزلت إليه الكتب ودللته على ما ينفع ويفيد. سبحانك سبحانك ما أعظم قدرتك وما أجل أفعالك وصفاتك.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تأكيد لنفي الألوهية عن غير الله وإثباتها له سبحانه وتعالى... إنه الله سبحانه الذي يخلق الخلق ويعلم كل شيء، وهو المتعزز في قدرته والحكيم في خلقه وصنعه، فقدرته كاملة وحكمته غير متناهية.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾.

اللغة

﴿ءَايَـٰتٌ﴾: جمع آية: وهي العلامة، وتطلق على البناء العالي كما يطلق على كل كلام من القرآن منفصل بفصل لفظي أنه آية.

﴿مُّحْكَمَـٰتٌ﴾: جمع محكم والأصل حكم: منع منعاً لإصلاح، ومنه سميت اللجام حكمة الدابة، فقيل: حكمته وحكمت الدابة: منعتها بالحكمة والمحكمات - هنا يراد بها ظاهرة الدلالة لا يختلف فيها.

﴿مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ﴾: من الشِّبه والشَّبه وحقيقة التشابه: هو المماثلة من جهة ما، والمتشابه في القرآن: ما أشكل تفسيره لمشابهته بغيره بجهة من الجهات.

﴿زَيْغٌ﴾: زاغ زيغاً: مال ميلاً، وزاغ عن الحق: مال عنه.

﴿فَيَتَّبِعُونَ﴾: يطلبون.

﴿تَشَٰبَهَ﴾: من الشبه: وهو المثل، وما تشابه منه: ما تماثل منه.

﴿ٱبۡتِغَآءَ﴾: طلب.

﴿ٱلۡفِتۡنَةِ﴾: الضلال والكفر، وتأتي بمعنى الاختيار وغير ذلك.

﴿تَأۡوِيلِهِۦ﴾: من آل يؤول: إذا رجع، وأوّلته: إذا صيّرته إليه، والتأويل من الأول: أي الرجوع إلى الأصل ومنه الموئل للموضع الذي يرجع إليه.

﴿ٱلرَّٰسِخُونَ﴾: الرسوخ: هو الثبوت في الشيء والتمكن منه.

﴿أُوْلُواْ﴾: جمع بمعنى ذوو: أي أصحاب، واحده ذو: بمعنى صاحب، والمؤنث أولات.

﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾: العقول.

﴿لَا تُزِغۡ﴾: لا تمل من الزيغ: وهو الميل.

﴿وَهَبۡ﴾: الهبة: أن تجعل ملكك لغيرك بغير عوض.

﴿جَامِعُ﴾: من جمع، والجمْعُ: ضم الشيء بتقريب بعضه من بعض.

﴿لَّا رَيۡبَ﴾: لا شك.

﴿يُخۡلِفُ﴾: لا يفي بما وعد، يقال: وعدني فأخلفني: أي خالف في الميعاد.

﴿ٱلۡمِيعَادَ﴾: على وزن ميقات: وهو الوعد.

التفسير

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ﴾ هو الله جلّت عظمته أنزل عليك يا محمد هذا القرآن الذي منه هذه الآيات التي تتلوها على الناس وتقرأها عليهم..

إنه قرآن كريم ﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ﴾ أي واضحات المعنى والدلالة يفهمها

السامع بمجرد التوجّه إليها، لا تحتاج إلى إعمال فكر وإشغال نظر وهي مبثوثة في الأوامر والنواهي والقصص والأمثال وغيرها.

وهناك آيات أُخر متشابهات، ومن بيان المحكمات تعرف هذه المتشابهات، تعرف أن المتشابه هو الذي يقابل المحكم، وكما يقال: «والضدّ يُظهِر حسنه الضدّ» والمتشابهات هي التي لم يتضح معناها بسهولة وبمجرد أن تلقي إليها بنظرك.. إنها آيات يمكن أن تحمل أكثر من معنى وتعطي أكثر من دلالة، ولكن ليس معنى أنها متشابهة أنها مغلقة لا يمكن التوصل إلى المراد منها أو تحديد معناها وما قصد من ألفاظها وتراكيبها...

بل المراد أنه يمكن أن يصل إلى معناها، ولكن بعد ردّها إلى المحكم من الآيات وجمعهما معاً وتفسيرهما بما يمكن به التوصل إلى المعنى المراد من المتشابه...

إنّ كتاب الله يُفسِّر بعضه بعضاً، فإذا رُدَّ المتشابه إلى المحكم واستطاع الإنسان أن يعمل قواعد الجمع يمكن أن تُحلَّ كثير من المتشابهات، بل يمكن أن تُحل كلها، ويساعد على ذلك أن القرآن نزل بلغة العرب، ومن أجل أن يفهموه ويتفقهوا ما فيه ويتفكروا في آياته ويعملوا بها، فلو كان الأمر على خلاف ذلك لانتفت العلة التي من أجلها كان إنزاله وتكليف الناس به...

ثم إن المسلمين لم يتوقفوا عن تفسير المتشابه من الآيات ويغلقوا على أنفسهم باب الكشف عن معناها بحجّة أنها آيات متشابهات، بل لا نجد على وجه القطع آية واحدة لم يتعرضوا لتفسيرها وكشف المراد منها، نعم يمكن لبعضهم أن يتوقف عن تفسير بعض الآيات لقصور عنده في التفكير أو لعجز، أو للمحدودية الضيقة أو لأنه لم يتوفق إلى دراستها دراسة كاملة ومن جميع جوانبها حتى يكون له رأي في ذلك...

والتعبير بكون المحكمات ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إشارة إلى أن المرجع إليها في كشف المراد من المتشابهات، وهي الأصل وعليها المعوّل في بيان حقيقة هذه

المتشابهات، فكما أن الأم يُرجع إليها وهي مصدر التربية والتهذيب كذلك المحكمات من الآيات فإليها يجب الرجوع في الكشف عن المراد من المتشابهات وبها تُحلُّ رموز هذه المتشابهات. . .

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ ثم إنه سبحانه يحكي ما في واقع قلوب بعض المنحرفين وما يمارسونه ويقومون به. . . إنهم لانحرافهم وميلهم عن الحق ثم لاتباعهم لأهوائهم وأغراضهم الضالة الصغيرة يتتبعون مواقع المتشابه ويتمسكون بها ويأخذونها ليس حباً بها أو لأنهم يريدون الحقيقة والوصول إلى الواقع من خلال الاستمساك بها والسير وراءها ـ سلوكاً وعملاً ـ وإنما من أجل هدفين سيئين لهما يسبثان من خلالهما للقرآن وفهمه وللحياة وهما:

الأول: ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ فإن هؤلاء المنحرفين عن الحق الذين يعيشون النفاق وسوء الدخيلة يتمسكون بالمتشابه من أجل إضلال الناس وزرع الشك في قلوبهم ونفوسهم. . . إنهم يقومون بإثارة الشكوك من وراء الأخذ بالمتشابهات فهم لا يُرجِعون الآيات بعضها إلى بعض ولا يفسرونها مجتمعة ضمن قواعد اللغة وما يحلله العقل أو ما يلتقي مع العقل وضمن التصور الإسلامي العام الذي ينسجم معه تفسير المتشابه أو يصحح تفسيره. . .

إنّ أصحاب الزيغ والانحراف والميل عن الحق مَثلُهم كمثل من يأخذ الشطر الأول من كلمة التوحيد «لا إله» ثم يحكم على من قالها بالكفر دون النظر إلى ما بعدها «إلا الله» يريد أن يقضي على المتكلم بما لم يعتقده أو يتدين به. . .

إنّ أصحاب الزيغ يتمسكون كما كانوا وكما نراهم اليوم ببعض الآيات ويغفلون عن الآيات الأخرى التي تكشف المراد من الأولى، وما أصحاب البدع من المسلمين من أهل التجسيم والتمثيل أو أهل الجبر والتعطيل أو غيرهم إلا نموذج صارخ لهذه الحقيقة تحكيها هذه الآية. . .

إنهم يحملون هذه الآيات المتشابهة من أجل تشويش أفكار المسلمين وتضليلهم ويستغلون تشابهها للانحراف بهم عن الصراط المستقيم.

الثاني: ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ طلباً لحمل كلام الله على غير وجهه الصحيح بل يحمله على هواه ومشتهاه وما يضل به عباد الله ويحرفهم عن الطريق المستقيم، إنهم أوّلوا كلام الله وصرفوه عن وجهه إلى ما يخدمهم ويخدم أغراضهم من الإفساد والإضلال والانحراف.

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾﴾.

في هذه الفقرة من الآية المباركة وقع الخلاف تبعاً للوقف في القراءة، فمن وقف على قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ فقد حصر تأويل القرآن بالله ولم يسمح لغيره بذلك، ويصبح ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ منفصل عن الأول ويكون ذلك ابتداء كلام لا تعلق له بما تقدم...

وأما إذا عطفنا ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾ على ﴿اللَّهُ﴾ فعندها يشترك الراسخون في العلم بمعرفة تأويل القرآن.

وقد افترق المفسرون تبعاً لهذين الاتجاهين فذهب كل جماعة إلى إتجاه ودعّموا رأيهم بأدلة وبراهين واعتمدوا في كثير منها على الغث والهزيل، حتى وصل بهم الأمر إلى أدلة «أوهن من بيت العنكبوت» وإلى الاستشهاد بما ذهب إليه عمر بن عبد العزيز وغيره ممن لا حظّ لهم في العلم والمعرفة..

وعجباً لهؤلاء كيف ذهبت بهم هذه المذاهب وشتّت آراءهم؟ وأعجب من ذلك أنهم لم يرجعوا إلى معدن العلم وأصحاب الرأي والفهم الذي نزل القرآن في بيوتهم وعلى جدهم الأمين...

نعم إن هذا الضياع والتيه ما كان إلا لأنهم تنكّبوا الطريق المستقيم وأخذوا بآراء شخصية واجتهادات فردية كانت نتاج فهم سطحي غير مرتبط بأصول تستند إلى النبي وأهل بيته الطاهرين... والحق في هذه المسألة ما ذهب إليه أهل

البيت حيث ألحقوا الراسخين في العلم بالله في معرفتهم بتأويل القرآن، فقد ورد عنهم الكثير ومنه.

في الصحيح عن أبي جعفر عليه السلام قال[١]: إن رسول الله صلى الله عليه وآله أفضل الراسخين في العلم، فقد علم جميع ما أنزل الله من التنزيل وما كان الله لينزل عليه شيئاً لم يعلمه التأويل وأوصياؤه من بعده يعلمونه قال الراوي: «يزيد بن معاوية» جعلت فداك إن أبا الخطاب كان يقول فيكم قولاً عظيماً...

قال: وما كان يقول؟

قلت: قال: إنكم تعلمون علم الحلال والحرام والقرآن.

قال: إن علم الحلال والحرام والقرآن يسير في جنب العلم الذي يحدث في الليل والنهار.

وفي الصحيح عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: نحن الراسخون في العلم ونحن نعلم تأويله.

وهناك أحاديث من طرق السنة تؤيد هذا الرأي وتذهب إليه تفيد أنَّ الراسخين في العلم يعلمون تأويل القرآن ومتشابهه... ويساعد هذا الاتجاه أيضاً، أنه كيف يمكن أن يُنزل الله كتاباً لا يفهم تأويله الناس؛ بل كيف يسوغ في العقول قبول مثل هذا الكلام في حق رسول الله الذي تلقى القرآن وأنزله عليه ليبلغه إلى الناس..؟

إن حرمان الأمة وعلى رأسها النبي الأعظم وخلفاؤه الكرام من فهم القرآن وتأويله أمر لا يمكن قبوله أو التسليم فيه، ومن ذهب إلى ذلك ضيّع أثمن وأغلى الثمرات والمنافع...

إذاً فالراسخون في العلم يعلمون تأويل المتشابه حال كونهم يقولون آمنا به «وصدقنا به» لمعرفتهم بمنطلقاته واستكشافهم لعمقه ومآله وما يراد منه.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج١، ص٣١٦.

﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ المحكم والمتشابه من عند الله ربنا وخالقنا الذي أنزلهما على نبيه قرآناً يُتلى لسعادة الإنسان في الدنيا والآخرة.

﴿وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾ لا يتّعظ أو يعتبر بما في المحكم والمتشابه من الأسرار إلا أصحاب العقول النيرة التي تستثير دفائنها لاستكشاف حقائق الأمور والوصول إلى الأصول...

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ ربنا لا تمنعنا ألطافك التي ننحرف بدونها عن الإيمان بك وما فطرتنا عليه وألهمتنا إليه.. إنه دعاء فيه طلب المدد المستمر من الله لكي يستمر هؤلاء المؤمنون في خطه الذي رسمه لهم.. وحاشا لله أن ينحرف بقلوب الهداة وأصحاب الإيمان والحق، نعم إذا انحرفوا هم بأنفسهم فيتخلى الله عنهم ويمنع فيضه عن الوصول إليهم فيضلوا وينحرفوا... فبعد الهداية التي وصلنا إليها، ثبّتنا يا رب وخذ بأيدينا لنبقى مستمرين على هذه الهداية لنصل إلى رضوانك وما أعددته لأهل الإيمان والسعادة...

﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ طلبوا أولاً أن يمنحهم الله الثبات وعدم الانحراف في العقيدة والإيمان، ثم طلبوا منحة ربانية من قِبله هو الذي يتولى عطاءها وفيضها وعندما تكون المنحة من عنده ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ فلا بدّ وأن تتناسب والمعطي ومن هنا طلبوها من جنابه لتكون عظيمة مع ما في التنكير لكلمة «رحمة» من معنى واسع يشمل الدنيا والآخرة الجليل منها والحقير... ثم وصفوه سبحانه ببعض أوصافه المناسبة لما طلبوه منه.

﴿إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ أنت يا رب وحدك الكثير العطاء الذي تفيض على خلقك وجوداً وموجوداً وتعطي كل سائل وما يتناسب مع مصلحته وما يصلحه.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ هذا إقرار منهم بالبعث والحساب، وأنه سبحانه سيعيد الناس يوم القيامة للجزاء بعد تفرقهم وتلاشي أجزائهم.. سيعيدهم إلى الحياة ثم يأتي بهم للحساب، فالمسيء إلى النار والمحسن إلى الجنة...

إنهم قوم أقوياء في عقيدتهم بالله وبما يستقبلون يوم القيامة من حساب ولقاء فيعدّون لذلك اليوم عدّته ويلبسون له أهبّته ويعتقدون جزماً أن الله أخذ على نفسه ذلك، وهو لن يخلف ما وعد به بل سينجزه كما وعد. . .

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿١٣﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿لَن تُغْنِىَ﴾: الإغناء: الدفع والنفع.

﴿أَمْوَٰلُهُمْ﴾: مفرده مال: وهو ما يملكه الإنسان من جميع الأشياء.

﴿أَوْلَـٰدُهُم﴾: ذريتهم وما ولد منهم يطلق على الذكر والأنثى والمثنى والجمع.

﴿وَقُودُ﴾: الوقود بفتح الواو: الحطب الذي توقد به النار وبالضم مصدر.

﴿كَدَأْبِ﴾: دأب دؤباً: أصله في اللغة الاجتهاد في الشيء والتعب فيه ثم صار بمعنى الشأن والعادة.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾: عاقبهم: وسمي المعاقبة مؤاخذة لأنها أخذ بالذنب.

﴿سَتُغْلَبُونَ﴾: الغلبة: القهر وغلب عليه كذا: إذا استولى عليه.

﴿تُحْشَرُونَ﴾: الحشر: إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم عنه، ويُسمّى يوم القيامة يوم الحشر.

﴿بِئْسَ﴾: كلمة تستعمل في جميع المذام.

﴿الْمِهَادُ﴾: المهد: ما تُهيِّىء للصبي، المهاد والمهد: المكان الممهد الموطأ كالفراش.

﴿ءَايَةٌ﴾: علامة.

﴿فِئَتَيْنِ﴾: جماعة لأنها يُفاء إليها: أي يرجع إليها وقت الشدة.

﴿مِّثْلَيْهِمْ﴾: المثل: الشبه والنظير المماثل.

﴿لَعِبْرَةً﴾: العبرة: الاعتبار والاتعاظ، وهي الآية التي يعبّر بها من منزلة الجهل إلى العلم وأصله من العبور: وهو النفوذ من أحد الجانبين إلى الآخر: ومنه العبارة: وهي الكلام الذي يعبر بالمعنى إلى المخاطب.

﴿الْأَبْصَٰرِ﴾: العقول، يقال لفلان أبصِرْ بهذا الأمر أي رأي وعلم ومعرفة.

التفسير

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ بعد أن ذكر سبحانه فيما تقدم حال المؤمنين ودعاءهم وما يتطلعون إليه وينتظرونه، عقّب هنا بذكر الكافرين وكيف يفكرون ويخططون وما يقولون وما ينتظرهم من عذاب الله...

الذين كفروا بالله ورسوله ولم يؤمنوا بما جاء به الأنبياء من عند الله ويُصّروا على مواقفهم المنحرفة من جهة العقيدة ومن جهة العمل ثم يموتون على كفرهم، فهؤلاء لن تدفع عنهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئاً، بل عذاب الله واقع بهم ولاحق لهم سيصيبهم لا محالة...

وذكر الأموال والأولاد لأنهما الأمران اللذان يدفع بهما المرء عن نفسه الملمات وما يقع فيه من النوائب والمصائب. . . فالأموال يوفرها لأيام الشدائد التي يقع فيها فيدفعها في وجهها ليرفعها عنه ويدفع وقعها عن نفسه. .

وأما الأولاد فهم أقرب الناس إليه يفزع إليهم وهم منه وأهل عصبته يهرعون لنجدته ويدفعون عنه، فإذا كانوا عاجزين عن نصره أو دفع العذاب عنه فغيرهم أعجز وله أقل نصراً ودفعاً. . .

وإذا سقطت أهمّ دعامتين يمكن أن يعتمد عليهما هذا الإنسان الكافر انهارت تبعاً لذلك كل آماله وتطلعاته وسقط في العذاب الأليم.

الآية الكريمة ترشد الإنسان إلى تقوية عرى الإيمان والاعتماد على الله وحده.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ أولئك الكافرون يتحوّلون بكفرهم إلى وقود توقد وتُشعل به النار وهذا منتهى العذاب لهم والألم الشديد الواقع بهم. . .

إنهم بكفرهم ليس فقط تطالهم النار بلهبها وحريقها وألمها بل يتحولون ليكونوا وقودها التي تشتعل بهم وتتوقد بأجسامهم.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ إن طريقة هؤلاء الكفار كطريقة أصحاب فرعون وأهله التابعين له، وكذلك شأنهم كشأن الذين من قبلهم ممّن وقفوا في وجه الأنبياء وناصبوهم العداء وأعلنوا عليهم الحرب. . . إن شأن هؤلاء الكافرين شأن أولئك في التكذيب والكفر.

﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ فوحدة الحركة جمعت كلتا الطائفتين. . . كلاهما كذب الرسل والأنبياء ووقفوا في وجوههم فلا بد وأن تكون النتيجة واحدة والعاقبة واحدة. . إن وحدة الطريق توصل إلى نفس الهدف والنتيجة؛ ألا وهي ما عبّر عنه بقوله تعالى:

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ فأنزل الله عقوباته بهم بسبب ذنوبهم التي ارتكبوها

ومعاصيهم التي عملوها وأهمها تكذيب الأنبياء والوقوف في وجوههم وردّ دعوتهم ومحاربة فكرتهم وطريقتهم. .

فالذنوب ـ وأهمها الكفر والشرك ومحاربة الأنبياء ـ هي السبب في وقوع العذاب عليهم ونزوله بهم. . .

﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ تخويف وتهويل لعذاب الله وأنه سبحانه شديد في عقابه، لا يصمد له بشر ولا يقوى على تحمّله إنسان.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾، قيل: إن سبب نزول هذه الآية: أنه لما انتصر النبيّ في بدر وقدم المدينة قال اليهود: والله هو النبي الأمي الذي بشّرنا به موسى في التوراة ونعته وأنه لا تردّ له راية؛ ثم قال بعضهم لبعض: لا تعجلوا. فلما كان يوم أُحد ونكب أصحابه قالوا: ليس هذا هو ذاك وغلب عليهم الشقاء فأنزل الله هذه الآية. .

والآية صالحة للانطباق على اليهود كما هي صالحة للانطباق على مشركي مكة والجزيرة العربية. . .

﴿قُل﴾ يخاطب الجليل حبيبه محمداً ﷺ وبصيغة الأمر ﴿قل﴾.

﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يهود أم مشركين.

﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ ستُهزمون وتندحرون في الدنيا، وهذا إخبار منه سبحانه قبل وقوعه وهو بشارة من جهة، كما أنه من المعجزات التي بها يثبت أن النبي رسول من عند الله يحمل إلى الناس كلامه وقد وقع ما أخبر به. . جاءت الأيام بعد هذا الإخبار تحمل هزيمة اليهود في المدينة وفي خيبر وفي كل مواقعهم في الجزيرة، كما جاءت هزيمة المشركين العرب في مكة عندما فتحها النبي ثم توالت الناس على اعتناق الإسلام والدخول فيه، فهذا إخبار منه سبحانه بما يجري لهم في دار الدنيا. أما في الآخرة فقد أخبر سبحانه عن مصيرهم المشؤوم بقوله تعالى:

﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ مصيركم إلى جهنم حيث تُجمعون فيها للعذاب ويا قبح ذلك المقام وبئس ذلك الفراش الذي تصبحون عليه مقيمين...

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ هذا مما كلّف الله به نبيه أن يخبر به اليهود والمشركين، وهو أن يتطلعوا إلى جماعتين، والمقصود بهما النبي ومن معه من المسلمين من جهة والمشركون من جهة، أخرى في واقعة بدر.. إنهما جماعتين التقتا في ساحة الحرب في بدر...

فئة مؤمنة لها عقيدتها وتوجهها وأهدافها تقاتل في سبيل الله ومن أجل رفع كلمته وتثبيت دينه.

وفئة أخرى كافرة بحمد الله وتنكر رسوله وتتنكر لكل قواعد العدل والحق وتحاول أن تسقط الدعاة عن دعوتهم وتقاتلهم لتجتث أصولهم وأصول ما يدعون إليه...

﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ أي يرى المشركون الكفار الفئة المؤمنة مثليها بحسب نظرهم، ففي حال يبلغ عدد المسلمين ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً فقد رآهم الكفار ضعف هذا العدد أي ستمائة وست وعشرون وهذا من بشائر النصر للمؤمنين، حيث انهزمت نفوس المشركين عندما رأوا هذا العدد في ساحة المعركة، وهو عدد منظّم يخضع لقيادة واحدة يُسلّم لها الجميع بالحكمة والدراية والتخطيط وبالتالي الفوز والنصر... وإن تسأل كيف تشوشت رؤية الكافرين حتى جاء عدد المسلمين ضعف الواقع الذي هم عليه؟!.

قلنا: إن المشركين لما وقعت المعركة ووقفوا على قوة المسلمين وبطشهم بهم ضاعت أحلامهم وطاشت عقولهم فدهشوا وأوخذوا وذهب بهم الأمر إلى ذلك...

﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ والله يقوّي بنصره وفوزه من يشاء كما أيّد بنصره الفئة المؤمنة في معركة بدر فانتصرت على الفئة الكافرة...

ولكن تأييد الله بنصره لفئة ما لا تكون جزافاً وبغير قواعد وضوابط، بل لا بد وأن تكون خاضعة لموازين وضعها سبحانه، فمن لم يكن له قوة أو قدرة وكان متصلاً به سبحانه فالله يتولى نصره كما حدث لإبراهيم نبي الله، وكما حدث في قضية أبرهة عندما أراد أن يغزو الكعبة ويهدمها وكما حدث في معركة بدر، وأما إذا كانت الفئة كبيرة العدد ولم تلتزم قواعد الإيمان وضوابطه فالله يتركها وشأنها وتكون الغلبة للأقوى لا محالة...

إذا تساوى الناس في معصية الله والبعد عنه فلا يؤيد الله أحداً منهما بالنصر بل تخضع عوامل النصر والفشل إلى قواعد محددة وضوابط النصر والهزيمة ومَنْ استجمعها انتصر ومن قصّر فيها أو تخاذل انهزم...

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ إن في هاتين الفئتين وما وقع من النصر للفئة المؤمنة القليلة على الفئة الكافرة الكثيرة عظة وعبرة ودرساً لأصحاب العقول الواعية المتفتحة السليمة التي تجتاز حدود المادة لتصل إلى عمق الأحداث وتقرأ الأمور ليس بالمنظور المادي فحسب، بل تتخطاه إلى روحية المقاتل وتوجهه وما عليه من العقيدة والإيمان..

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿زُيِّنَ﴾: من زان، يقال: زيّن الشيء: حسّنه وزخرفه.

﴿حُبُّ﴾: حبّه: ودّه، وحبّ الشيء: رغّب فيه وأراده.

﴿ٱلشَّهَوَٰتِ﴾: جمع شهوة: ما تميل إليه النفس وترغب فيه.

﴿وَٱلْبَنِينَ﴾: جمع ابن ـ الولد الذكر.

﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ﴾: جمع قنطار مأخوذ في الأصل من عقد الشيء وأحكامه، ومنه القنطرة لتوثقها بعقد الطاق، فالقنطار: مال كثير مع اختلاف في تحديد هذه الكثرة.

﴿ٱلذَّهَبِ﴾: المعدن الأصفر المعروف بغلاء ثمنه تضرب منه الدنانير.

﴿وَٱلْفِضَّةِ﴾: المعدن الأبيض المعروف تضرب منه الدراهم.

﴿ٱلْخَيْلِ﴾: الأفراس سُمّيت خيلاً لاختيالها في مشيها، وأصل الباب التخيل: أي التشبه بالشيء.

﴿ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾: المعلّمة، من السمة، وهي العلامة، وقيل: من السوم: وهي الراعية.

﴿ٱلْأَنْعَٰمِ﴾: جمع نعم: وهي الإبل والبقر والغنم سميت بذلك لنعومة مشيها ولينه.

﴿ٱلْحَرْثِ﴾: الزرع، سواء كان حبوباً أم بقولاً أم غير ذلك...

﴿مَتَٰعُ﴾: جمعه أمتعة وجمع الجمع أماتع وأماتيع كل ما ينتفع به من عروض الدنيا ولا بقاء له.

﴿ٱلْمَـَٔابِ﴾: المرجع، من آب إذا عاد.

﴿أَؤُنَبِّئُكُم﴾: من الأنباء وهي الأخبار.

﴿أَزْوَٰجٌ﴾: مفردها زوج يطلق على واحد من القرينين من الذكر والأنثى في الحيوانات المتزاوجة وهنا يقصد به النساء..

﴿رِضْوَٰنٌ﴾: بكسر الراء وضمها الرضا: المقابل للسخط.

﴿وَقِنَا﴾: من وقى يقي، والوقاية: حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره...

﴿ٱلْقَٰنِتِينَ﴾: من القنوت: ومعناه لزوم الطاعة مع الخضوع.

﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾: من أنفق المال: أخرجه عن ملكه إلى ملك غيره أو صرفه عليه.

﴿بِٱلْأَسْحَارِ﴾: جمع السحر: وهو الوقت الذي قبل طلوع الفجر.

التفسير

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ حُسّن للناس وجُمّل إليهم حب الشهوات أي المشتهيات التي سيذكرها سبحانه وتعالى في مقام تعداده لها. . .

والشهوات جمع شهوة وهو مصدر معناه الرغبة في الشيء وحبه.

وهنا يبدو سؤال يأتي عفوياً يلحّ على الإنسان وهو. . مَنْ هو المزيّن والمحسّن لهذه المشتهيات؟ والذي يبدو أنه الله سبحانه من حيث إبداعه لها مزيّنة وإيجادها كذلك، فتكون محل الابتلاء والاختيار من حيث تصلح لتكون عوناً على تقوى الله وبلوغ درجات عالية في الكمال إن استفاد منها الإنسان على أنها طريق للآخرة وسبيل يكتسب من خلاله خير تلك الدار وقد تنعكس القضية إذا اختلف الهدف. .

ومن المعلوم أن الله سبحانه وتعالى ذكر التزيين في كتابه ونسبه تارة إليه كما في قوله تعالى في الإيمان: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾(١).

وتارة أخرى نسبه إلى الشيطان كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾(٢).

ومرة ثالثة لم يذكر المنسوب إليه كما في مقامنا هذا، وبقرينة ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ أي كلهم مُدرك أن هذا في تكوين هذه الأشياء وإيجادها كانت زينتها ولجميع الناس بما فيهم من آمن واتقى. . . ثم عدّ سبحانه من المشتهيات سبعة.

١ ـ ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ وقدّمها سبحانه للغريزة الجنسية التي تدفع الرجل وتشده إلى المرأة. . إن المرأة حاجة طبيعية للرجل على حد حاجته للأكل والشرب مع اختلاف نسبي بينهما، وعلى كل حال ـ فانجذاب الرجل إلى المرأة أمر لا ينكر ورغبته فيها مما يُعرف ويُؤلف ـ وهي بالرغم من كيدها وحيلها ومكرها

---

(١) الحجرات/ ٧. (٢) الأنفال/ ٤٨.

ودهائها، فقد أودع الله فيها سرّاً عميقاً رقيقاً تسحر الرجل وتجذبه إليها رغم معرفته بها..

إنها تملك جذبة سحرية تذلّ لها رقاب أبناء الدنيا من الرجال، بينما يتحصّن عباد الله بالله ويتخطون عنها رغم رغبتهم فيها فلا يسقطون في محرم يكون عن يديها أو بها، ومنها لأنهم يدركون أثر ذلك عند الله وعلى أنفسهم الطاهرة...

٢ ـ ﴿وَٱلْبَنِينَ﴾ وثنى بالبنين لأنهم من النساء، ولأن حبهم كبير وأثرهم في القلب عظيم.. ولأنهم بعض من الآباء، يدفعون عنهم الأذى ويحملون آثارهم وأسماءهم ويكملون الدرب بعدهم.. الأبناء نسخة متجددة عن الآباء يحيون بهم ويعادون من جديد.

وقال الإمام علي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لولده الإمام الحسن عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ «وإني قد وجدتك بعضي بل وجدتك كلي حتى كأن شيئاً لو أصابك أصابني وكأن الموت لو أتاك أتاني فعناني من أمرك ما يعنيني من أمر نفسي».

٣ ـ ٤ ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ والذهب والفضة معدنان يحبهما الإنسان ويرغب فيهما ويحب أن يتكدّسا عنده ويزدادان، ومهما كبر حجمهما وازداد وزنهما تبقى نفسه تتشوق للزيادة وترغب فيهما لأنه يرى أنهما أصل الأثمان وبهما يحقق كل الأماني والآمال ولذلك يهاجر ويتغرب ويقذف بنفسه حتى التلف رغبة في تحصيلهما والوصول إليهما وقصص التاريخ وحوادثه لطالبهما كثيرة وكثيرة.

ولا يخفى أن قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ كم فيها من تصوير رهيب لحال هذا الإنسان ورغبته في الذهب والفضة، فإن القنطار وإن اختلفت كلمات المفسرين فيه بين كونه ملىء مسك ثور ذهباً أو مئة ألف دينار أو ألف أوقية فإنه مبلغ كبير مؤكد بقوله: ﴿ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ لتثبيته وتأكيده كما هو في اللغة العربية حيث يجعلون توصيف الشيء بما يشتق منه للمبالغة فيه كما في قولهم ـ ليل أليل ونحوه..

٥ ـ ﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ والخيل: هي الأفراس، وسميت خيلاً لاختيالها في مشيتها، وهي مركب العز وبها يُنال الظفر ولا تزال الدول حتى الراقية منها تحتفظ بالخيول وتعتني بها وتقيم لها الأسواق تتبارى بها وتجريها في حلبات السباق. . .

وخصّ سبحانه المسوّمة منها أي المعلمة المزيّنة، لأنها تدلّ على أصالتها، أو من السوم وهو الرعي. . أي الراعية لكثرتها أو لأنها تكون أفضل من غيرها، وعلى كل حال فهذا النوع من الخيل مما ترغب فيه النفوس وتطلبه لأنه يروي العين ويشبعها ويؤنس النفس ويريحها وخصوصاً إذا فسرنا ﴿ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ بالمطهّمة المدرّبة ذات القدّ الرشيق المضمرة. . .

٦ ـ ﴿ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ وهي الإبل والبقر والغنم وهي أمنية الناس ورغبتهم وخصوصاً في القديم وفي البيئة العربية البدوية حيث كانت هي ثروة البدوي التي يحاول أن يزيدها باستمرار وينمّيها على الدوام. . .

والأنعام لفوائدها ومنافعها حتى الدول المتحضرة اليوم والمتقدمة منها تهتم بتربيتها وتقيم لها المزارع الضخمة والمساحات الشاسعات الواسعة وما المزارع التي تُعدّ بملايين الرؤوس من البقر أو الغنم إلا دليل عناية بهذا النوع من الأنعام. . .

إن الثروة الحيوانية التي يشكل البقر والغنم عمودها الفقري هي دليل تقدم البلاد وازدهارها ودليل اكتفائها واستغنائها عن كل استيراد لهذه المادة التي تحتاجها البلاد لإطعام العباد. . .

٧ ـ ﴿وَٱلْحَرْثِۗ﴾ هي المزروعات من حبوب وخضار وفواكه وغيرها ويمكن أن يصنّف هذا النوع بالثروة الزراعية. . .

والإنسان يحب ويرغب ويشتهي أن يكون له بساتين مزروعة تبهج النظر وترويه وترتاح إليها القلوب والنفوس ويجني من خلالها المنافع والفوائد والأرباح. . .

إن المزروعات فيها تحصيل قوت الناس وسد الحاجات فحق لهذا الإنسان أن يشتهيها ويرغب فيها. . . وقد قيل: «وبل لأمة تأكل ما لا تزرع».

﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ كل ما تقدم من المشتهيات هي ما يتمتع به الإنسان في هذه الحياة الدنيا ثم ينقطع فلا يدوم أو يبقى، وفي هذا تقليل لقيمتها وتصغير لها وأنها إذا كانت مؤقتة فالعاقل لا يعطيها أكثر مما تستحق. . إنه يستخدمها كطريق لرضا الله وليس من شأنه أن يتخذها كحقيقة يركن إليها ويعتمد عليها ويجعلها محور عمله ومحط نظره. . .

إنها متاع الحياة الدنيا. . أي أنها تبقى في الدنيا وجعلت فيها فينبغي أن لا تؤثر على الآخرة أو تضر فيها. . لا يجوز إذا اشتهى الرجل امرأة أن ينالها بالحرام أو أحب الذهب والفضة أن يجمعهما من الطرق غير المشروعة وهكذا غيرها. . .

إنها للدنيا يقضي بها حاجاته وستبقى في الدنيا فلا يجوز أن تتحول إلى هدف بنفسها بعد أن كانت وسيلة لإسعاد هذا الإنسان. . .

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ هذا ترغيب في النهاية الطيبة التي تكون عند الله بعد الموت والرجوع إليه. . إن من علم أن المرجع إلى الله والعود إليه استدعى ذلك منه أن يصرف متاع الحياة الدنيا من أجل ذلك المآل والمرجع فينظر إلى ما ينفعه في آخرته فيعمل به في دنياه. . . إن على الإنسان أن يتزوج المرأة الحلال ويترك السِفَاح وينوي التقرب من الله بهذا الزواج كي يحصّن نفسه من جهة ويطلب الولد الصالح من جهة أخرى. . . وهذا الإنسان يشتهي المال ويرغب فيه، فينبغي أن يكون ذلك من أجل أن يصرفه في سبيل الله وعلى عباد الله، وهكذا كل أمرٍ من أمور الدنيا ومشتهياتها يحوله هذا الإنسان إلى ما ينفعه في آخرته يوم يعود إلى الله ويرجع إليه. . .

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ بيان لأحسنيّة العود إلى الله. . حيث لا عناء ولا فناء ولا كدّ ولا تعب ولا همّ ولا غم، بل نعيم مقيم وظل ظليل من رب رحيم. . . وفي هذا تحريض على طلب ما عند الله لأنه الباقي الدائم. . .

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ قل يا محمد: وماذا يقول لهم؟.. بصيغة الاستفهام التقريري لمضمون «إن ما عند الله خير مما هم فيه وعنده حُسن المآب» فليقل لهم...

﴿أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ بأفضل وأنفع وأكثر فائدة مما مرّ من النساء والبنين والذهب والفضة وغيرها.

﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فمن اتقى الله بترك معاصيه واجتناب محارمه والقيام بما أمر وأوجب! هذا له عند الله جوائز سنية ومقامات عالية... إنهم الأتقياء أهل الورع والإيمان الذين التزموا جادّة الشرع وتركوا كل انحراف، هؤلاء لهم جنات موصوفات بأحسن الأوصاف حيث تجري من تحتها الأنهار...

فالأتقياء لهم:

أولاً: الجنات التي تجري من تحتها الأنهار.

ثانياً: لهم في هذه الجنات الخلود والدوام ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ مستمرون لا يتحولون عنها ولا يُزاحون عنها عكس نعيم الدنيا ومشتهياتها حيث لم يكد يصفو له العيش حتى يرحل عنه ويتركه لغيره...

والخلود نقطة مميزة في رؤية الإنسان وفي طمأنينته، وهو الذي دخل منه إبليس لإغواء آدم حينما قال له: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ ولكن إذا لم يكتب لهذا الإنسان الخلود في الدنيا فهناك الخلود في الآخرة، وهذه ميزة الآخرة على الدنيا وهذا وجه من وجوه أحسنية ما في الآخرة على ما في الدنيا.

وثالثاً: ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ فهناك في الآخرة أزواج طاهرات وعلى كل المستويات الأخلاقية والمعنوية والثقافية وحتى المادية من حيث لا يعتريهن ما يعتري نساء الدنيا من حيض ونفاس وجنابة وغيرها مما تنفر منه النفس أو تشمئز منه الطباع.

ورابعاً: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وهي نعمة خاصة فوق كل تلك النعم يتميز بها هؤلاء الأتقياء... حيث يرضى الله عنهم ومنهم، وهذه النعمة من أعظم النعم المعنوية والروحية التي يعيشها الأتقياء.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ إنه سبحانه يعلم الأتقياء ويميزهم عن غيرهم فيثيب أهل التقوى ويرفع شأنهم، كما أنه يعاقب أهل المعصية وينزل درجتهم، فالجزاء قدر الاستحقاق، وفي الآية بيان لأدنى مراتب النعمة المتمثل بنعم الدنيا ومشتهياتها، كما أن فيها بيان أعلاها الذي هو رضوان الله، وأخيراً فيها بيان أوسطها وهو الجنة ونعيمها...

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

هذه صفات المتقين ومقولتهم ينقلها الله عنهم... إنهم يعيشون حالة طوارىء مع أنفسهم يخافون عليها من عذاب الله، فلذا هم باستمرار يعترفون بالتقصير ويلوذون بأحب شيء إليه سبحانه وهو ما دعاهم إليه من الإيمان ثم منه يدخلون إلى طلب غفران ذنوبهم ومحوها من صحائفهم ويطلبون منه سائلين إياه أن ينجيهم من عذاب النار وألمها...

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ﴾ الله فهو اعتراف منهم من أعماق نفوسهم وشعورهم أن الله هو ربهم، وهذا الاعتراف له أبعاد كثيرة: منها الإيمان برسله وبما جاءوا به من كتب وما حملوه إلى الناس من تشريع وأحكام وقوانين...

ومنها الإيمان باليوم الآخر والاستعداد له بالعمل الجاد والسعي في سبيل تحقيق إرادة الله في كل الميادين...

ومنها أن يمارس الشعائر بصدق وأمانة وبشكل كامل وصحيح وتام.

ومنها نشر العدل والثورة على الظلم وإحقاق الحق وإزهاق الباطل.

ومنها أن يعرف الطريق إلى الله الذي رسمه لعباده وأرادهم أن يسلكوه إليه وهو طريق أهل البيت والولاية لهم على الناس وهكذا دواليك...

ومن هذا الإيمان تنطلق الكلمات بصدق.

﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ امحها يا رب من سجلاتنا أو استرها علينا ولا تحاسبنا بها.

﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ احفظنا من عذاب النار وألمها وادفع عنّا شرها وكَلَبِها فإنا لا نطيقها ولا نحتمل أذاها وألمها...

﴿الصَّابِرِينَ﴾ الذين يحملون أنفسهم على الاتزان والهدوء ويبقون في خط الطاعة لا ينهارون أمام المصاعب والمتاعب والميول والشهوات.

- الصابرين على طاعة الله فيؤدونها كما أراد.

- الصابرين عن معصية الله فلا يمارسونها أو يقتربون منها.

- الصابرين على الأذى من الناس فيتحملون منهم ما يعقبهم الأجر والثواب.

- الصابرين على مشقات الحياة وأتعابها وما فيها من ابتلاء...

- الصابرين في الله ومن أجله يفكرون ويخططون لينتصروا ويحققوا إرادة الله ورضاه...

﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ في إيمانهم وفي أقوالهم وفي أفعالهم، الصادقين مع الله ومع الناس ومع أنفسهم، والإيمان توأم الصدق، فمن لم يصدق في إيمانه أو في أعماله أو في أقواله أو في أي مجال من مجالات حياته فقد فرّغ الإيمان من مضمونه الصحيح والسليم لأن الإيمان التزام بعقيدة والعمل بمقتضاها فمن أخلّ بالعمل أفسد هذا الإيمان وأخلاه من محتواه...

﴿وَالْقَانِتِينَ﴾ إنهم دائماً في عبادة، مستمرون في الطاعة لا يخرجون عنها ولا يتعدونها إلى غيرها...

﴿وَالْمُنفِقِينَ﴾ وهذه صفة أيضاً من صفاتهم الجليلة، إنهم ينفقون مما يملكون في سبيل الله وعلى المحتاجين وأهل العوز والفاقة... إن نفوسهم الطاهرة ترفض الشح والبخل وتعطي غيرها مما أعطاها الله... إنها أنفس تحسّ مع أهل الحاجة فتفيض بالعطاء...

﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ إنها أوقات ما قبل طلوع الفجر، حيث يغطُّ الناس في نوم عميق ويسبح الكون في هدوء وصفاء... في تلك الأوقات ينطلق الأتقياء بدعاء يشق الفضاء ويصعد نحو السماء... إنها ترنيمة العشاق لله المطيعين له الوالهين إلى رضاه... إنه الوقوف بين يديه الذي قد يتجلى في دعاء أو صلاة أو ذكر أو تسبيح أو استغفار...

إنه وقت لا يقوم فيه إلا الأتقياء يهجرون لذيذ نومهم ويبتعدون فيه عن كل رياء... فيه صفاء وطهر ينعكس على النفس ويشعر المتعبد في تلك الساعة بلذة المناجاة لله والقرب منه...

وفي الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال[١] رسول الله صلى الله عليه وآله خير وقت دعوتم الله فيه الأسحار، وتلا هذه الآية في قول يعقوب عليه السلام: سوف أستغفر لكم ربي قال: أخّرهم إلى السحر...

وفي الحديث عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن[٢] الله عز وجل يحب من عباده المؤمنين كل دعّاء فعليكم بالدعاء في السحر إلى طلوع الشمس فإنها ساعة تفتح فيها أبواب السماء وتقسم فيها الأرزاق وتقضى فيها الحوائج العظام.

(١) وسائل الشيعة، ج٧، باب استحباب الدعاء في السحر، ح٢.
(٢) وسائل الشيعة، ج٧، باب استحباب الدعاء في السحر، ح٣.

قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ
لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ
اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ
بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿شَهِدَ﴾: من الشهادة: وهي الإخبار بالشيء عن مشاهدة أو ما يقوم مقام المشاهدة، أو من شهد الشيء وشاهده، إذا حضره، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾(١) والشهادة: الإقرار والبيان.

﴿الْقِسْطِ﴾: العدل.

﴿الْعَزِيزُ﴾: من عز: وهي حالة مانعة من أن يُغلب من قولهم: أرض عزاز: أي صلبة، والعزيز: الذي يَقهر ولا يُقهر.

---

(١) البقرة/ ١٨٥.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: هو الذي يضع الأشياء في مواضعها.

﴿ٱلدِّينَ﴾: أصله الجزاء، ويطلق على الطاعة، الملة وهو المراد هنا.

﴿ٱلْإِسْلَٰمُ﴾: في اللغة الاستسلام والانقياد التام.

﴿ٱخْتَلَفَ﴾: الاختلاف والمخالفة: أن يأخذ كل واحد طريقاً غير طريق الآخر في حاله أو قوله، ولما اقتضى الاختلاف ـ التنازع ـ استعير ذلك للمنازعة.

﴿أُوتُوا﴾: أُعطوا.

﴿بَغْيًا﴾: ظلماً وحسداً.

﴿يَكْفُرْ﴾: يجحد، من الكفر وأصله الستر والتغطية.

﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: كلامه المنزل على رسوله.

﴿سَرِيعُ﴾: من السرعة التي هي ضد البُطء، وسرع في الأمر: إذا بادر وعجّل.

﴿حَآجُّوكَ﴾: جادلوك ونازعوك.

﴿أَسْلَمْتُ﴾: انقدت وأطعت.

﴿ٱتَّبَعَنِ﴾: من اتبعه: إذا اقتفى أثره ومشى خلفه.

﴿ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾: من لا كتاب لهم.. أو من لا يقرأون ويكتبون...

﴿تَوَلَّوْا﴾: أعرضوا.

﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾: التبليغ: وهو إيصال المطلوب.

﴿بَصِيرٌ﴾: عليم.

﴿ٱلْعِبَادِ﴾: الناس.

التفسير

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الشهادة تعني الإخبار عن مشاهدة ورؤية وتفيد الإعلام بالأمر والعلم به.

وشهادة الله هنا تعني أنه بيّن وأعلم أنه سبحانه الواحد الأحد الذي لا إله غيره... بيّن ذلك وأعلم بما نصب من الدلائل على هذه الألوهية الموحدة.. إنه النظام الدقيق والتنسيق العجيب والحكمة المتناهية في وضع كل شيء في محله دون أن يتجاوز موقعه أو يتخطى دوره.. إنه النظام الذي يشهد بألوهية الله كما يشهد بوحدانيته وحكمته...

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ وشهد هؤلاء بألوهية الله ووحدانيته وشهادة الملائكة بإقرارهم بالوحدانية وشهادة أولي العلم بما حصل لهم من الأدلّة القطعية التي أثبتوا من خلالها وحدانية الله.

إنّ أولي العلم نظروا في هذا النظام وما فيه من دقّة، ورجعوا بعد بحث إلى أن الصانع هو الله الواحد الأحد وعادوا بما قال سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ وذكر أولي العلم في المقام مع الملائكة يدلّل على عظمة العلم وكيف ترتفع رتبة من حمله وانتسب إليه.

﴿قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ أي حال كونه مقيماً للعدل فشهادته على الوحدانية في نفس إقامته للعدل، حيث وضع كل شيءٍ بما يناسبه وبحسب ما يناسبه تنظيماً وتقسيماً وتفصيلاً، خلقاً وابتداعاً وتكويناً...

ويمكن أن يرجع ﴿قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ إلى ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾، فيصبح المعنى والملائكة تشهد أن لا إله إلا هو قائماً بالقسط وأولو العلم يشهدون أن لا إله إلا هو قائماً بالقسط...

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تأكيد للمشهود به وأنه لا إله إلا هو العزيز في ملكه الحكيم في صنعه، فهو كامل القدرة من كل الجهات عليم بكل الأشياء...

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ جملة مبتدأة مؤكدة لما قبلها، وتعريف الدين والإسلام للحصر وأنه لا دين مقبول أو مرضي إلا الإسلام. . .

الإسلام هو الذي يتفق والفطرة الإنسانية التي فطر الله الإنسان عليها، فإن العاقل بمجرد أن يدرس القضايا العقيدية والتشريعية تحمله تلك الدراسة للإيمان الصحيح والاعتقاد أن الله واحد ومنه يجب أن تؤخذ كل التشريعات التي جاء بها الأنبياء. . .

﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ هذا بيان لانحراف أهل الكتاب - يهود ونصارى - عمّا جاءهم به موسى وعيسى، حيث وصلت إليهم البينات الصادقة الناطقة بالحق وتوضحت أمامهم معالم الصدق.

إنّ هذا الاختلاف فيما بينهم لم يكن وليد نقص في الأدلة والبراهين والبينات، وإنما كان وليد حسد وبغي وظلم تعيش كلها في القلوب الظالمة فتنحرف بأهلها عن الاستقامة والعدل وقول الحق والصدق، فتروح تختلف فيما بينها فيما جاءها من دين صحيح وتنقسم إلى مذاهب يكفّر بعضها بعضاً ويضرب بعضها وجوه بعض وتختلف أيضاً مع غيرها، فتنكر نبوة محمد ﷺ الذي بشّرت به كتب السماء من إنجيل وتوراة وبشّر به موسى وعيسى، وكذلك قامت البينات على صدق ما جاء به النبي ﷺ ولكن أهل الكتاب بغياً منهم وظلماً لأنفسهم وللحقيقة أنكروا نبوّته وتنكروا لكل المعجزات والحقائق التي جاءهم بها النبي ووضعها بين أيديهم. . .

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ هذا وعيد وتهديد للذين يجحدون آيات الله وما أنزله على رسله، فإنه سبحانه يوفيهم حسابهم بسرعة حتى لا يتأخر العقاب عمّا يستحقه العصاة. . .

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ هذا توجيه إلهي لنبيه ﷺ كيف يواجه هؤلاء القوم عندما يجادلونه بالباطل ويحاولون التضليل والتزوير في

الحوار... عندما يصبح همّ الذين أوتوا الكتاب أن يجادلوا حباً بالجدال وليس توصلاً إلى الحقيقة التي توضحت معالمها أمام أعينهم وظهرت صادقة كالشمس لمن أراد الوصول إليها.

إن مثل هؤلاء لا يعود ينفع معهم الحوار... إن كل الحجج سقطت أمام تعنّتهم، وكل البراهين قد فشلت أمام عنادهم، فلا بدّ والحالة هذه أن يقول الإنسان عقيدته ويكشف عن حقيقته ثم يتركهم وشأنهم...

﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِۗ﴾ فأنا ومن اتبعني أسلمنا وجوهنا لله... أخلصنا له وانقطعنا إليه ولم نلتفت إلى سواه... فالله مقصدنا وإليه توجهنا ولتسقط وتتهاوى كل الاتجاهات الأخرى التي تمنع هذا التوجه أو تقف في وجه هذا الاتجاه...

إنّ الاستسلام لله والإخلاص له والتوجّه نحوه قرار عقيدي ثابت لا يتغيّر ولا يتبدّل.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَواۖ﴾ وهـذا أمر من الله إلى النبيﷺ أن يقول لليهود والنصارى المعبّر عنهم ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي أُنزل عليهم كتاب إلهي ـ التوراة والإنجيل ـ وكذلك ﴿والأمين﴾ الذين هم مشركو العرب الذين لم ينزل عليهم كتاب يهديهم، أو لأنهم أمّة أمّية لا تعرف القراءة والكتابة بشكل عام وإن انفرد بعضهم بذلك...

قل لهم: ﴿أَأَسْلَمْتُمْۚ﴾ استفهام يراد به التقرير وفي ضمنه الأمر: أي أسلموا لله واعتقدوا به وتوجهوا إليه.. دعاهم إلى الإيمان ثم رغبهم بذلك بأن ذكر ما يترتب على هذا الإسلام.

﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَواۖ﴾ أي فقد وصلوا إلى الخير وإلى كل ما يرضي الله وينفعهم ويفيدهم...

﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن الإسلام وأعرضوا عنه ولم يقبلوا الهدى...

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ هذه تسلية للنبي وتخفيف عنه مما يلاقيه من تعنتهم، وأن المطلوب منه قد حصل ولم يقصّر - حاشاه - في التبليغ وإيصال الحق إليهم، وهذا هو المطلوب منه وقد أدّاه إليهم بكل خصوصياته وتفاصيله وحججه وبراهينه وفي ذلك كفاية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد...

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ هذا وعد للمؤمنين ووعيد وتهديد للكافرين الذين رفضوا دعوة النبيّ وأبوا قبول قوله وما جاء به من عند الله... فالله عالم بأفعال عباده فمن آمن واتقى جزاه الله الجنة ومن أبى فجزاؤه النار وبئس القرار...

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿يَكْفُرُونَ﴾: يجحدون: وأصل الكفر: ستر الشيء.

﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: كلامه المنزل.

﴿ٱلْقِسْطَ﴾: العدل.

﴿فَبَشِّرْهُم﴾: البشارة: هي الخبر السار.

﴿حَبِطَتْ﴾: بطلت.

التفسير

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

ذكر سبحانه ثلاث صفات قبيحة كانت تعيش في اليهود والنصارى المعبّر عنهم «أهل الكتاب».

الأولى: إنهم ﴿يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي يجحدونها ولا يؤمنون بما جاء به الأنبياء. والكفر: هو أول الانحراف وأعظمه وأساس الضلال ورأسه، منه خرجت كل رذيلة وإليه تعود كل مفسدة.

الثانية: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ هذه هي الصفة الثانية: إنهم يقتلون الأنبياء ظلماً وعدواناً، وقد فعل بنو إسرائيل كل رذيلة حتى قتلوا الأنبياء، وليس هناك أعظم جرماً ممن عمد إلى رجل يحمل كلام الله مريداً به هدايته ونفعه ومصلحته، فقتله لأن قتله ليس قتلاً شخصياً فحسب بل هو قتل للقيم الإلهية والعقائد الدينية والتشريعات السماوية. . .

فإن قيل: لماذا جيء بقوله؟ ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ مع أن قتل الأنبياء لا يكون إلا بغير حق؟

قيل: إنما جيء بقوله ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ للتأكيد على أن قتلهم لا يكون إلاّ كذلك فهو توضيح وبيان للقتل وأنه كذلك كان منهم.

وإن قيل: كيف يخاطب الله من كان حاضراً في زمانه ويحمّلهم ما عمله آباؤهم؟

قيل: لأن الحاضرين زمان النبي ﷺ رضوا بأفعال آبائهم فدخلوا معهم وخوطبوا بخطابهم، وإنما يجمع الناس السخط والرضا، ومن رضي بفعل قوم كان معهم ـ كما في الحديث ـ وعلى الداخل إثمان وعلى الراضي إثم. . .

الثالثة: ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ وهذه الصفة الثالثة لهؤلاء القوم من حيث يقتلون الذين يأمرون بالعدل والحق المتجسد بالأنبياء والرسل، وهؤلاء هم الدعاة إلى الله الذين آمنوا بالأنبياء واقتفوا آثارهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. . .

إن الدعاة إلى الله الذين يضحون في سبيل الحق والعدل، هؤلاء في منزلة رفيعة وعظيمة بحيث يُعدّ جرم من قتلهم على مستوى الكفر وقتل الأنبياء وقد مارس بنو إسرائيل قتلهم والتنكيل بهم وبأبشع الصور وأقبح الأفعال. . .

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هؤلاء القَتَلة من الكفار بشرهم بعذاب أليم وعبّر بالبشارة استهزاء وسخرية منهم.

ودخلت الفاء على «بشرهم» لأنها بمنزلة الجزاء المتفرع على الكفر والقتل...

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٢)﴾ أولئك الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين.. بطلت أعمالهم ولم تعد تنفعهم أيمانهم لا في الدنيا ولا في الآخرة، ففي الدنيا تلاحقهم الإسقاطات من أعين الناس ولا ترفع عنهم الملاحقة والقتل، وأما في الآخرة فليس لهم عمل ينفعهم أو يحميهم من عذاب الله، كما أنهم فقدوا الناصرين الذين يدفعون عنهم ويحامون عن مواقفهم لما فعلوه بحق الله والرسل والدعاة إلى الله...

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿أُوتُوا﴾: أُعطوا.

﴿نَصِيبًا﴾: النصيب: الحظ.

﴿الْكِتَابِ﴾: يراد بالكتاب هنا: هو التوراة.

﴿يُدْعَوْنَ﴾: من الدعاء: وهو النداء.

﴿يَتَوَلَّىٰ﴾: يعرض.

﴿فَرِيقٌ﴾: جماعة.

﴿لَن تَمَسَّنَا﴾: قال الراغب: المس: يقال فيما يكون معه إدراك بحاسة اللمس، والمس يقال: في كل ما ينال الإنسان من أذى.

﴿مَّعْدُودَاتٍ﴾: قال الراغب: أي قليلة لأنهم قالوا نعذب الأيام التي عبدنا فيها العجل.

﴿وَغَرَّهُمْ﴾: خدعهم وأطمعهم بالباطل.

﴿يَفْتَرُونَ﴾: من الافتراء: وهو الكذب والاختلاق.

﴿جَمَعْنَٰهُمْ﴾: الجمع: ضمّ الشيء بتقريب بعضه من بعض، يقال: جمعته فاجتمع.

﴿لَا رَيْبَ﴾: لا شك.

﴿وَوُفِّيَتْ﴾: توفية الشيء: بذله وافياً ـ أي كاملاً ـ واستيفاؤه: تناوله وافياً.

﴿مَا كَسَبَتْ﴾: ما عملت.

التفسير

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

روي عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في رجل وامرأة من اليهود زنيا وكانا ذوي شرف، وكان في كتابهم الرجم فكرهوا رجمهما لشرفهما، فرجعوا في أمرهما إلى النبي ﷺ رجاء أن يكون عنده رخصة في ترك الرجم فحكم الرسول ﷺ بالرجم فأنكروا ذلك.

فقال صلوات الله عليه: بيني وبينكم التوراة فإن فيها الرجم فمن أعلمكم؟.

قالوا: ابن صوريا الفدكي فأتوا به وأحضروا التوراة، فلما أتى على آية الرجم وضع يده عليها.

فقال ابن سلام: قد جاوز موضعها يا رسول الله! فرفع كفه عنها فوجدوا آية الرجم فأمر النبي ﷺ بهما فرجما فغضبت اليهود غضباً شديداً فأنزل الله تعالى هذه الآية...

وعلى كل حال.. فالآية فيها معنى التعجب وتقديره ألا تعجب يا محمد من

أمر هؤلاء الذين أعطوا حظاً وافراً من التوراة ومعرفتها يدعون إلى كتابهم هذا ليفصل بينهم عند اختلافهم أو ليبيّن لهم أحكامهم، ثم لا يخضعون لحكمه بل يعرضون عنه ويديرون ظهورهم إلى حكمه وكأنهم لا يعرفون الحقيقة ولا يدركون واقعها!؟

وقوله: ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ تأكيد لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ﴾ فكأن طبعهم الإعراض والتولي عن حكم الله وقضائه... والآية تدل على شقاء هؤلاء الأحبار الذين عرفوا الحق ثم أعرضوا عنه وكان من حقهم أن يبادروا إلى بيانه ثم العمل به لأن ذلك من مقتضى الإيمان..

وهذه الآية تنطبق على كل أهل الأديان الذين يعرفون الحقيقة ثم يعرضون عنها ولا يقبلون بها... سواء كانوا نصارى أو مسلمين...

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤)﴾ ذلك التولي والإعراض إنما كان لأنهم يذهبون إلى أنهم أبناء الله وأحباؤه، وهو سبحانه لا يعذّبهم إلا أياماً معدودة محصورة يخرجون بعدها إلى النعيم... إنهم يحملون أفكاراً مغلوطة أعطت هذه النتيجة الخاطئة الساقطة، وأيضاً لبّسوا على أنفسهم ما كذبوا به على الله، وغرّهم وخدعهم أن دينهم وعقيدتهم تحميهم وتدفع عنهم العذاب والألم وإن خالفوا التشريع وتمرّدوا على حكمه ولم يعملوا بمقتضاه...

ثم ردّ الله عليهم هذه المقولة الباطلة، وأنهم يخضعون مثل الناس إلى حكم الله يوم القيامة حيث يجمعهم ويحاسبهم ويعطي كل نفس ما كسبت.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ كيف يكون حالهم وعلى أي وجه يكونون من التعاسة والبؤس إذا جمعناهم يوم القيامة المحتوم؟ يوم يخرج الناس لرب العالمين لموافاة حسابهم وبيان ما عملوه.

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي تعطى كل نفس ما عملت من خير أو شر ثواباً وعقاباً دون زيادة في العقاب أو نقصان في الثواب،

فالله هو الحكم العدل يجمع الناس ويحاسبهم ثم يعطيهم جزاءهم بدون ظلم أو جور، وهؤلاء الذين تولوا وأعرضوا عن حكم الله يخضعون لهذه الأحكام العامة التي تصيب الناس جميعاً وهم منهم ولا بدّ أنه واقع بهم، فعندها تفشل محاولاتهم المضلّة لأنفسهم وللناس اتباعهم كما يظهر كذب ما افتروه على الله ونسبوه إليه من أنهم أبناء الله وأحباؤه ولن تصيبهم النار إلا أياماً معدودات. . .

قـال تـعـالـى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾.

اللغة

﴿ٱللَّهُمَّ﴾: أصلها يا الله ولا يجمع بينها وبين حرف النداء.

﴿تُؤْتِي﴾: تعطي.

﴿ٱلْمُلْكَ﴾: ضبط الشيء المتصرف فيه بالحكم، والمِلْك كالجنس للمُلْك.

﴿تَنزِعُ﴾: نزع الشيء: جذبه من مقره كنزع القوس عن كبده ويستعمل في الإعراض كنزع العداوة من القلب، والنزع عن الشيء: الكف عنه، والنزوع: الاشتياق الشديد.

﴿وَتُعِزُّ﴾: من العزة: وهي حالة مانعة للإنسان من أن يُغلب.

﴿وَتُذِلُّ﴾: وهو ضد العز ـ المهانة.

﴿تُولِجُ﴾: تدخل، والإيلاج: الإدخال.

التفسير

قيل: إن سبب نزول هذه الآية هو أن النبي ﷺ لما خطَّ الخندق عام الأحزاب وقطع لكل عشرة أربعين ذراعاً وأخذوا يحفرون، خرج من بطن الخندق صخرة كالتل العظيم لم تعمل فيها المعاول فوجّهوا سلمان إلى النبي ﷺ فأخبره، فأخذ المعول من سلمان فلما ضربها ضربة صدعها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها كأنه مصباح في جوف ليل مظلم فكبّر وكبّر المسلمون وقال ﷺ «أضاءت لي منها قصور الحيرة كأنها أنياب الكلاب»، ثم ضرب الثانية فقال ﷺ: أضاءت لي منها القصور الحمر من أرض الروم ثم ضرب الثالثة فقال ﷺ: أضاءت لي منها قصور صنعاء وأخبرني جبريل عليه السلام أن أمتي ظاهرة عليها كلها فأبشروا.

فقال المنافقون: ألا تعجبون من نبيكم يعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم وأنتم تحفرون الخندق من الخوف لا تستطيعون أن تخرجوا؟ فنزلت هذه الآية..

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ أمر الله نبيه أن يكون دعاؤه بهذه الصيغة التي تكشف عن مالكية الله لكل شيء وأنه المستحق لهذا الملك بالمعنى الحقيقي وعلى الإطلاق بدون استثناء في الدنيا والآخرة...

وإذا اعتقد المسلم بمالكية الله وملكه لكل شيء سكن قلبه واستقر وآمن أن المالك يفعل ما يشاء بملكه عطاء ومنعاً استقراراً وزوالاً...

﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ أنت يا رب تعطي الملك والسلطان والحكم والأمر والنهي لمن تشاء في خلقك كما أعطيت ذلك لمحمد وآل محمد.. حيث جعلتهم حكاماً على الناس وأمراء في إدارة البلاد وسياسة العباد.

﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ﴾ أي لا تعطيه لمن لم تتعلق إرادتك به ولم يكن هناك مصلحة في أعطائه الحكم وتوليته أمور الأمة.

﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ﴾ مصداق من مُلك الله ومالكيته وقدرته على التصرف كيف يشاء فهو الذي يجعل وكلاء ينفذون أمره ويحكمون بين الناس بالقسط، وهذا نوع من الحكم التشريعي الذي يخضع للمصلحة العامة التي يراها الله وعلى طبقها كان اختياره للنبي ثم للأئمة من بعده.

وهناك سلطة وحكم آخر وهو ما نراه ونشاهده ونعيشه في سلاطين اليوم وحكامهم، وهذا أيضاً خاضع لقواعد عامة ضمن النظام العام التي وضع أسسها الله في نظام هذا الوجود من العالم، فمن ملك القوة استولى وتسلط وحكم وملك، فإن اختار الصلاح وطريق الحق وما فيه خير العباد فهو، وإلا كان مضراً لنفسه موبقاً لها جانياً عليها، وبالتالي يكون مستعملاً ما أعدّه الله وهيأه في غير موضعه كمن يستعمل عضلاته في ضرب عباد الله والتعدي عليهم معصية منه، فليس العضلات القوية إلا نعمة أنعمها الله عليه بها ولكن هذا لشقائه استعملها في قهر عباد الله وإيذائهم ولم يستعملها فيما ينفعهم...

﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ تعز أي تعطي العزة والقوة والتأييد والكرامة لمن أردت من خلقك كما أعطيت محمداً وآل محمد وتذلّ من تشاء كما ذللت فارس والروم وأعداء محمد وآل محمد.

﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ قدّم الخبر «بيدك» للحصر، وعرّف الخير للتعميم، فالخير كله بيدك لا بيد سواك.. والاقتصار على ذكر الخير لأنه في مقام الدعاء ولأنه سبحانه لا يصدر منه إلا الخير لأنه يرى المصلحة وكل ما فيه مصلحة فهو خير عند الله...

﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فالله مطلق القدرة في الكون بدون استثناء.

﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ فأنت تنقص النهار وتزيد في الليل، كما أنك تنقص الليل وتزيد في النهار، وهذا دليل القدرة المطلقة بحسب ما وضعه سبحانه من قوانين وأنظمة حكَمَتْ هذا العالم، فبعلمه وحكمته وقدرته كان كل ذلك الترتيب والتنظيم...

﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ وهذا أيضاً من مظاهر قدرة الله المطلقة في الكون، وقد تعددت أنظار المفسرين وكلها تشير إلى مفردات من هذا المفهوم العام الذي يطلق قدرة الله في الكون...

ذهب بعضهم إلى تفسير قوله: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ كإخراج الفرخ من البيضة أو الإنسان من المني أو الزرع من الحب اليابس.

وقوله: ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ بالعكس فيخرج من الفرخة بيضة ومن الإنسان منياً ومن الزرع الحب..».

وهناك تفسير معنوي وهو وارد في المقام ووردت به الأحاديث، وهو: يخرج المؤمن من الكافر ويخرج الكافر من المؤمن.

وقد ورد في معاني الأخبار عن الصادق عليه السلام قوله: «إن[1] المؤمن إذا مات لم يكن ميتاً، فإن الميت هو الكافر، إن الله عز وجل يقول: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ يعني المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن.

﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ تعطي من تشاء بدون حصر ولا عدّ لأن رزقك لا ينفذ وعطاؤك لا يحدّ...

(١) معاني الأخبار، باب معنى الموت.

قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾.

* * *

اللغة

﴿لَا يَتَّخِذِ﴾: من أخذ الشيء: إذا حازه وحصّله، والاتخاذ: افتعال منه ويجري مجرى الجعل...

﴿أَوْلِيَآءَ﴾: جمع ولي ويطلق على معانٍ متعددة منها: الناصر المحب الحليف، ابن العم، الأولى بالتصرف.

﴿تَتَّقُوا۟﴾: من أتقى: إذا تحرّز، والتقية: إظهار خلاف ما عليه القلب خوفاً على النفس وغيرها.

﴿تُقَىٰةً﴾: مصدر وأصله وقاة والواو المضمومة أبدلت تاء استثقالاً لها وهي من وقى.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ﴾: من الحذر: وهو الاحتراز عن مخيف.

﴿نَفْسَهُۥ﴾: ذاته.

﴿ٱلْمَصِيرُ﴾: المنتهى، وصار إلى كذا: إذا انتهى إليه.

﴿تُخْفُوا۟﴾: تستروا، أخفيت الشيء: إذا سترته ويقابل به الإبداء والإعلان.

﴿صُدُورِكُمْ﴾: الصدور: جمع صدر الجارحة المعروفة، ثم استعير لمقدم الشيء كصدر المجلس وصدر الكلام وهكذا.

﴿تُبْدُوهُ﴾: أبداه: أي أظهره وأعلنه، من بدا: إذا ظهر.

﴿تَجِدُ﴾: وجد المطلوب: أصابه وأدركه.

﴿مُّحْضَرًا﴾: حاضراً: أي موجوداً.

﴿سُوٓءٍ﴾: السوء: كل ما يغمّ الإنسان من الأمور الدنيوية والأخروية ومن الأحوال النفسية والبدنية..

﴿تَوَدُّ﴾: تحب، والود: هو الحب.

﴿أَمَدًۢا﴾: الأمد: غاية الشيء ومنتهاه وجمعه آماد.

﴿رَءُوفٌۢ﴾: من الرأفة: وهي الرحمة.

﴿ٱلْعِبَادِ﴾: الناس.

التفسير

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

هذه الآية تحدد علاقة المسلمين بالكافرين وكيف يجب أن تُحكم هذه العلاقة وبأي حدود يجب أن تُحدّ...

إن المؤمنين بعد أن اتخذوا العقيدة محوراً لهم يتحركون في إطارها، فهذه

العقيدة يجب أن تبقى في قلوبهم وفي حركتهم يحفظونها ويحافظون عليها ويدفعون عنها كل ما يشوبها من شائبة باطلة أو يضعفها أو يؤثر على الملتزمين بها. . .

الخطاب يتوجه إلى المؤمنين كمجموعة واحدة ينهاهم الله فيه عن موالاة الكافرين. . .

والموالاة تعني أن يتوجه المؤمنون بالمحبة والنصرة والتسليم للآخرين بأزمة أمورهم ومصائرهم كما كان معمولاً به أيام الجاهلية.

وهذا النهي لم يكن إلا حفظاً لهؤلاء المؤمنين وحفظاً لعقائدهم ودينهم وخطهم الذي يؤمنون به. . .

إنهم بعد تكوين الأمة الإسلامية وبيان خطوطها بتفاصيلها أصبح للمسلم هدف يسعى إليه ضمن طريق مشروعة رسمها الله له. . .

إن على المسلم أن يشكّل مع أفراد أمته أسرة واحدة لها أهدافها وغاياتها وطرقها الموصلة إلى ذلك، فلذا يجب أن يكون ضمن هذه المجموعة الإسلامية ذات العقيدة الواحدة والمعالم الواضحة. . .

يجب أن تنقطع العلاقات التي كانت قائمة بين المؤمنين والكافرين وخصوصاً ما كان على مستوى المحبة والنصرة والتسليم لهم والانقياد لأمرهم أو ترك زمام الأمور إليهم. . . أصبح للمسلمين كيان موحد ضمن رؤية عقيدية وتشريعية فصلت هذا الجسد عن غيره وأوضحت معالمه البارزة. . بحيث تميّز واتخذ شكله المحدّد، فأي علاقة مع الآخرين يجب أن لا تؤثر سلباً على هذه الهيكلية أو تضعف هذا الجسد أو تضعضع أفراده أو تزرع الشك والبلبلة بينهم. . .

أن تنقطع عن الجماعة التي تنتمي إليها وتلتحق بغيرها ممن يعاديها فكرياً وحركياً وسلوكياً فهذا إضعاف لجماعتك وتقوية للآخرين وهذا لا يمكن الموافقة عليه من أي جهة جئت تدرسه وتحاكمه. . .

أن تلتحق بمن يقاتل عقيدتك ودينك وتتبعه في أموره وتحقق إرادته ومصالحه فهذا أمر لا يوافق عليه عاقل أو صاحب دين...

أن تقف في صف الأعداء وتظهر مودتهم وموالاتهم فهذه طعنة نجلاء في صميم العقيدة التي تؤمن بها وتعمل لها ومن أجلها يجب أن تكون حركتك وعملك...

إن من انقطع عن جماعة المؤمنين ولم يعمل معهم ويتوجه بتوجههم وينصرهم ويحبهم ثم في المقابل يوالي غيرهم ممن هم أعداء لهم في العقيدة والإيمان مثل هذا الإنسان يضر نفسه ويضر دينه وعقيدته وبالتالي يتأثر بهذه الطريقة حتى يخرج من الإيمان، بل حكم الله عليه بالخروج عن ولاية الله وأنه لا صلة له مع الله فقال تعالى:

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ من يتولى الكافرين ويترك موالاة المؤمنين تنقطع علاقته بالله ويصبح وليس له من دين الله شيء وتعبير ﴿فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ بشيء يقطع علاقاته مع الله بل يحكي الله صراحة أنه لا يرتبط به بأي رابط ولا يلتقي معه في إيمان به أو عقيدة يتبعها من خلاله، وطبعاً هذا الحكم الشديد ناتج عمّا تتركها الموالاة من إضعاف للدين والعقيدة وما تتركه من أثر سيء على الجماعة الإسلامية وعناصرها وأفرادها...

ولما كان هذا الحكم مبرماً وعاماً ويمكن أن يفهم منه أنه يشمل الحالات التي تنزل الضرر والأذى بهؤلاء المؤمنين فقد استثنى الله هذه الحالات فقال تعالى:

﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ إلا أن تكون الموالاة صورية شكلية دون أن تدخل القلوب والنفوس...

إلا أن توالوهم شكلاً فتعطوهم بألسنتكم ما يرضيهم لتدفعوا الضرر عن أنفسكم وتحفظوها من أذاهم...

وهذا الأمر هو المعبر عنه «بالتقية» التي ما شُرعت إلا لحفظ النفوس ودرء الأخطار عن الأموال والأعراض وهو أمر يمارسه الناس بطبيعتهم فيدفعون عن

أنفسهم الضرر دون أن يلحقوا بدينهم الوهن والأذى وهي تقدّر بقدرها دون زيادة كما يفهم من المصدر «تقاة» المؤكدة لتتقوا بما توحي كلمة «تقاة» من المحدودية. . .

إن التقية التي تعني «أن تعطي الكافرين بلسانك ما يرضيهم دون قلبك لدفع الضرر» هذا أمر مطلوب ومرغوب والإنسان بطبعه يندفع إلى القيام به ليحفظ وجوده ويكمل شوطه في الحياة دون أن يؤثر ذلك على دينه وعقيدته. . . و«التقية» تعني تغيير خندق الجهاد فيكمن المجاهد خوف العدو حتى إذا تمكن منه انقضّ عليه وإلا فحمى نفسه من شره وأذاه وأيضاً تدخل تحت قاعدة ـ الأهم والمهم ـ. وقد قمنا ببحث مطول عن التقية ومبرراتها الشرعية كتاباً وسنة وعقلاً وسيرة وسلوكاً في كتابنا «شبهات حول الشيعة». وأنا أنقل ما كتبته هناك لمناسبته في هذا المقام ولما فيه من النفع والفائدة. . .

التقية والشيعة

التقية حكم إسلامي جاء بها الكتاب والسنة وتبناها العقلاء سلوكاً وعملاً، لم يشذ عن الإيمان بها فرد ولم ترفضها أمة ومع ذلك كله حاول المضللون أن يفهموا هذا الحكم على غير حقيقته بل منّتهم أباطيلهم وقادهم ضلالهم إلى التنصل منه شكلياً لأن هناك من يقول به ويتبناه، فلذا حاولوا تشويهه وإلباسه أقنعة مختلفة تبعده عن روح الإسلام وجوهر الرسالة.

لقد شاء المغرضون ومن في نفوسهم مرض أن يجعلوا من التقية قميص عثمان فيرمون من يقول بشرعيتها بالكفر تارة والنفاق أخرى حتى سرى ذلك بين عوام القوم ورعاعهم فكان الذي تولى كبره العلماء المتعصبون وتابعهم السفهاء المضلّلون.

ونحن إذ نعرض بحث التقية الآن إنما نعرضه بما تقتضيه الأمانة في البحث والدقة في الوصول إلى الحقيقة التي هي أنشودة الفكر وضالة الأحرار في دنيانا

التي قلّ فيها الأحرار، نعرضه بوجهه الحقيقي وأصالته الرسالية أمام الإنسان المثقف الواعي الذي لا تشده رواسبه القديمة ولا هوى بني قومه إلى مخالفة الحق مهما كان شأنهم وسلطانهم وعزمهم وقوتهم لأن الوصول إلى الحق واكتشاف أحكام الله أحق من جميع ذلك وأقوى، نعرض هذا البحث بدقة وأمانة كي يقف الإنسان الواعي على الحقيقة من جهة ويكون لمن يدين بالتقية عذر شرعي من جهة أخرى.

التقية لغة: معناها الحذر، قال ابن منظور في لسان العرب: توقيتُ واتقيتُ الشيء وتقيته أتّقيه واتّقيه تُقىً وتقيةً وتِقاء: حذرته.

التقية شرعاً: قد عرفها الشيخ الأنصاري في مكاسبه بقوله: (التحفظ عن ضرر الغير بموافقته في قول أو فعل مخالف للحق).

مبررات التقية شرعاً

إن مصادر التشريع لدى الشيعة أربعة هي: الأسس والمنطلقات لكل أمر شرعي، وكل حكم يعتمد على غير ذلك أو يُستنتج من سواها لا يعتدّ به ولا يوزن جناح بعوضة، بل يكون رأياً شخصياً لصاحبه يصدر عنه ويرد عليه لا يجوز أن يدان الله به أو يتعبد بمضمونه، بل يكون افتراءً على الله وكذباً ومما لم يأذن به أو يأمر باتباعه.

وهذه الأسس الأربعة هي: الكتاب العزيز، والسنة المطهرة، والإجماع، والعقل. فكل حكم شرعي لا بد وأن يستند إلى واحد من هذه الأسس، فإذا خلا الحكم من الاعتماد على أحدها تعرّى عن صفته الشرعية وفقد رصيده الموجب للتعبد به، ومن هذا المنطلق يجدر بنا أن نطرح تساؤلاً له قيمته في بحث التقية ألا وهو: هل للتقية من رصيد شرعي يبيح للمسلم التعبد بها والإيمان بشرعيتها على حد سائر التشريعات الإسلامية الأخرى أو أنها بدعة محرمة يرفضها الدين وتأباها الشريعة.

مبررات القول بالتقية من الكتاب العزيز

إن من يقول بشرعية التقية يعتمد على كتاب الله ويستند إليه وأول ما يحتج به من الآيات هو قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾.

فإن قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ تدل على تشريع ظاهر للتقية وأن المؤمن إذا خاف من الكفار يجوز له مداراتهم تقية منه ودفعاً عن نفسه من غير أن يعتقد ذلك، وقد تعرض المفسرون لبحث التقية عند مرورهم بهذه الآية ولعل أحسن من بحثها وألمّ بها من العامة المفسر الكبير الفخر الرازي وأنا أنقل كلامه بحذافيره كي يقف عليه من يحب اتهام الشيعة بالبدع ليرى كيف توصل هذا المحقق الكبير إلى ما ترتئيه الشيعة بعينه وما ذهبوا إليه بحقيقته وكي يقف الحاكم المنصف بيننا وبين غيرنا ويلمس بيده أننا لسنا وحدنا القائلين بالتقية بل هناك من يقول بشرعيتها بحسب البحث الحر الشريف والدليل العلمي النزيه بل نترقى لنقول أن هناك من يذهب إلى ممارستها بأفعاله وإن أنكرها بلسانه.

قال الرازي في تفسيره:

اعلم أن للتقية أحكاماً كثيرة ونحن نذكر بعضها.

الحكم الأول: إن التقية إنما تكون إذا كان الرجل في قوم كفار ويخاف منهم على نفسه وماله فيداريهم باللسان وذلك بأن لا يظهر العداوة باللسان بل يجوز أيضاً أن يظهر الكلام الموهم للمحبة والموالاة ولكن بشرط أن يضمر خلافه وأن يعرض في كل ما يقوله فإن التقية تأثيرها في الظاهر لا في أحوال القلوب.

الحكم الثاني للتقية: هو أنه لو أفصح بالإيمان والحق حيث يجوز له التقية كان ذلك أفضل ودليله ما ذكرناه في قصة مسيلمة.

الحكم الثالث: للتقيّة أنها إنما تجوز فيما يتعلق بإظهار الموالاة والمعاداة وقد تجوز أيضاً فيما يتعلق بإظهار الدين، فأما ما يرجع ضرره إلى الغير كالقتل والزنا وغصب الأموال والشهادة بالزور وقذف المحصنات وإطلاع الكفار على عورات المسلمين فذلك غير جائز البتة.

الحكم الرابع: ظاهر الآية يدل على أن التقية إنما تحل مع الكفار الغالبين إلا أن مذهب الشافعي(رضي الله عنه) أن الحالة بين المسلمين إذا شاكلت الحالة بين المسلمين والمشركين حلت التقية محاماة على النفس.

الحكم الخامس: التقية جائزة لصون النفس، وهل هي جائزة لصون المال؟ يُحتمل أن يحكم فيها بالجواز لقوله ﷺ: «حرمة مال المسلم كحرمة دمه». ولقوله ﷺ: «من قتل دون ماله فهو شهيد» ولأن الحاجة إلى المال شديدة والماء إذا بيع بالغبن سقط فرض الوضوء وجاز الاقتصار على التيمم دفعاً لذلك القدر من نقصان المال فكيف لا يجوز ههنا.

الحكم السادس: قال مجاهد: هذا الحكم كان ثابتاً في أول الإسلام لأجل ضعف المؤمنين، فأما بعد قوة دولة الإسلام فلا.

وروى عوف عن الحسن أنه قال: التقية جائزة للمؤمنين إلى يوم القيامة وهذا القول أولى لأن دفع الضرر عن النفس واجب بقدر الإمكان.

وبعد استعراض هذه الأحكام للتقية التي ذكرها المحقق الكبير الرازي نجد أن التقية من أحكام الإسلام التي شرّعها الله في كتابه فقد تكون من المسلمين إذا غلب الكافرون عليهم بمقتضى الحكم الأول للرازي وهذا بعينه من الأحكام التي تتبناها الشيعة، فيجوز للمسلم أن يتفوه بكلمة الكفر دون أن يعقد عليها قلبه لأن عقد القلب معناه الارتداد وهو محرم وله أحكام مسطورة في كتب الفقه، فقد يستتاب إذا كان عن فطرة وتقبل توبته وقد لا تقبل كما لو كان الارتداد عن ملة بل لا بد من قتله، وتقسم أمواله وتعتدُّ امرأته عدّة الوفاة. فانظر كيف وافق الرازي مذهب الشيعة.

وأما جوازها بين المسلم والمسلم فهذا ما أفصح عنه في حكمها الرابع حيث قال: . . .إلا أن مذهب الشافعي(رضي الله عنه) أن الحالة بين المسلمين إذا شاكلت الحالة بين المسلمين والمشركين حلت التقية محاماة على النفس.

فالمجوز للتقية على مذهب الشافعي هو مشاكلة الحالة التي ذكرها وقد مرّت الشيعة بأعظم الحالات سوءاً وأشدها وقعاً عليهم وإذا أردت أن ترى مدى الظلم والجور الذي حاق بشيعة آل محمد فارم بطرفك إلى الفترة التي تعقبت استشهاد علي وانظر الكوارث والمآسي وما ألمّ بهم حيث لم ترحم السلطة شيخاً كبيراً ولا طفلاً صغيراً ولا امرأة بل أتت على الحرث والنسل.

مظلومية الشيعة

وهذه صورة مصغرة وكلمة موجزة عن تلك الجرائم التي ارتكبت بحق الشيعة الذين لم يكن لهم من ذنب إلا موالاتهم لعلي وأهل بيته الذين فرض الله طاعتهم وأوجب محبتهم. . .

تولى معاوية الخلافة بالقهر والغلبة دون مشورة من المسلمين أو اتفاق عليه وما أن تربع على عرش السلطة حتى تعقب شيعة علي بكل سوء وأذى وكتب نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة: إن برئت الذمة ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب[١] وأهل بيته فقامت الخطباء في كل كورة وعلى كل منبر يلعنون علياً ويبرأون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته وكان أشد الناس بلاء حينئذٍ أهل الكوفة لكثرة من بها من شيعة علي عليه السلام فاستعمل عليهم زياد بن سمية وضم إليه البصرة فكان يتتبع الشيعة وهو بهم عارف لأنه كان منهم أيام علي عليه السلام فقتلهم تحت كل حجر ومدر وأخافهم وقطع الأيدي والأرجل وسمل العيون وصلبهم على جذوع النخل وطردهم وشردهم عن العراق فلم يبق بها معروف منهم.

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج١١، ص٤٥.

ثم كتب كتاباً آخر إلى عماله في جميع الآفاق: ألاّ يجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة.

ثم ترقى ضلاله وزاد في غيه حتى كتب إلى عماله بعد ذلك: انظروا من قامت عليه البينة أنه يحب علياً وأهل بيته فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه وشفع ذلك بنسخة أخرى: من اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكّلوا به واهدموا داره، فلم يكن البلاء أشد ولا أكثر منه بالعراق ولا سيما بالكوفة حتى أن الرجل من شيعة علي عليه السلام ليأتيه من يثق به فيدخل بيته فيلقي إليه سره ويخاف من خادمه ومملوكه ولا يحدثه حتى يأخذ عليه الأيمان الغليظة ليكتمن عليه.

ولم يزل الأمر كذلك حتى مات الحسن عليه السلام فازداد البلاء والفتنة فلم يبق أحدٌ من هذا القبيل إلا وهو خائف على دمه أو طريد في الأرض ثم تفاقم الأمر بعد قتل الحسين عليه السلام وولي عبد الملك بن مروان فاشتد على الشيعة وولّي عليهم الحجاج بن يوسف فتقرب إليه أهل النُسك والصلاح والدين ببغض علي وموالاة أعدائه وموالاة من يدعي من الناس أنهم أيضاً أعداؤه فأكثروا في الرواية في فضلهم وسوابقهم ومناقبهم وأكثروا من الغضّ من علي عليه السلام وعيبه والطعن فيه والشنآن له حتى أن إنساناً وقف للحجاج ـ ويقال أنه جد الأصمعي[(١)] عبد الملك بن قريب فصاح به:

أيها الأمير إن أهلي عقوني فسموني علياً وإني فقير بائس وأنا إلى صلة الأمير محتاج فتضاحك له الحجاج وقال: للطف ما توسلت به قد وليتك موضع كذا.

وقد صوّر الإمام الباقر سوء الحالة وترديها وما وصل إليه الظلم الأموي من البشاعة والامتهان لأهل البيت وشيعتهم بقوله: وكان عُظمُ ذلك وكُبره زمن معاوية بعد موت الحسن عليه السلام فقُتِلت شيعتنا بكل بلدة وقطعت الأيدي والأرجل على الظنة وكان من يذكر بحبنا والانقطاع إلينا سُجن أو نهب ماله أو هدمت داره

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج١١، ص٤٦.

ثم لم يزل البلاء يشتد ويزداد إلى زمان عبيد الله بن زياد قاتل الحسين عليه السلام ثم جاء الحجاج فقتلهم كل قتلة وأخذهم بكل ظنة وتهمة حتى أن الرجل ليقال له: زنديق أو كافر[١] أحب إليه من أن يقال: شيعة علي.

ويذكر المسعودي في مروجه أن زياد بن أبيه[٢] جمع الناس بالكوفة بباب قصره يحرضهم على لعن علي فمن أبى ذلك عرضه على السيف.

هذه فقرات لم نقصد بها الاستيعاب، بل هي عناوين كلية تعرب عن مدى الظلم الأموي التي وصلت إليه تلك العصابة الجاهلية بحق شيعة علي واسأل عن رؤساء الشيعة ونقبائهم وعن عظمائهم والمتقدمين فيهم فستلوح لك قائمة كبيرة كتبت بالدماء الطاهرة.. أنها دماء شيعة أهل البيت عليهم السلام الذين لا ذنب لهم إلا حبُّ علي وأهل بيت محمد هذا كله في عهد الأمويين. وأما عهد بني العباس فلم يكن أحسن مما تقدمه بل ازداد الأمر سوءاً حتى تمنى الشاعر بلسان كل العلويين دوام عهد بني أُمية حيث قال:

فليت جور بني مروان دام لنا وكان عدل بني العباس في النار

ويذكر القاضي ابن أبي جرادة الحلبي في شرح قصيدة أبي فراس الميمية: لما عزم المنصور على الحج في العام الذي توفي فيه وهو عام ١٥٨ دعا ريطة ابنة أخيه السفاح وهي زوج ابنه محمد وأعطاها مفاتيح وأحلفها بأوكد الإيمان أن لا تفتح بها خزائن عرّفها إياها ولا تطلع عليها أحداً ولا ابنه المهدي حتى يصح عندهما موته فيجتمعان وليس معهما ثالث على فتحها، فلما بلغ ابنه موته وولي الخلافة فتح تلك الأبواب ومعه ريطة فإذا أزج عظيم فيه قتلى الطالبيين وفي آذانهم رقاع فيها أنسابهم منها المشايخ والشباب والأطفال فلما رأى ذلك المهدي ارتاع وأمر فحفرت لهم حفيرة ودفنوا فيها.

وإذا أردت زيادة على ذلك فارجع إلى مقاتل الطالبيين لأبي الفرج الأصفهاني

(١) م.ن، ج١١، ص٤٤.
(٢) مروج الذهب، ج٣، ص٢٦.

فإنك ستقف على عدد ضخم من العلويين الذين اهتم بذكرهم هذا المؤرخ وستستغرب هذا الرقم الكبير للقتلى في دولة بني العباس، وأما الشيعة ـ غير العلويين ـ فإنهم لا يعدون ولا يحصون.

ونحن هنا إزاء هذه المجازر التي شنّتها السلطات الحاكمة على الشيعة، ألا يجب أن يتخذوا التقية ستاراً لهم؟ وهل هناك ظلم حاق بطائفة كما حاق بهم؟.. فلأن كان قول الشافعي ـ وهو حق ـ من أن الحالة بين المسلمين إذا شاكلت الحالة بين المسلمين والمشركين حلت التقية محاماة على النفس ـ فإن الشيعة من أظهر مصاديق ما يذكره هذا الفقيه الكبير.

وأما تعميم التقية لما يخاف عليه من المال كما ذكره في حكمها الخامس فهو الصحيح الذي تذهب إليه الشيعة وتعتدُّ به، فإن الشارع حافظ على الأنفس والأموال والأعراض، وأن التقية لا تختص بأوائل الإسلام حيث كان ضعيفاً بل يعم الأزمان المتأخرة إذا تعرض المسلم لمثل تلك الحالات، والعلة عامة لا تُحدّ بزمان، فكلما وُجدت وُجد الحكم فإن الإنسان إذا خاف على نفسه أو ماله أو عرضه جاز له أن يتقي...

وحاصل ما توصلنا إليه إلى الآن أن التقية تشريع إسلامي والبحث العلمي النزيه يقود الإنسان بخزامة الحق إلى الاعتراف بهذا الحكم والعمل به كما توصل إلى ذلك المحقق الكبير الرازي...

وكذلك استند الشيعة في تشريع التقية إلى قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾﴾[1].

فإن هذه الآية تضع الإنسان في جو التقية بوضوح، ولو أردنا أن نرجع إلى أسباب النزول لكانت دلالتها أجلى وأظهر، فقد ذكروا أنها نزلت في جماعة

(١) النحل/١٠٦.

أكرهوا وهم عمار وياسر أبوه وأمه سمية وصهيب وبلال وخباب، عُذّبوا وقتل أبو عمار وأمه وأعطاهم عمار بلسانه ما أرادوا منه ثم أخبر سبحانه بذلك رسول الله ﷺ فقال قوم كفر عمار فقال ﷺ: كلا! إن عماراً مُلىء إيماناً من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه، وجاء عمار إلى رسول الله ﷺ وهو يبكي فقال ﷺ ما وراءك فقال شرٌ يا رسول الله ما تُركتُ حتى نلتُ منك وذكرت آلهتهم بخير فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه ويقول: إن عادوا[١] لك فعد لهم بما قلت فنزلت الآية...

وهناك آيات أخرى تدل على التقية نرى عدم التعرض لها أولى من الخوض فيها خوف الملل والضجر.. حيث أن الناس لم يعد لديهم جلد وطول نفس لاستقصاء كل الأدلة على مطلب معين.. بل يكتفون بدليل واحد يدل على المطلوب والأكثر من ذلك يعدونه فضولاً وتضييعاً للأوقات.

مبررات القول بالتقية من السنة الشريفة

أمّا من طريق إخواننا أهل السنّة فقد رووا: أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ فقال لأحدهما: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم نعم نعم فقال: أتشهد أني رسول الله قال: نعم. وكان مسيلمة يزعم أنه[٢] رسول بني حنيفة ومحمد رسول قريش فتركه ودعا الآخر فقال: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم. قال: أفتشهد أني رسول الله؟ قال: إني أصم ثلاثاً فقدمه وقتله فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: أما هذا المقتول فمضى على يقينه وصدقه فهنيئاً له وأما الآخر فقبل رخصة الله فلا تبعة عليه.

وهذا القول من النبي في هذه الحادثة مع ما تقدم من قوله لـ «عمّار» إن عادوا

(١) التفسير الكبير، الفخر الرازي، ج١٩، ص١٢١.
(٢) الفخر الرازي، ج٨، ص١٢.

لك فعد لهم بما قلت، يدل بصراحة على تشريع التقية وإنها حكم عام يشمل كل إنسان. .

وأورد البخاري في صحيحه في كتاب الأدب باب المداراة مع الناس عن النبي ﷺ: إنا لنكشّر في وجوه قوم وقلوبنا تلعنهم.

وهناك حديث الرفع الذي يقول فيه النبي ﷺ: رفع عن أُمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه.

وأما من طرقنا الخاصة فقد كثُرت الروايات حتى تواترت بل بلغ الأمر درجة رمينا بأنها من مختصاتنا، ـ وإن لم يكن الأمر كذلك ـ.

١ ـ عن أبي عبد الله عليه السلام: قال: اتقوا على دينكم فأصحبوه بالتقية فإنه لا إيمان لمن لا تقية له إنما أنتم في الناس[1] كالنحل في الطير لو أن الطير تعلم ما في أجواف النحل ما بقي منها شيء إلا أكلته ولو أن الناس علموا ما في أجوافكم أنكم تحبونا أهل البيت لأكلوكم بألسنتهم ولنحلوكم في السر والعلانية رحم الله عبداً منكم كان على ولايتنا.

٢ ـ عن أبي جعفر عليه السلام قال: التقية في كل ضرورة وصاحبها أعلم بها حين تنزل به.

٣ ـ عن أبي عبد الله عليه السلام قال كان أبي يقول: وأي شيء أقر لعيني من التقية: إن التقية جُنّةُ المؤمن.

٤ ـ عن أبي جعفر عليه السلام قال: إنما[2] جعلت التقية ليحقن بها الدم فإذا بلغ الدم فليس تقية.

هذا قليل من كثير مما ورد في التقية عن طريق أهل البيت عليهم السلام وهذا كله

(١) الكافي، ج٢، حديث ٥ و٣ و١٤.
(٢) الكافي، ج٢، حديث١٦.

يدلنا على أن التقية شرعت على لسان رسول الله وقد أمرنا الله بالأخذ بقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[١].

مبررات التقية عقلاً:

إن بداهة العقل لو قطعنا النظر عن الشرع يحكم في مورد يخاف فيه على النفس أو المال بوجوب حفظها ولذا ترى الإنسان بجبلته الأصلية لو تعرض لمثل ذلك يحاول عدم الوقوع في الهلكة، بل يختلق المعاذير ويتنكر لكل ما يسبب لنفسه ضرراً ولماله تلفاً فترى الرجل الذي يُتَهم بأمر قد يودي بحياته أو بماله يتنكر لتلك التهمة ويرفض أن يكون ممن تلبسوا بها أو اقتربوا منها ومضافاً إلى ذلك فإن الآيات التي تدل على عدم إيقاع الإنسان لنفسه في التهلكة وعدم جعل العسر والحرج على المسلم كلها ترخّص للإنسان باستعمال التقية دفعاً للضرر.

وإلى هنا نكون قد قدمنا المستندات الشرعية للقول بالتقية وأنها حكم إسلامي يقول بشرعيتها جميع المسلمين على اختلاف في تفصيلاتها وقيودها.

ثم إنها بعد ذلك كله هي من الأحكام الشرعية الفرعية وليست من أصول الدين والاختلافات في الفروع كثيرة بين المذاهب السنية الأربعة وإلا لماذا كانت أربعة، فالشافعي يذهب إلى رأي في مسألة يخالفه فيه الحنفي وهكذا المالكي والحنبلي فقد ترى في مسألة واحدة أربعة أقوال بعدد المذاهب.

فانظر إلى مسح الرأس في الوضوء والخلاف فيه:

أ ـ قال الحنابلة: يجب مسح جميع الرأس والأذنين والغسل عندهم[٢] يجزي عن المسح بشرط إمرار اليد على الرأس.

ـ وقال المالكية: يجب مسح جميع الرأس دون الأذنين.

---

(١) الحشر/ ٧.

(٢) الفقه على المذاهب الخمسة، ص٢٩، الشيخ مغنية.

ـ وقال الحنفية: يجب مسح ربع الرأس ويكفي إدخال الرأس في الماء أو صبه عليه.

ـ وقال الشافعية: يجب مسح بعض الرأس ولو قل ويكفي الغسل أو الرش عن المسح.

ب ـ وهذه مسألة مس المصحف قد تعددت فيها الأقوال.

انفق الجميع على عدم جواز مس كتابة القرآن إلا بطهور واختلفوا في أن المحدث بالحدث الأصغر هل يجوز له كتابة القرآن وقراءته عن حاضر أو عن ظهر غيب وفي مسه بحائل وحمله حرزاً؟

فقال المالكية[١]: لا يجوز كتابته ولا مس جلده ولو بحائل وتجوز قراءته حاضراً وظهر غيب ثم اختلفوا ـ أي المالكية ـ في حمله حرزاً.

ـ وقال الحنابلة: تجوز كتابته وحمله حرزاً بحائل.

ـ وقال الشافعية: لا يجوز مس جلده ولو انفصل عنه ولامس علاقته ما دام معلقاً بها ويجوز كتابته وحمله حرزاً كما يجوز مس ما طرزت به الثياب من الآيات القرآنية.

وقال الحنفية: لا تجوز كتابته ولا مسه ولو كان مكتوباً باللغة الأجنبية وتجوز تلاوته عن ظهر غيب.

ج ـ وانظر إلى سن الحيض عند المرأة فقد اختلفت المذاهب الأربعة وتعددت الأقوال بتعددها.

فقد اتفق الجميع على أن ما تراه الأنثى قبل بلوغها تسع سنين لا يمكن أن يكون حيضاً[٢] بل هو دم علة وفساد وكذا ما تراه الآيس المتقدمة في السن واختلفوا في تحديد سن اليأس.

---

(١) الفقه على المذاهب الخمسة، مغنية، ص٢٩ ـ ٣٦.

(٢) م.ن، ص٥٢.

فقال الحنابلة: خمسون.

وقال الحنفية: خمس وخمسون.

وقال المالكية: سبعون.

وقال الشافعية: ما دامت الحياة فالحيض ممكن وإن كان الغالب انقطاعه بعد سن ٦٢.

فهذه نماذج أقدمها كيف يقف الإنسان على الاختلافات في الفروع وأنها شيء مفروض بحسب تعددها ـ لم أقصد بذكرها التشهير ـ والتشكيك، فأنا من أعرف الناس بوجوب مثل هذا التعدد في الأقوال بحسب تعدد المجتهدين وأن لكل واحد منهم الحق والعذر فيما توصل إليه وأن له أجراً يثاب عليه، وإنما أنقلها لأقدم بين يدي الناس العذر فيما لو خالفت الشيعة غيرها من المذاهب الأخرى وانفردت برأي يخالف الجميع وإذا ثبت أن التقية من الفروع وتنزلنا إلى أنها من مختصات الشيعة فإن هذا لا يوجب تكفيراً ولا تفسيقاً طالما أنهم يقدّمون المستندات ويخالفون سائر المذاهب الأخرى تبعاً للدليل، ولو فرضنا اشتباههم في ذلك وخطأهم، فإن ذلك يغتفر لهم بناء على أن من اجتهد فأخطأ فله أجر واحد ومن أصاب فله أجران، والاختلاف في الفروع مع فتح باب الاجتهاد أمر طبيعي لا غرابة فيه.

لماذا اشتهرت الشيعة بالتقية

بيّنا أن التقية من الأحكام الإسلامية التي يقول بها أكثر من واحد من المذاهب الأربعة، وقد تقدم دليل ذلك ومع هذا فقد عدُّوها من مختصات الشيعة ومتفرداتهم بل أصبحت مثار اتهام لهم في كثير من الأحيان بل أوجبت سوء الظن بهم بشكل مرعب وعجيب وهنا يجب أن نبحث عن سر اختصاص الشيعة بالتقية مع أنها من الأحكام الإسلامية التي سنتها الشريعة وتبناها الدين، يجب أن نبحث

ونفتش عن الدواعي التي أوجبت اتصاف الشيعة بالتقية دون غيرهم من المسلمين.

إن السر يكمن في الأُسس الفكرية للخط الشيعي الذي ينتهجه مذهب أهل البيت من حكّام الجور والظلم والذي يشكل طرفاً مضاداً للسلطة الطاغوتية الحاكمة التي نزت على الأمة بالقهر والغلبة وتسلطت على رقاب الناس بالحديد والنار وهذا الموقف بنفسه يشكل نظرة عدائية لدى الحكام فيفرغون جام غضبهم وحقدهم على الشيعة لأنهم وحدهم الذين يكمن فيهم الخطر على ملكهم ودولتهم ولذا كانت المجازر والمقاتل الجماعية من الشيعة تربو على الإحصاء وتنبو عن العد وهذا يكفي لتبني التقية والعمل بها وممارستها سلوكاً وخطة وشتان بين من يؤمن بالوقوف في وجه الحاكم الجائر ويصرخ في وجهه متحدياً الظلم والجبروت ومحاولاً رفع الاضطهاد عن كاهل المحرومين والمستضعفين معلناً الثورة على حكمه وعرشه عاقداً قلبه ولسانه على مجاهدته، مؤمناً بما صدر عن مثله الكامل ومصدر تشريعه، الأدلاء على أحكام الله وأمناء وحيه حيث يقولون: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرام الله ناكثاً عهده مخالفاً لسنة رسول الله يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله...

نعم شتان بين من يعتقد ذلك ومن يروي: من رأى من أمير شيئاً يكرهه فليصبر عليه فإن من خرج من السلطان شبراً مات ميتة جاهلية أو يروى كما في صحيح مسلم عن الأشجعي حيث يحدث قائلاً عن رسول الله: خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم قال: قلنا يا رسول الله أفلا ننابذهم عند ذلك؟ قال: لا...

شتان بين من يرى إعلان الجهاد على كل طاغوت يحكم بغير ما أنزل الله وبين من يتخذ السكون والركود شعاراً له حفظاً لنفسه واحتياطاً لدمه، إنه فارق كبير وخطير، والشيعة دائماً وباستمرار منذ أن انحرفت القيادة عن أهلها كان ذلك

موقفهم وتلك طريقتهم، إنها نظرة العداء لكل الحكام المنحرفين الذين يستغلون كراسيهم من أجل مصالحهم الذاتية دون التفات إلى أحكام الإسلام وتعاليمه ودون عطف على الجماهير التي تئن من الجوع وتحلم بالعدل والأمن.

والشيعة وإن تبنت التقية نظرياً فإنها أثبتت بسلوكها وعملها عندما تدعو الضرورة إيقاظ روح الأمة. أثبتت أنها تقدم نفسها ودمها وكل عزيز لديها من أجل أن يبقى الإسلام سيد الموقف يعيش في صفوف الأمة وفي ضميرها ومن هنا كانت ثورات الشيعة في التاريخ من أروع الثورات وأطهرها، من أشرفها وأنزهها ولم تكن تلك الثورات من أجل مطمع من مطامع الأرض أو شهوة من شهوات الملك وإنما كانت فداء للإسلام وقرباناً مقدساً من أجل الدين، إنها ثورات مثلت روح الأمة التضحوية وعزتها التي تأبى أن تدين لطاغوت بكلمة مجاملة فضلاً عن نفحه البركات ورشه بالعطر والياسمين.

وهذه نماذج من تلك الثورات التي باركها أئمة أهل البيت عليهم السلام وتمنوا أن تستمر متلاحقة لأنها المؤشر الوحيد الذي يرمز إلى بقاء الحياة في جسد الأمة الإسلامية وضميرها.

١ - ثورة زيد بن علي.

٢ - ثورة محمد بن عبد الله - (النفس الزكية) في الحجاز.

٣ - ثورة إبراهيم بن عبد الله بالبصرة.

٤ - ثورة محمد بن إبراهيم وأبي السرايا.

٥ - ثورة محمد الديباج بن الإمام جعفر الصادق.

٦ - ثورة علي بن محمد بن جعفر الصادق.

وهناك العشرات غيرها من الثورات التي حركت جسد الأمة وهزّت ضميرها في كل وقت شعرت أنها فقدت حساسيتها وهمدت الحياة فيها.

إن هذه الثورات هي التعبير الصادق عن رفض جميع المساومات من قبل

حكام الجور والضلال، إنها ثورات جسدتها إرادة الشيعي وطموحاته في تحقيق إرادة الله الرافضة لكل جور وظلم وقد كان أئمة أهل البيت عليهم السلام يباركونها ويشجعون عليها، فهذا الإمام الصادق عليه السلام يقول عن عمه زيد وثورته في وجه الأمويين.

«إنا لله وإنّا إليه راجعون عند الله[١] احتسب عمي إنه كان نعم العم، إن عمي كان رجلاً لدنيانا وآخرتنا، مضى والله عمي كشهداء استشهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي والحسين عليهما السلام مضى والله شهيداً».

وهذا الصادق عليه السلام يُذكر بين يديه من خرج من آل محمد عليهم السلام فيقول: لا أزال أنا وشيعتي بخير ما خرج الخارجي من آل محمد. ولوددت أن الخارجي[٢] من آل محمد خرج وعليّ نفقة عياله.

وهذا موسى بن جعفر يقول للحسين بن علي بن الحسن صاحب فخ عندما استشاره في الثورة: إنك مقتول[٣] الضراب فإن القوم فساق يظهرون إيماناً ويضمرون نفاقاً وشركاً فإنّا لله وإنّا إليه راجعون وعند الله أحتسبكم من عصبة.

إن هذه الكلمات التي صدرت من الأئمة تعبر عن الخط الفكري للشيعي الذي يرفض الحكام الظالمين، فلهذا كان الحاكم ينظر إلى الشيعي وأنه الوحيد الذي يشكل عليه أكبر الأخطار، بينما غير الشيعة كانوا في مأمن من غضب الحاكم وظلمه وسيفه وسوطه لأنهم في ركابه مهما كان ظالماً وجائراً وهذا نفسه ينفي موضوع التقية، ولو كان الشيعة في مأمن من الاضطهاد والظلم ولم يكن خطهم الفكري منابذة الحاكم الظالم لما استعملوا التقية ولم تكن لتحل لهم، لأن سرّ تشريعها يكمن في الحفاظ على النفس والنفيس فإذا كان ذلك في أمن وصيانة فلا تشرع عندها التقية ولا تحل.

---

(١) وفي أعيان الشيعة ج٣٣، ص٧٣ ينقل عن الصادق(ع) قوله في حق عمه الشهيد: «رحم الله عمي زيداً إنه دعا إلى الرضا من آل محمد ولو ظفر لوفى لله في ذلك إنه قال: ادعوكم إلى الرضا من آل محمد».

(٢) وسائل الشيعة، كتاب الجهاد، باب ١٣.

(٣) مقاتل الطالبيين، ص٤٤٧.

أ - شبهات وردود

١ - شبهة كون التقية من أصول الدين:

لم يكن يخطر ببالي أن يصل الانحطاط الفكري لدى بعض المسلمين إلى هذا الحد من الإسفاف والانحدار. لقد راعني وأدهشني التضليل الذي سلكه بعض الناس اتجاه خصومهم في بعض الأمور، ليس عيباً أن تذكر عيوب خصمك ولكنّ العيب أن تصفه بما هو بريء منه، نعم العيب أن تخلط بين الأصل والفرع لأن ذلك يدل على جهلك بما عند غيرك والجهل يمنع من الخوض، فالنقد فرع الفهم والحقيقة بنت البحث.

نعم إن هناك شرذمة لا تعرف عن الشيعة شيئاً، لا تعرف مقولتهم في أصول الدين فضلاً عن فروعه ثم تأتي لتتصدر في واجهة الكتّاب والنقاد وتُصدِر أحكامها المغلوطة التي تُظهر جهلها وانحرافها بما عند غيرها، ولو كان خصمها يبخل عليها بالإطلاع بما عنده أو كان من المذاهب الباطنية التي لا تكشف ما عندها لكان له بعض العذر في اجتهاده إن أخطأ، أما وإن الشيعة لم تخلُ منهم بقعة من الأرض فهم مبثوثون في جميع أقطارها وكتبهم تملأ الخافقين منتشرة هنا وهناك تنادي برفيع صوتها: ألا من مطّلع؟ ألا من متعلم؟ ألا من عارف؟ فهل يبقى بعد هذا عذر لأحد إن خلط أو جهل.

وهنا أحب أن أبين أن التقية من الأحكام الشرعية الفرعية وليست من أصول الدين ولا أصول المذهب وقد أخطأ ابن تيمية وجانب الصواب حيث رمى الشيعة بأنهم يعدونها من أصول الدين فقد ذكر في كتابه منهاج السنة - بل البدعة -: والرافضة تجعل هذا من أصول دينها وتسميه التقية وتحكي هذا عن أئمة أهل البيت. ونحن إذا أردنا أن نحمل ابن تيمية على الصحة فلا نجد أحسن من الجهل محملاً له، إذ يجهل أبسط الأمور وأيسرها لمذهب غيره ويخلط بين الأصول والفروع، وكيف يسوغ لمن يكتب عن غيره من فرق المسلمين أن يجهل

ذلك وكتب الشيعة الكلامية منها والفقهية بين يديه في المكتبات ودور العلم وعلى رأسها كتب الطوسي والمرتضى والحلي ومئات غيرهم ممن كتب في أصول المذهب الشيعي وفروعه وميَّز بين الأصل والفرع بأحسن بيان وأجمله وأضبطه وأدقه وليس للتقية ذكر على أنها من أصول الدين، فهلاّ كان ابن تيمية يذكر مصدره الذي اعتمد عليه ولو كان النساء والأطفال أو الهواء والغربان، نعم لقد سولت له نفسه وراق له أن يرمي الشيعة بهذه التهمة وإن كانت باطلة لأنها توافق هواه وتخدم مبتغاه من تفريق كلمة المسلمين وتشتيت وحدتهم التي بها عزتهم وقوتهم. . .

نعم نقول: إن أصول الدين عند الشيعة خمسة لا سادس لها. وهي:

التوحيد، العدل، النبوة، الإمامة، المعاد.

التوحيد:

نعتقد أن الله تعالى واحد أحد فرد صمد ليس كمثله شيء لا ندّ له ولا شبيه، ولا صاحبة ولا ولد، ولا شريك ولم يكن له كفواً أحد فهو واحد في ذاته واحد في صفاته (لا إله إلا الله).

العدل:

نعتقد أن الله عادل غير ظالم فلا يجور في قضائه ولا يُحيف في حكمه يثيب المطيعين وله أن يجازي العاصين. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴿٤٤﴾﴾[1].

النبوة:

نعتقد أن النبوة وظيفة إلهية وسفارة ربانية يجعلها الله لمن ينتجبه ويختاره من عباده الصالحين، وهؤلاء الأنبياء معصومون قاطبة منزهون عن المعاصي

(١) يونس/ ٤٤.

والأخطاء، وقد كان آخرهم وخاتمهم سيد الأنبياء وصفوة المرسلين حبيب إله العالمين سيدنا ونبينا محمد بن عبد الله أفضل الخلق وأعزهم على الله. فلا نبيّ بعد محمّد ولا وحي من السماء ينزل على أحد بعده.

الإمامة:

نعتقد أن الإمامة كالنبوة لا تكون إلا بالنص من الله تعالى على لسان رسوله أو لسان الإمام المنصوب بالنص ونعتقد أن النبي ﷺ نص على خليفته والإمام من بعده وهو ابن عمه علي بن أبي طالب في عدة مواطن أشهرها واقعة الغدير المتواترة وأن لدى الشيعة من الأدلة على الإمامة وأنها بالنص وأن المنصوص عليهم هم أئمة أهل البيت أولهم علي بن أبي طالب وأحد عشر من ذريته آخرهم محمد بن الحسن صاحب الزمان. إن لديهم من الأدلة ما يثبت هذا المعنى، فهم قد تعرضوا له في علم الكلام وفي التفسير والتاريخ، وعندهم من الشواهد والبينات ما يزيد على الحصر والعد وقد أُلفت كتب مستقلة في هذا المعنى كالشافي للمرتضى وغيره.

المعاد:

نعتقد أن الله تعالى يبعث العباد بعد الموت في يوم القيامة، يثيب المطيع ويعذب العاصي، يبعثهم بأجسامهم التي كانت في دار الدنيا قال صاحب (الباب الحادي عشر) المعاد زمان العود أو مكانه والمراد به هنا الوجود الثاني للأجسام وإعادتها بعد موتها وتفرقها وهو حق واقع، واستدل على ذلك بوجوه ومن جملتها إجماع المسلمين واتفاقهم عليه...

هذه هي أصول الدين لدى الشيعة، إنها خمسة لم يقع فيها خلاف بين الشيعة وإن وقع في الأمور الفقهية الفرعية بعض الخلافات تبعاً لطبيعة الاجتهاد وانفتاحه عندهم.

نعم هذه هي أصول الدين ويقابلها فروعه المدونة في الموسوعات الفقهية كالجواهر والمستمسك والشرائع وغيرها من مدونات الإمامية التي عمّت الدنيا

وملأت الخافقين وهي في متناول الجميع وهي تبدأ بكتاب الطهارة والصلاة والزكاة والخمس والصيام حتى تنتهي بالحدود والديات وقد بحثها فقهاؤنا رضوان الله عليهم بحثاً وافياً لم يتركوا ثغرة إلا وسدوها ولا أمراً إلا واستوعبوه حتى جاءت موسوعاتهم مرجعاً لمن أراد الاطلاع عليها.

إن أصول الدين عند الشيعة خمسة وجميع الأمور الأخرى ما عداها تعدّ من الفروع وإن عوام الشيعة ومخدراتهم تعرف أصول دينها وفروعها وتميز بينهما بل صبيانهم وصغارهم إذا طلبت منهم تعدادها أجابوك عن ظهر قلب أجابوك بالمنثور والمنظوم واستدلوا على كل أصل بحسب وعيهم وقدرتهم العقلية والثقافية فهل بعد هذا يكون لابن تيمية وأضرابه عذر في تخليطه وجهله بأصول الدين لدى الشيعة، وهل تقبل دعوى أنه يجهل ما عند غيره؟ وهل يعذره أحد في تخليطه إذا كان يجهل؟ ألم يكن سكوته عمّا يجهله أفضل من كلامه فيه؟ وكيف يسوّغ المرء لنفسه الحديث فيما يجهله؟.

نعم إنها نغمة طابت لها نفسه لأن فيها حطّاً من منزلة الشيعة ومقامهم وفيها تشهير واستهزاء وتنفير وازدراء...

نعم تلك كتب الشيعة القديمة منها والحديثة تعدد أصول الدين ولم يذكر في شيء منها عدهم التقية من أصول الدين ونتحدى أن يؤتى بذكر لها في الأصول ولو كان في كتاب عابر أو متعلم صغير، نعم لم يذكرها أحد إلا هذا (الابن) ابن تيمية الذي لم يأت بحق أو صواب.

٢ ـ شبهة النفاق:

ادعى ابن تيمية أن التقية عبارة أخرى عن النفاق، لأن المتقي يظهر خلاف ما يبطن فيظهر الإيمان ويبطن الكفر.

ونقول لابن تيمية (الصنف والشخص) إنّ قلب المسلم الشيعي لم يعرف النفاق ولا الرياء في يوم من الأيام إنه على المحجة الواضحة ليلها كنهارها لم يلتبس عليه الحق ولم يلفه الضباب الذي أحاط بغيره فأضلّه السبيل. إن المسلم

الشيعي هو الذي اتخذ خط أهل بيت النبي دون سواهم، لقد اقتدى بعلي وذريته ثقل النبي ﷺ وعدل القرآن لم يعدل عنهم ولم يتخذ سواهم قدوة، إنه اتخذهم أئمة له في دينه لما ورد في حقهم من رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى، إن رسول الله قد بيَّن طريق الرشد والهدى إن تعددت الطرق وتشعبت السبل وقد كان على معرفة كاملة بما يحدث بعده وقد أخبره الله عن ذلك. . .

ولذا قال صلوات الله عليه: (ستفترق أُمتي على اثنين وسبعين فرقة فرقة ناجية والباقي في النار). نعم لقد عرف الرسول ما سيحل بأمته التي جمعها ووحد صفوفها بعد جهاد وعناء وعرق ودماء إنه عرف أن الأيدي الخبيثة ستفتت ذلك الجسد المقدس إلى فرق وشيع وسيدعي كل منها أنه على الحق والهدى وهذا هو الذي دعى رسول الله إلى أن يبين الطريق السليم والسبيل المستقيم الذي يكون من اتبعه على هدى الإسلام وسيرة النبي المصطفى، ولذا طفق من أول يوم من أيام دعوته يشيد بالشخص الذي رباه وغذّاه وقدّمه على من سواه، لقد رسم للناس طريق الخلاص من الفتن من بعده بلزوم علي عليه السلام فإنه المهيع الذي يرتاده الإنسان فيحصل له اليقين بسلامة مسيرته وعقبى نتيجته.

لقد خط النبي لأمته مَعْلَمَ الهداية بلزوم علي وأشاد في كثير من المواطن أن الحق مع علي وعلي مع الحق وأنهما لن يفترقا حتى يردا عليه الحوض، كما في رواية أنس بن مالك بعثني رسول الله إلى أبي برزة الأسلمي فقال له وأنا أسمعه: يا أبا برزة إن رب العالمين تعالى عهد إليّ في علي بن أبي طالب عهداً فقال: علي راية هدى ومنارة الإيمان وإمام أوليائي ونور جميع من أطاعني. إنها الصورة الكاملة للإسلام الكامل الذي جاء به محمد بن عبد الله تظهر معالمها باتباع علي لأن علياً أعرف الناس بما جاء به محمد لأنه ربيبه وغذيُّه لم يفارقه في ليله أو نهاره ولم يتخلف عنه في جهاده وكفاحه بل كان ظله الثابت يدور معه كيفما دار، ومن اقتدى بعلي في دينه فقد أفلح ونجح.

إن علي بن أبي طالب قد تلقى الإسلام الصحيح وتشبّع بتعاليمه وأحكامه فجاء تجسيداً حياً للشريعة إنه تلقى الإسلام من مصدره ومنبعه دون أن تشوبه الشوائب أو تعكر صفوه الأهواء لقد كان علي يشكل بنفسه طريق الإسلام الصحيح وهذا الإسلام العلوي بما تضمن من عقائد ومعارف وشرائع وأحكام قد اقتفى الشيعة أثره، إنهم اتخذوا خط علي نهجاً يسيرون عليه ومناراً يتبعون خطاه، نعم أخذوا إسلامهم عن علي بن أبي طالب لم يأخذوه عن كعب الأحبار اليهودي ولا عن أبي هريرة الدوسي ولا غيرهم من المسلمين الفاسقين، إنهم أخذوه عن أوثق المصادر وأعلمها، عن أتقاها وأورعها.

نعم لقد آمنت الشيعة بالإسلام ديناً مهيمناً على الحياة ولا يجوز الانحراف عنه أو التعبد بغيره وقد قدمت من أجله كل غالٍ ونفيس لقد أُهرقت في سبيله أغلى الأنفس وأعزها في الوجود، وما كانت ثورة الحسين بن علي إلا في سبيل هذا الدين وحفظاً له من العبث والاندراس بعد أن لعبت به الأيدي الأموية وكادت أن تأتي عليه وتدك المعالم الشامخة منه، ثم توالت بعد الثورة الحسينية ثورات إسلامية كلها تنشد المحافظة على هذا الدين وصيانته، وإن الشيعة قد سارت في ضمن ذلك الموكب الجهادي العظيم تبذل كل ما لديها وما تملك في سبيل الإسلام، ولو كان للنفاق أن يتسرب إلى قلوب الشيعة لم تكن تلك المجازر والمقاتل، لو كان الشيعي يداهن في دينه أو ينافق لم تكن سياط الحكام وسيوفهم تنال منه شعرة واحدة ولكن لصراحتهم فيما يعتقدون وإجهارهم فيما يؤمنون كان طعم السيف أشهى لديهم من المراوغة أو الرياء الذي استعمله غيرهم موافقة لحكام الجور وأئمة الضلال.

إن الشيعة تؤمن بما يؤمن به علي بن أبي طالب، وخطه هو نفس الخط الذي رسمه النبي محمد، فهم مؤمنون عقائديون، مؤمنون لا يتزلزلون ولا ينحرفون فيشهدون بقلوبهم وألسنتهم لا إله إلا الله محمد رسول الله ويعقدون قلوبهم على الإيمان والتصديق بما جاء به رسول الله محمد بن عبد الله يعملون بأوامره وينتهون عما نهى عنه لا تأخذهم في الله لومة لائم وهم أبعد الناس عن النفاق

والرياء وحينما يعملون بالتقية إنما يخفون الحق ويظهرون خلافه، إنهم يؤمنون أن خطهم هو المستقيم وخط غيرهم هو الأعوج فهم يخفون خطهم ويظهرون أنهم على خط غيرهم حفظاً لأنفسهم والنفيس مما عندهم إنهم يبطنون الإيمان ويظهرون الموافقة لمن يعلمون بخطئهم وانحرافهم حفظاً لنفوسهم وأين هذا من النفاق، فإن النفاق إظهار للإيمان وستر للكفر وهذا خلاف ما عليه الشيعة بل ضده تماماً، ولو لم يبح الدين العمل بالتقية لم يعمل بها أحد من الشيعة.

٣ ـ شبهة محق الدين:

قد يقال: إن التقية توجب محق الدين وذهاب أحكامه واندثارها، فكيف ترضون ذلك وتجوزون العمل بها؟

ونقول: إن التقية تنقسم إلى الأحكام التكليفية الخمسة فقد تكون واجبة تارة وقد تكون محرمة أخرى وربما تكون مستحبة أو مكروهة وقد تكون مباحة.

والمحرم منها ما أوجب فساداً في الدين أو تزلزلاً في أركان الإسلام، وبعبارة أخرى: إن كل ما يكون حفظه أهم في نظر الشارع من النفوس والأعراض والنفائس لا تجوز التقية فيه، بل تكون التقية حراماً يجب رفضها وهذا من الأمور العقلية التي وافق عليها الشارع، فإن مراعاة الأهم من القضايا العقلية المتسالم عليها ولذا نقول أنه إذا أوجبت التقية فساداً في الدين وتزلزلاً في أركانه حرُمت.

قال الشيخ المظفّر في عقائده: وللتقية أحكام من حيث وجوبها وعدم وجوبها بحسب اختلاف مواقع خوف الضرر مذكورة في أبوابها في كتب العلماء الفقهية وليست هي بواجبة على كل حال، بل قد يجوز أو يجب خلافها في بعض الأحوال كما إذا كان في إظهار الحق والتظاهر به نصرة للدين وخدمة للإسلام وجهاد في سبيله فإنه عند ذلك يستهان بالأموال ولا تعز النفوس وقد تحرم التقية في الأعمال التي تستوجب قتل النفوس المحرمة أو رواجاً للباطل أو فساداً في الدين أو ضرراً بالغاً على المسلمين بإضلالهم أو إفشاء الظلم والجور فيهم.

وقد وردت النصوص عن أهل البيت عليهم السلام تبيّن مضمون ذلك وتفصح أن التقية قد تحرم في بعض الأحيان.

ـ روى مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث: إن المؤمن إذا أظهر الإيمان ثم ظهر منه ما يدل على نقضه خرج مما وصف وأظهر وكان له ناقضاً إلا أن يدعي أنه إنما عمل ذلك تقية ومع ذلك يُنظر فيه[1] فإن كان ليس مما يمكن أن تكون التقية في مثله لم يقبل منه ذلك لأن للتقية مواضع من أزالها عن مواضعها لم تستقم له وتفسير ما يتقى مثل أن يكون قوم سوء ظاهر حكمهم وفعلهم على غير حكم الحق وفعله، فكل شيء يعمل المؤمن بينهم لمكان التقية مما لا يؤدي إلى الفساد في الدين فإنه جائز.

ففي هذا الحديث نجد النص الصريح على أن التقية غير جائزة إذا أدت إلى الفساد في الدين.

وهناك موارد أخرى تحرم التقية فيها كما لو أدّت إلى إهدار الدماء فإنها تصبح غير جائزة، كما لو أمر الكافر أو الفاسق بقتل مؤمن فإنه لا يجوز امتثال أمره تقية وحفظاً لنفس المأمور لأن المؤمنين تتكافىء دماؤهم وعلة تشريع التقية إنما كان لأجل حفظ الدماء والأنفس، فإذا بلغت ذلك فلا معنى لتشريعها وهذا ما ورد في كثير من النصوص واستفاده الفقهاء فأفتوا بحرمة التقية في الدماء وأنه لا تقية فيها.

ـ روى الكليني في الكافي عن محمد بن مسلم[2] عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: إنما جُعلت التقية ليُحقن بها الدم فإذا بلغ الدم فليس تقية.

ـ وفي حديث أبي حمزة الثمالي[3]: إنما جُعلت التقية ليحقن بها الدم فإذا بلغت التقية الدم فلا تقية.

(١) وسائل الشيعة، ابواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، باب ٢٥، حديث ٦.
(٢) وسائل الشيعة، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، باب ٣١، ح ١و٢.
(٣) نفس المصدر السابق.

إذن فلا فساد في الدين من استعمال التقية وإذا بلغ الأمر ذلك حرمت التقية وارتفع جوازها. . .

ثم إن هناك بعض المستشرقين وأذيالهم من المسلمين الذين لم يفهموا التقية على وجهها الحقيقي، بل لم يكلفوا أنفسهم عناء ذلك، أرادوا أن يفسروا التقية بغير صورتها الأصيلة التي بيّنتها الشريعة فأخذوا لأجل ذلك يقولون: إن التقية عند الشيعة تجعل منهم جمعية سرية لغاية الهدم والتخريب في الدين، وتارة يقولون: إن التقية تجعل من الدين وأحكامه سراً من الأسرار لا يجوز أن يذاع إلا لمن يدين بالتقية.

ونقول لهؤلاء وغيرهم ممن على شاكلتهم الذين يحملون الإحنَ على الإسلام بشكل عام وعلى الشيعة بشكل خاص، نقول لهؤلاء: إن لم يكن لكم دين فكونوا منصفين ثقاة. .

كيف تكون السرية عند الشيعة وهذه كتبهم ليس دونها حاجز أو حجاب، اضرب بطرفك في سائر بلاد الشيعة أسبر مكاتبها العامة والخاصة واسأل أربابها بل أنت فتش بنفسك عما تريد وتحب، وهذه مدينة النجف أمامك فهيا اقصدها وتلك قم فارحل إليها وانزل على مكاتبها فستجد ليس دونك ستر أو ممانعة، أي الكتب أحببت فهي تحت يدك وفي متناولك وفيها أمهات الكتب ومصادر الأحكام لم تبق مسألة إلا وفصلت ولم تطرح قضية إلا وحلت فقد بذل العلماء في إحياء المذهب كل أعمارهم وأوقاتهم حتى ملأوا الطوامير وكتبوا في المعقول والمنقول والفقه والأصول والصرف والنحو والمنطق والبيان واللغة وسائر فنون الحياة ومتطلباتها، فهيّا اقصدها لتعرف حقيقة هذه الدعاوى الباطلة والتهم السخيفة والله حسيبهم يوم الدين على ما يفترون!

١ ـ حسنات التقية:

١ ـ إن أولى حسنات التقية أنها حفظت دماء الشيعة من الهدر، فقد كان الحكام من الأمويين والعباسيين بل العثمانيين يتربصون بالشيعي لإهدار دمه، فقد

كان الكفر والزندقة أخف بنظرهم من شيعة آل محمد وهذا ما عبر عنه أئمة أهل البيت عليهم السلام فهذا الصادق عليه السلام يقول: إنما أنتم في الناس كالنحل في الطير لو أن الطير تعلم ما في أجواف النحل ما بقي منها شيء إلا أكلته، ولو أن الناس علموا ما في أجوافكم أنكم تحبونا[1] أهل البيت لأكلوكم بألسنتهم ولنحلوكم في السرّ والعلانية، رحم الله عبداً منكم كان على ولايتنا.

٢ ـ إن أئمة أهل البيت عليهم السلام حفظاً للإسلام وحيطة عليه كانوا مهما أمكن يسعون للوحدة بين المسلمين وتوحيد صفوف الأمة كي تظهر الأمة الإسلامية موحدة قوية الشكيمة يهابها الأعداء ولا يجرؤ عليها الكافرون، فمن هنا كان الأئمة يأمرون أتباعهم بالسير في صفوف الناس.

يقول الصادق عليه السلام لشيعته: إياكم أن تعملوا عملاً يعيروننا به فإن ولد السوء يعيّر والده بعمله، كونوا لمن انقطعتم إليه زيناً ولا تكونوا عليه شيناً[2]، صلوا في عشائرهم (عشائر المخالفين) وعودوا مرضاهم واشهدوا جنائزهم ولا يسبقونكم إلى شيء من الخير فأنتم أولى به منهم واللهِ! ما عبد الله بشيء أحب إليه من الخبء، قلت: وما الخبء؟ قال: التقية.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ تهديد عظيم ووعيد شديد لمن يتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، على هؤلاء أن يخافوا بطش الله ولا يتعرضوا لسخطه وغضبه، فليس لأحد قدرة على نكال الله وعقوباته...

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾.

الخطاب لرسول الله ﴿قل﴾ يا رسول الله للناس المؤمنين إن الله يعلم ما تسترونه من نياتكم وما تبدونه فكل ما تنطوي عليه قلوبكم من موالاة ونصرة للكافرين ومساندة لهم ومعونة أو تظهروه منها، كل ذلك يعلمه الله ويعرفه وهو

(١) الكافي، ج٢، ص٢١٨، باب التقية.
(٢) الكافي، ج٢، ص٢١٩، حديث ١١.

عنده واضح بيّن وإذا كان الله يعلم الأسرار وما تخفيه القلوب فعلى المؤمن أن يكون صحيح العقيدة وصحيح السلوك فيترك موالاة الكافرين ويتبع سبيل المؤمنين. .

ثم زيادة في بيان علم الله أشار سبحانه إلى أنه يعلم ما في السماوات وما في الأرض، فعلمه عام وما في نفوس الناس جزء صغير من علم الله الكبير فلا ينبغي أن يتوقف المؤمن أو يحتمل أن الله لا يعلم ما يدور في نفسه وما يخفيه فيها. . .

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فقدرة الله مطلقة في الأشياء لا يعجزه شيء، قادر على أخذ من خالف أمره وعصى حكمه وهو قادر على أخذ من تولى الكافرين دون المؤمنين وهذا تهديد بعد التهديد لردع المعتدين. . .

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾.

وهذا من باب الترهيب والترغيب لهذا الإنسان فإنّه في يوم القيامة تُستحضر جميع الملفات التي دُوّنت فيها أعماله وتوضع بين يديه وتبدأ المحكمة بمقاضاته وتكون المستمسكات يقينية لا شك فيها يقرأها بنفسه: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤)﴾.

إن كل إنسان ستحضر ملفاته وسيجدها أمامه في يوم الحساب، فإن كان قد عمل الصالحات فيقول: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[1]. .

ومن ـ في قوله ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ بيانية وتنكير ﴿خَيْرٍ﴾ للتعميم يشمل جميع موارد الخير، والتعبير ﴿مُّحْضَرًا﴾ دون حاضراً إشعاراً بأنها مهيئة جاهزة معدّة للحظات التي يكون فيها العرض والحساب. . .

﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ وأما النفس العاملة بالمعصية والمنحرفة في طرق الرذيلة فستستحضر أيضاً ملفاتها، ومحاضر كل

---

(١) الإسراء: ١٤.

جرم اقترفته وذنب عملته ولكن كيف تقابل هذه المستمسكات وكيف تواجه هذه الملفات؟ . . .

هل تتمنى أن تُكشف أو يخرج إلى النور ما فيها من فضائح ورذائل؟

إنها بالطبع لا ترضى ذلك لأنها تتضمن فضائح وروائح كريهة نتنة تضر وتؤذي حتى أن صاحبها يتمنى لو أن الزمن غيّبها عنه وكان بينه وبينها أمداً بعيداً ووقتاً طويلاً لا يعيشها ولا يراها.

ومثل هذا سيقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ﴿٢٥﴾ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ﴿٢٦﴾﴾[1] وسيقول أيضاً كما قال: ﴿يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ﴾[2].

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ وهذا أيضاً تأكيد للوعيد وتهديد، يخوّفكم الله من انتقامه وعذابه وسطواته وسلطانه فلا تتعرضوا لذلك بمعصيته ومخالفة أمره.

﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ أي رحيم بهم ومن رحمته أنه نهاهم وحذرهم وخوفهم عقابه وذلك كله لصالحهم ونفعهم . . .

(١) الحاقة/ ٢٥ ـ ٢٦.

(٢) الزخرف/ ٣٨.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

اللغة

﴿فَاتَّبِعُونِي﴾: من اتبعه: إذا اقتفى أثره ومشى خلفه.

﴿أَطِيعُوا﴾: من الطاعة: وهي الانقياد والخضوع.

﴿تَوَلَّوْا﴾: أعرضوا.

التفسير

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

هذه الآية سواء نزلت بالنصارى الذين ادعوا حب الله أو بالمسلمين أو الأعم من ذلك فهي على كل حال خطاب يتجاوز حدود مَنْ نزلت فيهم إلى أن تصبح عامة في كل من ادعى حبه لله...

إن الله سبحانه يأمر نبيه أن يضع بين أيدي من يدّعون محبته ميزاناً على أساسه يعرف صدق هذه المحبة من كذبها...

إن الدعوة التي يرفعها الإنسان بمحبته لله تخضع لهذا الميزان. . . إنه الطريق الموصل إلى محبته والكاشف عنها على وجه الحقيقة. . .

إن من ادعى محبته لله فعليه أن يطيع رسوله الذي بعثه برسالته وانتجبه من بين خلقه وحمّله كلامه.

بعد أن قامت المعجزات فثبتت بها نبوة محمد ﷺ فعلى من ادعى محبة الله أن يطيعه ويتبعه ويكون معه في كل أمره. . .

على المحب لله أن يقتفي أثر رسول الله ﷺ ويتخذه علماً يتحرك كما يريد ويعمل بما يريد.

أتباع الرسول ترجمة عملية عن محبة الإنسان لله لأن الرسول هو الذي جاء بعملية الإنقاذ لهذا الإنسان وأخرجه من عالم الضياع والتيه إلى كريم الشريعة وتعاليمها. . .

إن من أدرك أن النبي هو أقرب الناس إلى الله تحرك فعلاً نحو هذا القريب من الله وأخذ منه ما يريد الله ثم عمل بهذا المراد. . .

محبة العبد لله تعني أن يعمل الإنسان بالتكاليف التي أمره الله بها ويمتنع عمّا حرم الله عليه وبذلك تتحقق المحبة، وهذا لا يكون إلا عبر الرسول الذي يحمل مرادات الله وأوامره وينقل إلى الناس المطلوب منهم نحوه ومن هنا وجب اتباع الرسول ليصدق هذا الحب على حقيقته، ومعنى حب الله لعبده أن يقربه منه فيدخله الجنة ويحميه من النار ويسدده في طريق الهدى حتى يصل إلى شاطىء الأمن والسلامة. . .

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ بعد محبة الله كنتيجة لاتباع الرسول يرغبهم الله بأنه سبحانه يمحو سيئاتهم التي عملوها وذنوبهم التي اقترفوها وهذا منتهى الكرم والعطاء من حيث يدعو عبده إلى ما فيه خيره وصلاحه ويرمّم ما فسد من أمره.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ترغيب في أن يكونوا ممن يشملهم الله بغفرانه ورحمته

من حيث أنه سبحانه من عادته الغفران لجميع الناس المستحقين لذلك ولكل الذنوب التي تقبل ذلك فعليهم أن يطيعوا الرسول ليدخلوا تحت هذا الغفران والرحمة. . .

﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ هذا أمر من الله لنبيه أن يأمرهم بطاعة الله وطاعة رسوله فجعل طاعتهما واحدة وربط بينهما ولازم فيما بين الطاعتين ولم يفصل بين واحدة وأخرى تأكيداً على وحدة الطاعة، وأن من أراد الله وأحب طاعته لا بد وأن يحب النبي ويطيعه. ومن أطاع الله ورسوله فقد اهتدى وفاز ونجح في مبتغاه وإلا . . .

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فإن أعرضوا عن الطاعة لله ولرسوله وأداروا ظهورهم إليها ولم يعملوا بما يقول فإنهم يدخلون في زمرة الكافرين والله سبحانه لا يحب الكافرين ومن لا يحبه الله يدخله النار وبئس القرار. . .

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿ٱصْطَفَىٰٓ﴾: اختار.

﴿ءَادَمَ﴾: أبو البشر، وجمعه أوادم، والأُدمة: السمرة.

﴿نُوحٌ﴾: نبي عظيم معروف بطول العمر وفيه علتان لمنعه من الصرف العلمية والعجمة ولكنهم صرفوه لأنه ثلاثي ساكن الوسط فكان خفيف التلفظ.

﴿ذُرِّيَّةً﴾: الذرية: الأولاد الصغار، وفي التعارف يقع عليهم وعلى الكبار: النسل.

التفسير

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

أراد سبحانه أن يبيّن علو درجات الأنبياء بعد الأمر بمحبتهم المستتبعة لطاعتهم ومتابعتهم...

والاصطفاء: هو الاختيار للشيء المصفى من كل عيب من بين جميع أفراده.

والله سبحانه اختار هؤلاء الأنبياء من بين الناس جميعاً لما استجمعوا من فضائل ومناقب وصفات حميدة وكريمة. . .

إنهم يحملون القابلية فجاء الاختيار لهم فكانوا أنبياء من بين البشر. . .

اختارهم الله لما يحملون من طهر وعفة ونزاهة وطاعة وقرب من الله. . . إنهم أقرب عباد الله إلى الله وأشدهم التزاماً بأمره وامتثالاً لحكمه. . . لم يغب الله عن خاطرهم لحظة واحدة ولم يفكّروا في غيره أبداً إلا إذا كان طريقاً إليه أو يريده فيعود الأمر أيضاً إليه. . .

الله سبحانه اصطفى «آدم» أبو البشر وأول الأنبياء ومنه كانت هذه القافلة البشرية كلها، والله سبحانه خلقه بيده واسجد له ملائكته.

و﴿وَنُوحًا﴾ الذي منه كان الناس بعد الطوفان وهو من أولي العزم من الرسل بل أولهم.

﴿وَءَالَ إِبْرَاهِيمَ﴾ هم أهله الأقربون الذين معه وفي خطه وعلى دينه.

﴿وَءَالَ عِمْرَانَ﴾ هم أسرة مريم أم المسيح التي تشملها وأباها وابنها.

﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ عالمي زمانهم فكل من اختاره الله فهو مختار على زمانه وأفضل أهل ذلك الزمان. . . ثم إن الاصطفاء هنا ليس حصراً، إذ هناك غيرهم من المصطفين كما أن الاصطفاء قد يكون من جهة وليس من جميع الجهات. . .

﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ أي كلهم متوجهون نحو وجهة واحدة هي طاعة الله وامتثال أمره والعمل بما أراد، إنهم كلهم يشتركون في الهدف والغاية وهو الله وفي الطريق والوسيلة وهو العمل بما يحقق رضاه. . . وهناك من ذهب من المفسرين إلى أن قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ يراد به أن المتأخر من هؤلاء من ذرية المتقدمين. ولكنه معنى واضح ليس فيه كبير فائدة إن لم نقل لا فائدة فيه لمعرفة ذلك ووضوحه عند الناس. . .

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ الله سميع لأقوال الناس عليم بنواياهم وما يخفون سيحاسبهم عليه يقتص من العصاة ويثيب المطيعين.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿نَذَرْتُ﴾: من النذر: وهو أن يوجب الإنسان على نفسه ما ليس بواجب لحدوث أمر.

﴿بَطْنِى﴾: أصل البطن: الجارحة المعروفة التي يستقر فيها الطعام وهو خلاف الظهر.

﴿مُحَرَّرًا﴾: التحرير: جعل الإنسان حراً أي خالصاً لله ليس للدنيا فيه نصيب.

﴿تَقَبَّلْ﴾: تقبّل الشيء: رضيه، وتقبّل الله الأعمال: أي قبلها على وجه يقتضي الثواب عليها.

﴿وَضَعَتْهَا﴾: الوضع أعم من الحط، ووضعت المرأة حملها: إذا ولدت.

﴿أُنثَىٰ﴾: الأنثى: خلاف الذكر ويقالان في الأصل اعتباراً بالفرجين.

﴿الذَّكَرُ﴾: خلاف الأنثى.

﴿سَمَّيْتُهَا﴾: جعلت لها اسماً.

﴿مَرْيَمَ﴾: اسم أعجمي اسم أم عيسى وهي مريم بنت عمران.

﴿أُعِيذُهَا﴾: أجيرها وأُحصّنها.

﴿وَذُرِّيَّتَهَا﴾: الذرية: أصلها الصغار من الأولاد وإن كان في التعارف يقع عليهم وعلى الكبار ويستعمل للواحد والجمع.

﴿الرَّجِيمِ﴾: المطرود من الخيرات وعن منازل الملأ الأعلى.

﴿وَأَنبَتَهَا﴾: أنشأها.

﴿وَكَفَّلَهَا﴾: الكفيل: هو الضامن وهو الذي يقوم على شؤون الآخرين ويهتم بهم وينفق عليهم.

﴿زَكَرِيَّا﴾: اسم النبي المعروف.

﴿الْمِحْرَابَ﴾: أصله الموضع العالي الشريف وعند المسلمين مقام الإمام من المسجد.

﴿وَجَدَ﴾: المطلوب: أصابه وأدركه؛ ووجد الشيء عن عدم كان وحصل، والوجود خلاف العدم.

﴿رِزْقًا﴾: الرزق: ما يصل إلى الجوف ويتغذى به.

التفسير

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾.

هذا فصل قصير من قصة مريم بنت عمران وكيف تولدت بنذر من أمها

فاستجاب الله لها وكيف نشأت وترعرعت في خدمة بيت المقدس ثم كيف كانت قصتها مع زكريا وكفالته لها...

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

قالوا إن ﴿إذ﴾ متعلق بمحذوف تقديره أذكر، وقالوا: إنها ظرف لاصطفى حتى ذهب بعضهم إلى أنها زائدة ولكن كل ذلك لا فائدة فيه بعد معرفة المراد، وإن ما تقدم كان يحكى عن الاصطفاء ومن الاصطفاء إذ قالت امرأة عمران...

وامرأة عمران هي جدة المسيح، ويقال: إن اسمها حنة وقد كتبت في كتابنا «الأصدق في قصص الأنبياء»(١) قصة آل عمران ومريم وهذا نصه:

آل عمران: عمران من رجالات بني إسرائيل الذين حفظوا عهود الأنبياء... إنه قد تفرغ للعبادة ولخدمة بيت المقدس.. بلغ به الأمر أن أصبح في طليعة القديسين بل أرسله الله نبياً يحمل رسالة آبائه يهدي الناس ويعظهم ويرشدهم وينصحهم... إن كل همه أن يعود الضالون إلى الله... همه أن يهتدي على يديه كل المنحرفين.. هذه كانت حالته الدائمة..

أما زوجته «حنة» فكانت تعيش مع زوجها أحلامه وتحمل دعوته وتهتم بجميع ما يهتم به، إنها زوجة صالحة تعيش مع زوجها همومه وقضاياه وتحاول أن تعينه على تخطي العقبات ولم يكن ما يؤرقها أو يزعجها إلا هم واحد قد استولى على قلبها وأخذت تتحدث مع نفسها فيه...

إنها امرأة لم تنجب ولداً يحمل آمالها ويحقق أحلامها ويكون الامتداد لها ولزوجها... هذه القضية قد أخذت عليها تفكيرها وراحت تقلقها ليلها ونهارها... إنها لا تجد في الأفق من يساعدها أو يحل مشكلتها إلا الله... إنها كانت في خشوع وخضوع ترفع يديها إلى الله، تناجيه وتحاكيه وتطلب منه أن

---

(١) الأصدق في قصص الأنبياء، كتبته عام ١٩٩٦ ونشرته دار المرتضى وقد نفذ بسرعة.

يرزقها ولداً تقرّ به عينها. . إنها كانت لا تنفك عن هذا الطلب فهي تلح باستمرار على الله أن يرزقها مولوداً طيباً.

وفي يوم من الأيام يعود زوجها عمران إلى بيته ووجهه يبدو عليه البشر والسرور. . . إنه وإن كانت تلك عادته في كل مرة يعود بها إلى البيت ولكنه في هذه المرة غير تلك المرات. . . يكاد وجهه يحكي أن هناك بشرى سارة يحملها إلى زوجته. . . عاشت زوجته لحظات صعبة من الانتظار. . إنها تعيش اللهفة إلى سماع الخبر ويتكلم عمران بالسر. . .

يحدث زوجته: إن الله أوحى إليه أنه سيهبه غلاماً ذكراً مباركاً يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله. . . لم تكد زوجته تسمع الخبر حتى كادت أن يغشى عليها من شدة الفرح. . .

إن الله قد استجاب دعاءها. . . إنها مؤمنة بزوجها ومصدقة له ـ في أخباره ـ بل في كل ما ينقله إليها ولا بدّ وأن يحقق الله أمنيتها. . .

وتحمل امرأة عمران. . . إنها مقدمات البشرى قد تحققت. . هذا هو الجنين ينمو ويكبر ومعه يكبر الأمل. . . إنها تريده لله. . . تريده محرراً من كل ما يعوقه عن خدمة الله. . . إنها أرادت أن تُلزم نفسها بعقد قوي بينها وبين الله لا تنفك منه ولا تخرج عنه. . . إنها أخذت على نفسها نذراً لله أن يكون هذا المولود خالصاً لخدمة بيت المقدس.

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ إنه نذر يتضمن تحرير المولود من كل خدمة لغير الله. . . إنها تريده خالصاً لوجه الله وتسأل الله أن يتقبّل منها هذا النذر ويثيبها عليه، رادة الأمر إليه وإنه السميع لقولها العليم بنيتها ودوافعها. . .

وتتحرك الأيام بسرعة ولكنها في نظر الأم بطيئة لأن الانتظار صعب ـ إنها تنتظر فرحتها الكبرى يوم تضع مولودها الموعود. . . إنها تعدّ الساعات فضلاً عن الأيام وتترقب فجر ذلك اليوم الذي تضع فيه وليدها. . .

وقبل أن تضع وليدها تكون المفاجأة المحزنة التي نغصت على الأم سرورها. . . لقد مات زوجها قبل أن تضع حملها. . . إنها الدنيا لم تصفُ لأحد. . . إنها الدنيا مشوب سرورها بحزنها وصفائها بكدرها. . . ما أصعبه من موقف وما أشد حراجته. . . لم تكتمل فرحة الأم حتى مات الزوج. . . ولكنها المرأة المؤمنة الراضية بقضاء الله وقدره طوت أحزانها ولملمت آلامها وراحت تعيش الأمل في وليدها الذي هو امتداد زوجها وبقيته الذي يحمل اسمه ويكمل الشوط بعد رحيله.

وضعت امرأة عمران حملها. . إنها أنثى. . . وأخذتها العبرة. . . ليس لأنها أنثى بل لأنها لا تصلح أن تخدم بيت المقدس. . لأنها لم تقدر أن تفي بنذرها وتحقق أحلامها في خدمة الله. . .

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ إنها شكوى حائرة. . . إنها تتحسر على أنها أنثى لا تقدر أن تقوم بخدمة بيت المقدس. .

ولكن الله يقول لها: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾.

إنه سبحانه أعلم بما وضعت إنها أنثى ولكن عن طريقها سيتم إنجاز ما وعد به عمران من قبل. . .

ولو كانت امرأة عمران تعلم بحقيقة هذه الأنثى ومستقبلها وما تقدم للبشرية لم تتحسر أو تحزن.

إن الذكر الذي كانت ترجوه وتأمل أن تتحقق أحلامها فيه لم يكن ليحقق أهدافها وتدرك أمانيها فيه. أبداً ليس هو كهذه الأنثى. .

ما كانت تنتظره من مولود ذكر لم يكن ليتحقق كما سيتحقق في هذه الأنثى، إنها ستلد من غير زوج وستكون وابنها آية للعالمين. . .

إنها الأم تضم طفلتها إلى صدرها وتتنهد من عمقها وتتمتم قائلة: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ إنها وإن حرمت الولد

الذكر ولكنها لم تحرم من أنثى تتطلع إلى أن تسد الفراغ وتكون هي وذريتها في خط الله، بعيدة عن الشيطان وحبائله ومكائده ومصائده... إنها تسأل الله لها ولذريتها أن يكونوا في عين الله ورعايته لا يمسهم الشيطان اللعين ولا يكون له فيهم نصيب...

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ أي تقبل الله هذا النذر ورضي أن تكون مريم في خدمة بيت المقدس ورباها تربية صحيحة سليمة على أيدي الطاهرين.. تربية دينية روحية ملتزمة فجاءت كأحسن ما تكون التربية لأنثى عاقلة.

﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّآ﴾ أي جعل الله زكريا زوج خالتها هو القائم عليها والمهتم بها والموكّل بكل حاجياتها...

وهنا لم يكن الهدف بيان كيف تمت هذه الكفالة التي لم يحصل عليها زكريا إلا بعد منازعة بينه وبين الأحبار الآخرين وكيف رموا بسهامهم فكان سهمه هو الفائز ونجح في كفالتها وأدخلت بعد أن شبت قليلاً إلى بيت المقدس وأفرد لها زكريا غرفة خاصة بها كان يتفقدها من وقت لآخر وهي تجدّ في عبادة الله وتخلص له في توجهها...

هو من عند الله

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

كتبت في كتاب «الأصدق في قصص الأنبياء» ما نصه:

كان زكريا يتردد على محراب مريم يتفقدها باستمرار... إنها بديل الولد الذي حرم منه... يعطف عليها.. يرعاها.. يتعهدها بكل شؤونها.. إنها منحة إلهية وهدية ربانية سكب زكريا كل حنانه في شخصها...

كان زكريا يتردد عليها فيجد عندها رزقاً في غير وقته. . . لم تعهد البلاد التي يقيم فيها زكريا أن تكون الأرزاق في غير مواسمها. . . فللعنب موسمه وللتين موسمه وللموز موسمه وهكذا.

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾ مكان عبادتها التي تتهجد فيه.

﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ طعامها التي هي بحاجة إليه ليقيم أودها وتستمر به في حياتها.

إن زكريا يرى هذه الظاهرة فيتعجب منها، ثم إنه قد أخذ على نفسه حفظها ورعايتها وقد منع أحداً أن يدخل عليها، فكيف وصلت هذه الأرزاق إليها؟ عن أي طريق؟ والأعجب أنها في غير مواسمها. .

إن زكريا يعرف مريم ويعرف أنها حبيسة محرابها لا تخرج منه إلا للضرورة. . . إنها في شغل عن الخروج وعن هذا العالم المليء بالفساد. . . إنها في عبادتها وتوجهها إلى الله. . وتدور في فكر زكريا الأسئلة وتكثر بل تلح عليه. فيتوجه إلى المؤمنة العابدة وبصوت المستفهم المتعجب «وقال: يا مريم! أنى لكِ هذا؟» وبصوت المؤمنة الواثقة بالله البريئة من كل خلفية إلاّ الإيمان بالله، والاعتقاد به، ينطلق لسانها وتنساب الكلمات لترسم حقيقة أيمانية تبقى ترددها كل القوافل البشرية التي تؤمن بالله وبأنبيائه ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

وترتاح نفس زكريا لهذا الجواب ويعلم أن في القضية غيباً مستوراً سيكون مقدمة لأمر عظيم محجوب. .

قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿هُنَالِكَ﴾: في ذلك الوقت، والأصل فيه الظرف من المكان، وهنا للقريب، وهنالك للبعيد، وهناك للمتوسط..

﴿هَبْ لِي﴾: أعطني من الهبة، وهي تمليك الشيء من غير مقابل.

﴿لَّدُنكَ﴾: عندك.

﴿ذُرِّيَّةً﴾: الأولاد الصغار، وفي التعارف يقع عليهم وعلى الكبار، وهم النسل..

﴿طَيِّبَةً﴾: قال الراغب: الطيب من الإنسان: من تعرى من نجاسة الجهل والفسق وقبائح الأعمال وتحلى بالعلم والإيمان ومحاسن الأعمال.

﴿فَنَادَتْهُ﴾: دعته.

﴿ٱلْمِحْرَابِ﴾: قيل: إن الأصل فيه صدر المجلس، ثم اتخذ في المسجد مكاناً للإمام.

﴿يُبَشِّرُكَ﴾: البشارة: أخبار فيها مسرة وفرح.

﴿وَسَيِّدًا﴾: السيد: هو رئيس القوم المتولي شؤونهم، ولما كان من شرط المتولي للجماعة أن يكون مهذب النفس، قيل: لكل من كان فاضلاً في نفسه سيد.

﴿وَحَصُورًا﴾: من الحصر: وهو الحبس، والحصور: الذي يحبس نفسه عن الشهوات، وهنا من لا يأتي النساء بالاختيار عن عفة..

﴿غُلَٰمٌ﴾: الغلام: الفتى الذي طرّ شاربه.

﴿بَلَغَنِيَ﴾: أدركني ولحقني.

﴿ٱلْكِبَرُ﴾: التقدم في السن.

﴿عَاقِرٌ﴾: عقيم لا تلد، والعاقر: من لا يولد له من رجل أو امرأة.

﴿ءَايَةً﴾: علامة.

﴿رَمْزًا﴾: الرمز: إشارة بالشفة، والصوت الخفي، والغمز بالحاجب.

﴿وَٱذْكُر﴾: من الذكر: وهو استحضار الشيء باللسان والقلب، ومنه: أُذكر ربك: أي استحضره على لسانك وفي قلبك..

﴿سَبِّحْ﴾: التسبيح: هو التنزيه، وتسبيح الله: تنزيهه عمّا لا يليق به من الصفات.

﴿بِٱلْعَشِيِّ﴾: من حين زوال الشمس إلى غروبها، وقيل: أواخر النهار.

﴿وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾: بكسر الهمزة: باكراً، وقد حدد من طلوع الفجر إلى الضحى.

التفسير

هذا فصل من قصة زكريا العبد الصالح الذي تكفّل مريم وأدرك من خلالها ومن خلال سيرتها عظمة الله زيادة عما في نفسه.. ثم كيف كانت رؤيته لها ومعرفته بها وما شاهده منها من إخلاص وتبتل وعبادة وطهر، وما مرّ أمامه من رؤية رزقها عندها وكيف وقع السؤال منه والإجابة منها..

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ عندما رأى مريم ورأى المعجزة التي تتمثل بوجود رزقها عندها ـ وقد يكون كما قيل وجود الفاكهة في غير موسمها ـ وفي ذلك الحين والوقت دعا زكريا ربه ولم يكن قد رزق بولد وامرأته عاقر لا تنجب، مع هذا دعا ربه! فقال:

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ وإن كان كبيراً وامرأته عاقراً لكن طالما الطلب من الله، وطالما أنه يدعو الله ليتدخل في الأمر فلا بد من الدعاء وعندها تسهل الأمور..

﴿رَبِّ﴾ لجوء إلى الله واعتراف بربوبيته ﴿هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ﴾ من عندك وبقدرتك وبتدخل منك في إصدار الأمر..

﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ ولداً صالحاً مباركاً يحمل الاسم ويكمل الدرب.

﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَآءِ﴾ قادر ومجيب لدعاء من دعاك وأنا أدعوك فاستجب لي...

دعا زكريا ربه ثم توجه إلى محراب عبادته وقد يكون الدعاء في نفس المحراب ولم يكن ـ ثم ـ في البيّن بل جاءته البشرى وعلى ألسنة الملائكة.

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

في مقام العبادة حيث يتهجد زكريا، نادته الملائكة وبشرته باستجابة الدعاء، وإن الله سيرزقه ولداً ـ كما دعا ـ وسمّته له وأعطته أوصافه كما أحب وأراد.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ فالملائكة تنقل عن الله لزكريا خبر يحيى... إنها تزف إليه البشرى وما فيه سرور وفرح من تحقيق الدعاء.... إنه يحيى اسم أنزله الله لهذا المولود.. فهو اسم جديد لمولود فريد في كيفية ولادته من حيث ولد من أبوين أحدهما بلغ من الكبر عتياً والآخر عاقر لا تلد...

إن من صفات هذا المولود المبشر به أنه...

أولاً: ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي مؤمن بعيسى بن مريم وعبّر عن عيسى بكلمة الله، أما لأنه جاء من غير أب بل بقول الله له ﴿كن﴾ أو لأنه ينفع الناس ويفيدهم ويعلمهم ويهذبهم كما تقوم الكلمة بكل ذلك...

وعلى كل حال فهما ـ يحيى وعيسى ـ ابنا خالة وفي عمر واحد ولذا لما جاء عيسى بدعوته وقام بنبوته آمن به يحيى وصدّقه واتبعه.

ثانياً: ﴿وَسَيِّدًا﴾ يسود قومه ويتفوق عليهم وتصبح له الزعامة والمرجعية، ولذا أصبح يحيى أعلم علماء بني إسرائيل وعادوا إليه في شؤونهم وأصبحت له الكلمة النافذة حتى أضحى يهدّد السلطة وأصبحت تخافه وما قتله إلاّ لأنه أصبح موضع خطر عليها..

ثالثاً: ﴿وَحَصُورًا﴾ أي ممتنعاً عن النساء.. متنسكاً بعيداً عن شهوة الفرج، فهو مع قدرته على إتيان النساء يمتنع عنهن متفرغاً لعبادة الله..

وقد يكون هذا من خصوصيات هذا النبي وكله خصوصيات فلا غرابة في اختصاصه بذلك، وإلاّ فإن شرعنا ندب إلى الزواج ودعا إليه وقال النبي ﷺ «النكاح سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني».

رابعاً: ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وهذه مرتبة عظيمة يمنحها الله ليحيى عليه السلام استجابة لدعوة أبيه وكل نبي صالح لا محالة، فقوله: ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ تنويه بعظمة النبوة.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ بعد أن وصلت

البشرى إلى مسامع زكريا لم يشك أبداً فيها، بل يعيش اليقين منها، إنه يعلم صدق مضمونها ولكن ليبلغ مرتبة حق اليقين، ليبلغ مرتبة اطمئنان القلب واستسلامه بالكلية، انطلق لسانه يشرح واقع حاله...

﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾.

كيف يأتيني هذا الفتى وكل الموانع من وجوده موجودة؟ فأنا قد بلغت من العمر سناً كبيرة سقطت معها كل العطاءات وتعطلت كل الطاقات، وذبلت الأعضاء، ولم أبق كما كنت أيام الشباب!.

وأما امرأتي فهي عاقر لا تنجب... إنها أرض لا تنبت زرعاً ولا تخرج ثمراً...

سؤال يحمل الرقة والعطف لواقع هذا الحال...

ويسمع الله هذا الاستفهام ويردّ على عبده بردٍ صارم صادق وبتقرير واضح ظاهر ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ كما أنتما وكما هي حالكما يرزقكما الله غلاماً، وهو سبحانه يفعل ما يشاء بدون أسباب أو علل، وبدون مقدمات أو تهيئة ظروف... إنه يقول للشيء ﴿كُن فَيَكُونُ﴾...

ويسترجع زكريًا أنفاسه بعد هذا الجواب الإلهي... ازداد اطمئناناً... بلغ درجة من الراحة كبيرة، ولكنه يريد معرفة الأمر متى يكون؟...

إنه يطلب علامة تحكي بداية هذه الاستجابة... يريد آية وعلامة يعرف من خلالها تحقق هذا الأمر.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ إنه الإنسان... خلق من عجل وزكريا يطلب تعجيل الأمر.. إنه يريد علامة خارقة للعادة يستدل من خلالها على حمل زوجه.

ويأتيه الجواب من الله محدداً هذه الآية ومبيناً لها، بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾.

إنها آية عجيبة.. لم تعهد من قبل.. لقد خرس اللسان الفصيح... الواعظ المتكلم المفوه لم يعد ينطق أمام قومه بكلمة.

لقد تحولت كلماته إلى إشارات.. متى أراد أمراً أشار إليه.. لقد أُصيب بالخرس وعدم النطق...

نعم في ذكر الله والتسبيح والتهليل فهو الناطق المتكلم، وبغير ذلك فهو أخرس.

قدرتك يا رب... حكمتك البالغة.. تفتح رحم امرأة عاقر فتنجب.. وتغلق فم إنسان سوي مستقيم ومن دون مرض فيمتنع عن النطق والكلام إلاّ بذكرك... آلة النطق صحيحة سليمة تنطلق عند الذكر والتسبيح وتتوقف عند الحديث مع الغير...

ثلاثة أيام بلياليها لا يقدر خلالها زكريا على النطق والكلام إلاّ بذكر الله...

ثلاثة أيام ربما كانت تأديباً لزكريا لأنه ترك الأولى عندما لم يسكت عندما بشره الله بيحيى بل راح يقول: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم:٨].

ولربما يريده الله طاهراً صافياً يعيش مع الله هذه الفترة الحاسمة التي يتكون فيها يحيى وتنعقد نطفته...

وعلى كل حال.. ثلاثة أيام لا يقدر أن يتكلم فيها زكريا إلاّ رمزاً ـ بالإشارة ـ قد تكون بالشفة والحركة وغير ذلك...

وأمره الله أن يذكره كثيراً، أي يديم ذكر الله تحميداً وشكراً وتفكراً واعتباراً.

﴿وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ نزه الله عمّا لا يليق به في هذين الوقتين، وقت العشي المحدد من الزوال إلى الغروب أو آخر النهار..

والإبكار: من طلوع الفجر إلى وقت الضحى...

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿اصْطَفَاكِ﴾: اختارك، وأصله من الصفو، وأصل الصفاء: خلوص الشيء من الشوب، ومنه الصفا: للحجارة الصافية، والاصطفاء: صفو الشيء.

﴿وَطَهَّرَكِ﴾: الطهارة: لغة النظافة، وهنا يقصد بها الطهارة المادية ـ القذارة، والطهارة المعنوية: طهارة النفس من الذنوب والرذائل.

﴿الْعَالَمِينَ﴾: جمع عالم وكل صنف هو عالم بذاته، نقول: عالم الذكور، وعالم الإناث، وعالم الطيور.

﴿اقْنُتِي﴾: من القنوت، ومعناه: لزوم الطاعة مع الخضوع.

﴿وَاسْجُدِي﴾: السجود: معناه التذلل، وشرعاً وضع الجبهة على الأرض.

﴿وَارْكَعِي﴾: من الركوع: وهو الانحناء المعروف وقد يستعمل في الصلاة، فيقال: ركع ركعات خفيفة.

﴿أَنۢبَآءِ﴾: جمع نبأ: وهو الخبر الهام.

﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾: قال الراغب في مفرداته: هو ما لا يقع تحت الحواس.

﴿نُوحِيهِ﴾: الوحي: إلقاء المعنى في النفس في خفاء.

﴿لَدَيۡهِمۡ﴾: عندهم وبحضرتهم.

﴿يُلۡقُونَ﴾: من الإلقاء: وهو طرح الشيء حيث تلقاه، أي تراه، ثم صار في التعارف لكل طرح.

﴿أَقۡلَٰمَهُمۡ﴾: الأقلام: جمع قلم، وهنا هو السهم.

﴿يَكۡفُلُ﴾: الكفيل: هو الضامن الذي يهتم بشؤون الشخص وينفق عليه.

﴿يَخۡتَصِمُونَ﴾: يتنازعون، وأصل المخاصمة: أن يتعلق كل واحد بخصم الآخر: أي جانبه.

التفسير

لا يزال الحديث عن مريم العذراء وإن تخلله الحديث عن زكريا لاختلاطهما ببعضهما وكفالته لها ودوره معها.

﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ﴾ واذكر إذ قالت الملائكة مخاطبة مريم، وهذا الخطاب فيه تعظيم وتجليل، ويحمل معه إشارات واضحة لعظمة مريم وجلالة قدرها.

خاطبتها الملائكة بقولهم لها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ﴾ أي اختارك من بين نساء العالمين من جهة تقبلها بنذر أمها وتفريغها للعبادة، وإغناؤها من رزق الجنة، وكفالة زكريا ـ وهو نبي ـ لها وكونها من ذرية الأنبياء، وهكذا. . .

﴿وَطَهَّرَكِ﴾ أي نزّهك عما يلحق النساء من الأدناس والأقذار التي تلحق النساء، وقيل: إن الطهارة مطلقة تشمل القذارة المعنوية والأخرى المادية. .

﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ قالوا: إنه تأكيداً للأول، ورداً لِما ادُّعاه عليها اليهود وافتروا به عليها من أنها غير طاهرة وليست عفيفة.

وقيل: إن الاصطفاء هنا من جهة أنها ستحمل من غير زوج، وستلد نبي الله عيسى بن مريم وستكون وابنها آية للعالمين...

﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾ أمرها بالدوام على طاعة الله والتزام أمره واعبديه قدر استطاعتك.

﴿وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ صل مع المصلين، وفي جماعتهم كوني، وعبّر عنها بذكر أركانها لأهميتها.

أو يراد أن تعمل كما يعمل الراكعون فتتشبه بفعلهم من هذه الجهة...

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ ما قصصناه عليك من أخبار زكريا ويحيى ومريم إنما هو من الأمور الغيبية التي لم يتوصل إليها أحد نحن نوحي بها إليك ونخبرك بها على وجه اليقين، وهذا دليل واضح على اتصالك بالله، وأن ما عندك من معلومات وقصص وما تتحدثين به وتقوليه للناس إنما هو من عند الله...

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾.

وهذا بيان لمصداق من الغيب المحجوب يوحي به الله إلى نبيه محمد ﷺ.

إنها قصة مريم وكفالتها، وكيف أن النبي ﷺ لم يكن حاضراً يومها، ولكنها وقعت ـ كما جاء ذكرها في القرآن ـ وذلك عندما جاءت امرأة عمران تحمل طفلتها مريم إلى بيت المقدس لتفي بنذرها التي قطعته لله على نفسها، أن تجعل ولدها محرراً لخدمة هذا المكان الطاهر وهنا اختلف الكهنة وتنازعوا فيما بينهم كل يريد أن يحصل على هذا الشرف العريض، فاحتكموا في نهاية المطاف إلى القرعة..

فاجتمعوا واتفقوا على الطريقة.. اتفقوا أن يكتب كل منهم اسمه على سهمه

ثم يجمعون السهام ويرمونها في الماء فمن طفى سهمه فهو الكفيل لمريم... إنها طريقة تحل النزاع وترفع الخصام وتعيّن الكفيل بإرادة إلهية لا تتدخل فيها إرادة الناس ومشيئاتهم...

وهكذا كان، وطفا سهم زكريا وتعيّن أن يكون الكفيل لمريم، وبهذا نال شرف كفالتها والقيام بشؤونها وترتيب أمورها...

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦)﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿يُبَشِّرُكِ﴾: من البشارة: وهي الإخبار بما يسر ويفرح.

﴿الْمَسِيحُ﴾: لقب من ألقاب النبي عيسى قالوا: معناه المبارك، ومسح بيده الشيء: إذا مرَّ بيده عليه..

﴿وَجِيهًا﴾: شريفاً ذا منزلة رفيعة، والوجاهة: الشرف والقدر.

﴿الْمُقَرَّبِينَ﴾: من القرب: وهو الدنو، والمقرب من الله: هو الذي ينال رحمته بدخوله الجنة ودرجاتها الرفيعة.

﴿الْمَهْدِ﴾: فراش الطفل.

﴿وَكَهْلًا﴾: الكهل: ما بين الشاب والشيخ وقدِّر بمن تجاوز الثلاثين إلى الأربعين.

التفسير

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥)﴾.

يعود سبحانه ليقص خبر مريم وولادتها للسيد المسيح عليه السلام وتبدأ الآية بتكليف إلهي للملائكة، أن يزفُّوا للسيدة مريم البشارة بأنها ستلد هذا النبي العظيم...

إنه سبحانه يسمي المسيح ﴿كَلِمَةٍ﴾ وذلك لأنه من غير أب، وإنما خلق بكلمة ﴿كُنْ﴾ فكان، فسمي بكلمة من الله...

وهذه خصوصية للمسيح لم يشاركه فيها أحد إلا آدم الذي خلقه الله من غير أب ولا أم، ومن يدّعي أن المسيح هو ابن الله لأنه خلق من غير أب فالأجدر به أن يتخذ آدم ابناً لله لأنه خلق من غير أم ولا أب ـ حاشا لله ـ أن يتخذ من ولد، بل كلهم عباد مكرمون وله مطيعون.

ثم إن الله يسميه قبل ولادته ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ ونسبه إلى أمه ردّاً على من زعم أنه ابن الله، وبهذا حسم هذا القول وردّه إلى الأبد.

وأيضاً يعطيه الله كرامة في الدنيا وفي الآخرة ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أما وجاهة الدنيا بما أعطاه من النبوة، وما أكرمه من إيمان الناس به وتقديره وتعظيم شأنه.

وأما في الآخرة فلعلوّ منزلته وما أعدّه الله له من الدرجات الرفيعة. وتقريبه منه من حيث أنه رفعه إليه لمّا أرادوا قتله وجعله حياً حتى يظهر في آخر الزمن ويصلي خلف الإمام المهدي المنتظر ويكون معه في عداد جنده...

﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦)﴾ وهذه من صفات المسيح ومناقبه ومن خصوصياته ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ وهو طفل رضيع في أيامه

الأولى ينطلق لسانه لإثبات براءة أمه من كل ما يشينها وإثبات عبوديته لله وإنه نبي من قبله. حيث قال عندما أشارت إلى قومها وهي تحمله، قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾[1]. وكهلاً حيث خاطبهم بالإنجيل وعلمهم أحكامه وآدابه وأخلاقه.. وفي الآية كما قيل: بشارة لمريم إنه يعيش إلى زمان الكهولة.

﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ كان من الصالحين، وكفى بالصلاح فضلاً ومنزلة رفيعة، حيث يجعل النبي عيسى بن مريم منهم وفي عدادهم.

(١) مريم/ ٣٠.

قال تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿يَمْسَسْنِي﴾: أصل المس: هو اللمس باليد، ويكنى به عن الجماع وغيره.

﴿بَشَرٌ﴾: يطلق على الواحد والجمع، وسمي بشراً لظهور بشرته والمقصود هنا ـ رجل ـ.

﴿يَخْلُقُ﴾: الخلق: أصله التقدير المستقيم ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء كما هو الخلق من قبل الله. . .

﴿قَضَىٰ أَمْرًا﴾: أراد شيئاً.

﴿الْكِتَابَ﴾: مصدر ما يكتب فيه، سمي بذلك لأنه يجمع فيه أبوابه وفصوله ومسائله.

﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾: إصابة الحق بالعلم والعقل.

﴿ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾: الكتاب الذي أُنزل على موسى.

﴿ٱلْإِنجِيلَ﴾: الكتاب الذي أنزل على عيسى.

﴿بِـَٔايَةٍ﴾: الآية: العلامة، ويراد بها هنا المعجزة.

﴿ٱلطِّينِ﴾: تراب يجبل بالماء ويخلط به.

﴿كَهَيْـَٔةِ﴾: الهيئة: جمعها هيئات، كيفية الشيء وشكله وصورته.

﴿ٱلطَّيْرِ﴾: جمع طائر: وهو كل ذي جناح يسبح في الهواء.

﴿فَأَنفُخُ﴾: نفخ بفمه: أخرج منه الريح بطريقة معروفة فيها بعض الدفع...

﴿وَأُبْرِئُ﴾: أشفي، وبرىء من المرض: إذا شفي منه.

﴿ٱلْأَكْمَهَ﴾: الذي يولد أعمى.

﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾: المصاب بالبرص: وهو بياض يعتري الجلد فيفرّ.

﴿وَأُحْيِ﴾: من الإحياء: وهو أن يعطيه الحياة التي هي ضد الموت.

﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾: جمع ميت: وهو فاقد الحياة...

﴿أُنَبِّئُكُم﴾: من النبأ: وهو الخبر المهم.

﴿تَدَّخِرُونَ﴾: تخبئونه إلى وقت الحاجة.

التفسير

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾.

بعد أن جاءتها البشرى من الله بولادتها المسيح عليه السلام وقفت موقف المستفهم المتعجب قائلة لربها: كيف يأتي هذا الولد وأنا لم أتزوج بعدُ؟ وهل يكون عن طريق الزواج أو بأمر إلهي تخرق به الأسباب وتلغى ويأتي الولد؟!...

ويأتيها الجواب بكلمات مقتضبة تذكّرها بعقيدتها في الله وقدرته على كل شيء.

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ كذلك أمر الله عظيم يخلق الولد من الأبوين ويخلقه بدونهما ويخلقه من الأم وحدها.

﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ إذا أراد شيئاً فبالإرادة يتحقق المراد وما تعبيره ﴿كن﴾ إلاّ لتقريب المعنى إلى الذهن البشري وإنه لا تأخير بل يحصل فوراً. . . نعم تلغى الأسباب وتتعطل العلل ويخرج المراد إلى النور بدون مقدمات بل بكلمة ﴿كن﴾ المعبرة عن المشيئة الإلهية. . .

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ﴾ قيل: يعلمه الكتابة، وهي الخط، ولكن هذا السياق يأبى هذا المعنى مع أنه عليه السلام ليس في مقام المباراة بالخطوط، وليس في ذلك معجزة يقدمها للناس.

والمناسب أنه سبحانه يعلمه الكتاب، أي جنس الكتاب.

﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ السداد في القول والفعل وأنه يضع الأمور مواضعها.

﴿وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ هذان مصداقان للكتاب ذكرهما سبحانه لأهميتهما وعلو شأنهما. .

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أرسله الله رسولاً من قبله إلى بني إسرائيل لكي يهديهم إلى الله ويردهم عن ضلالهم، وما هم فيه من انحراف وتمرد. . .

﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ هذه مقولة عيسى لبني إسرائيل إنه يدعي النبوة وإنه مرسل إليهم ويقيم على ذلك علامة ودلالة تصدق مقالته. .

ثم لنفي أن تكون من عنده وبقدرته أسندها إلى الرب، رب بني إسرائيل الذي هو يختار الأصلح لهذه المهمة.

وما هي هذه الآية بيّنها بقوله:

﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

هذه هي المعجزة الأولى التي يقدّمها عَلَيْتَلِلاِ لصحة دعواه النبوة... إنها آية عظيمة لا يقدر عليها بشر اختصه الله بها ليبرهن من خلالها على نبوته...

يأخذ بعض الطين ثم يجسّد صورة طير، أي طير أراد ثم ينفخ فيه بنفسه الطاهرة وفمه الشريف، فإذا بالهيئة الميتة تدبّ فيها الحياة وتتحرك ثم تصبح طيراً يطير...

إنها حقيقة وقعت على يد عيسى نقلها القرآن، يعجز عنها البشر ولا يقدر عليها أحد...

وخوفاً من أن يقوم بعض الجهّال برفعه إلى منزلة الإلوهية جاءت كلمته ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ كما أنها تردُّ على من أراد تشويه سمعته والتشكيك في فعله، وإن ذلك كان على طريقة الشعوذة فيما لو نسبها إلى نفسه وادعى استقلاله بها دون الله...

﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾ وهذه هي الآية الثانية الدالة على نبوته المثبتة لرسالته...

إنها قضية شفائه للذي ولد أعمى ولم يبصر النور ولم ير الدنيا بعينه، وكذلك الآخر الذي تفشى فيه مرض البرص الذي يشوه صورة الإنسان ويحوّله إلى حالة تشمئز منها الناس، وهذا أيضاً بشفائه له آية أخرى ومعجزة من معاجزه...

وهذه طريقة يبتدىء بها ثم يترقى للأعلى والأشد تعقيداً حتى يصل إلى نهايتها بإحياء الموتى... إن إبراء الأكمه والأبرص ترميم لأمر متحقق موجود فيه حياة، وفيه حركة، وأمّا الموت فهو إتيان على الأساس ومع ذلك يكون للمسيح فيه يد طولى بإذن الله...

﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وهذه المعجزة الثالثة والآية الدالة على نبوته...

﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ إن إعادة الحياة لإنسان قد مات وفارق هذه الدنيا لم يعهد من أحد، ولم يدّعه أحد إلاّ نبي الله عيسى بن مريم حيث ادّعاه ثم قام بإحياء الموتى ولكن بإذن الله.

إنها آية عظيمة لا يقدر عليها إلاّ الله ولا تكون إلاّ بإذنه ولذا ينسبها عيسى إلى نفسه باعتبار أن إحيائها كان بدعائه ولكن ليدفع توهم استقلاله بها، ولئلا يُرفع إلى محل الآلهة عقّبها مؤكداً أنها ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾. . .

﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ وهذه هي المعجزة الرابعة والآية الدالة على صدق دعواه النبوة. . .

إن ما يخبر به من الغيب المحجوب الذي لا يعلمه إلاّ صاحبه.

إخباره عليه السلام لكل واحد من بني إسرائيل ماذا أكل نوعاً وشكلاً ومقداراً وقد يكون وقتاً، كما يخبرهم بما يدّخرون في بيوتهم من زيت وقمح وعسل مما هو مختص بهم ومن خصوصياتهم التي لا يعرفها إلاّ صاحبها. . .

إن الإخبار عن خصوصيات أولئك القوم وما يمارسون في بيوتهم الخاصة التي لم يطّلع عليها عيسى دليل صدقه فيما يدّعيه من النبوة. . .

إن الإخبار عن أمور شخصية مختصة بك لم يطّلع عليها غيرك من أهم الأمور الدالة على صدق من ادعى دعواه ويجب الإيمان به، وبما يقوله ويذهب إليه. . .

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. إن في ذلك الذي قدمته من آيات ومعجزات وبينات دلالة واضحة وعلامة ظاهرة لكم يا بني إسرائيل على صدق ما أدّعيه من النبوة.

وعليكم أن تؤمنوا بي وبما جئت به، إن كنتم مؤمنين بالآيات والمعجزات والبراهين التي تثبت الحقائق ويذعن لها العقلاء وأهل العدل والإنصاف. . .

قال تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

اللغة

﴿وَلِأُحِلَّ﴾: من حلّ: وأصل الحلّ. حلّ العقدة وفكها، ومنه استعير حلّ الشيء حِلاً، ومنه: أحلّ الله كذا: إذا أباحه ولم يمنع منه.

﴿حُرِّمَ﴾: الحرام: هو الممنوع من تناوله.

﴿بِآيَةٍ﴾: بعلامة وحجة ودليل.

﴿فَاعْبُدُوهُ﴾: أطيعوه، والعبودية: إظهار التذلل.

﴿صِرَاطٌ﴾: الصراط: الطريق.

﴿مُّسْتَقِيمٌ﴾: المستقيم من الطريق: هو الذي يكون على خط مستوٍ ليس به اعوجاج أو انحراف، وبه شُبه طريق المحق.

﴿أَحَسَّ﴾: أصل الإحساس: هو الإدراك بإحدى الحواس، وهنا يقصد به عرف وشعر.

﴿ٱلْكُفْرَ﴾: الجحود: وأصله الستر.

﴿أَنصَارِيٓ﴾: أعواني.

﴿ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾: أنصار عيسى كالصحابة المخلصين لرسول الله، وسموا حواريين لصفاء قلوبهم وطهارتهم، وقيل: لأنهم كانوا يلبسون البياض...

﴿ءَامَنَّا﴾: صدّقنا.

﴿ٱشْهَدْ﴾: شهد، والشهود والشهادة: الحضور مع المشاهدة أما بالبصر أو البصيرة.

﴿وَٱتَّبَعْنَا﴾: من تبعه: إذا اقتفى أثره، واتبعنا الرسول انقدنا إليه ومشينا خلفه.

﴿فَٱكْتُبْنَا﴾: فاجعلنا.

﴿مَكَرُوا۟﴾: المكر: صرف الغير عمّا يقصد ـ خيراً كان أم شراً ـ بحيلة.

التفسير

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ وجئتكم مصدّقاً لما تقدم عليّ من التوراة مؤمناً بها، لم أنقضها ولم أنسخها، وهذا أول ما جاء به، وفي هذا البيان تأليف للقلوب، ومن دواعي جذبها إليه وإلى دعوته وهو جزء من هدف رسالته..

﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ وهذا هو جزء آخر من وراء بعثته وأن ما حرمه الله عليكم في التوراة أو على لسان موسى مما انتهى أمده سيرفعه عنهم ويحله لهم.

﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾. جئتكم يا بني إسرائيل بحجة

واضحة من الله تثبت صحة ما أدعيه من السفارة من قبل الله فاتقوا الله ولا تكفروا بي وتتنكروا لهذه الحجج الدامغة وأطيعوني فيما أقول لكم، ففي ذلك مبدأ إيمانكم وأصل سعادتكم. . .

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ أنا وأنتم نتساوى في كون الله ربنا جميعاً، فليس منّا من يحمل امتيازاً يترفّع من خلاله على هذه الحقيقة، وهذا يتوجب عليكم أن تعبدوه فتخضعوا له وتسلّموا أموركم إليه، ولا تتكبروا عمّا أمركم به وأوجبه عليكم. . .

﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي ما تقدم من تقوى الله والاعتراف بربوبيته ووجوب عبادته، هذا هو الطريق المستقيم الذي لا عوج فيه ـ ولا خطر يعتريه. . . إنه طريق لا يضل سالكه ولا ينحرف راكبه وهو الموصل إلى السعادة في الدنيا والآخرة. . .

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾. ويسمع بنو إسرائيل نداء المسيح ويطرق قلوبهم ذلك الصوت الرحماني ولكنهم على عادتهم لم يتغيّروا عن الغدر والخيانة وحبك المؤامرات. . .

إنه شعر عليه السلام أنهم يكيدون له. . لم يتركوه ودعوته، بل كفروا به وأنكروا ما جاء به وصمموا على قتله والتخلص منه، وهنا صرخ فيهم يريد أن يعيّن الفئة المؤمنة به من بينهم ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ من يكون معي في الدعوة إلى الله ونصرة دينه والبذل في سبيله؟. .

إنها دعوة كريمة ستفرد ثلة طيبة تعقد العزم على الانتصار له! ولما جاء به من عند الله ومن هنا أجابه الخُلّص من أصحابه وممن آمنوا به ووقفوا على صدق ما جاء به وادّعاه. . . إنهم الحواريون. . .

﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾. استجاب له الحواريون وهم أصحابه المؤمنون به والمخلصون له، وقالوا: نحن أنصار دين الله وشريعته ونحن أهل الجهاد في سبيله. . اعتقدنا بالله رباً خالقاً مالكاً قادراً،

واشهد يا روح الله أنّا مستسلمون له ومسلّمون أمورنا إليه، ومنقادون لكل أمر يريده منّا. . .».

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾ من كتب إلهية ومنها ما أنزلته على نبيك عيسى.

﴿وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾ في كل ما جاء به، وأمرنا باتباعه، ومن هنا مع العقيدة يجب أن يكون سيراً عملياً، وحركة فعلية في خط الرسول واقتفاءً لأثره في كل الشؤون التي يرسمها في الحياة.

﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ بصدق رسولك وكل رسلك وما جاءوا به من عندك، وقيل: فاكتبنا مع الأنبياء الذين يشهدون على أممهم بأنهم قد بلغوا رسالات الله، وقيل غير ذلك: حتى بلغ تفسير هذه العبارة إلى سبعة أقوال: عند بعض المفسرين، وقد شوشوا عليّ فكري وطهره وسلامته لأنها تفسيرات كلها استحسانات، وإن كان لها شواهد قريبة، ولكنها لا تنطبق على المقام وسياقه. ومن أراد صدق ما أقول فليقرأ الآية ويسجّل في خاطره ما يتبادر إليه منها وما يستبق من معنى فكر إلى قلبه، ثم بعد ذلك يقرأ الأقوال ومستنداتها ليرى كيف يتدنس فكره منها ويسقط. . .

﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾. هذا إخبار عن اليهود الذين خططوا لقتل المسيح والانتهاء منه ومن دعوته. . . إنهم رسموا خططاً خبيثة من خلالها يوقعونه فيها، وبالتالي ينتهون منه، ولكن الله سبحانه العالم بما يخططون ويرسمون ويتآمرون أفشل خططهم وأبطل محاولاتهم. . . إنه سبحانه خير من يفشل هذه المؤامرة ويردّ كيدهم عن نبيه ورسوله عيسى عليه السلام.

ومن المهم جداً أن نعرف معنى المكر فيهون علينا تفسير الآية المباركة، ويرتفع الإشكال الذي مفاده كيف ينسب المكر إلى الله ـ حاشا لله ـ أن يوصف بذلك بالمعنى الشائع اليوم. . .

إن المكر هو التدبير الخفي لصرف الغير عمّا يقصده، ومن هنا نفهم أن مكر الله معناه إفشال الخطط التي رسمها اليهود لقتل عيسى، إنهم تآمروا من أجل

التخلص منه ووضعوا لذلك طريقة سرية بينهم، أرادوا تنفيذها ولكن الله أفشل تلك الخطة من جهة أنه سبحانه أخرجه من بينهم سالماً، وألقى شبهه على من خانه وباعه وبهذا بطل مكرهم وفشلت مؤامراتهم. . .

ثم إن المكر بالمعنى الذي نتداوله اليوم هو نتيجة عجز ووهن وضعف في الماكر، فالثعلب يعجز عن اصطياد فريسته فيحتال عليها ويمكر بها حتى تقع بين يديه، أمّا من كان قادراً على أخذ ما يريد وكيفما يريد ومتى يريد، فمثل هذا لا يحتاج إلى أعمال حيل ونصب مكائد واستعمال مكر. . .

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَٰتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾.

اللغة

﴿مُتَوَفِّيكَ﴾: أي مستوفيك كاملاً دون أن يمسك شيء، من وفي بالشيء وأوفى: إذا جاء به كاملاً، ووفي بعهده: إذا تمّمه ولم ينقضه.

﴿وَرَافِعُكَ﴾: من الرفع: وهو إعلاء الشيء عن مقره ويصدق في الأمور المادية، وفي الأمور المعنوية، ومن الأخير، ورفعنا لك ذكرك: أي نوه به..

﴿وَمُطَهِّرُكَ﴾: من الطهارة: وهي النظافة لغة.

﴿جَاعِلُ﴾: جعل لفظ عام في الأفعال كلها: وهو أعم من فعل وصنع.

﴿اتَّبَعُوكَ﴾: من تبعه: إذا سار خلفه واقتفى أثره.

﴿فَوْقَ﴾: من الجهات الست المقابل تحت.

﴿يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ﴾: يوم البعث والنشور للحساب.

﴿مَرْجِعُكُمْ﴾: رجوعكم: مصيركم ومآلكم.

﴿فَأَحْكُمُ﴾: حكم: إذا قضى وفصل.

﴿تَخْتَلِفُونَ﴾: اختلفوا: ضد اتفقوا وتوافقوا، والاختلاف: أن يأخذ كل فريق غير ما يأخذه الآخر.

﴿فَأُعَذِّبُهُمْ﴾: العذاب: هو الإيجاع الشديد، والأصل في التعذيب: حمل الإنسان أن يعْذِب: أي يجوع ويسهر.

﴿نَّصِرِينَ﴾: من نَصَرَ، والنَصْر والنُصرة: العون.

﴿الصَّالِحَاتِ﴾: الأعمال الخيّرة.

﴿فَيُوَفِّيهِمْ﴾: من وفى، يقال: وفى وأوفى به: إذا تمم العهد ولم ينقضه، وتوفية الشيء: بذله وافياً، واستيفاؤه: تناوله وافياً، وتوفون أجوركم: تعطونها كاملة تامة.

﴿أُجُورَهُمْ﴾: مفرده أجر، قال الراغب: الأجر والأُجرة: ما يعود من ثواب العمل دنيوياً كان أو أخروياً.

﴿نَتْلُوهُ﴾: من التلاوة: وهي القراءة.

﴿الْآيَاتِ﴾: جمع آية: وهي العلامة والدلالة.

﴿وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾: القرآن.

التفسير

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾. هذه من النعم الإلهية على عيسى بن مريم يذكّر الله بها نبيه تقوية لروحه الطاهرة وبياناً حقيقياً لحادثة تلاعبت بها أيدي المحرّفين والكَذَبة وأهل الافتراء من اليهود والنصارى، حينما ادعى الأولون ـ اليهود ـ قتله ووافقهم النصارى على ذلك بل جعلوا قتل المسيح

وصلبه من صلب العقيدة وأسسها وبدونها لا يكمل الإيمان. . .

الله سبحانه ينقل لنبيه محمد ﷺ ما قاله لعيسى عليه السلام وما أخبره به من مصير، ومآل: . . .

﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ وقد اختلفت كلمة المفسرين حتى وصلت أقوالهم إلى السبعة، لن نتعب فكر القارىء بذلك لأنها كلها مخالفة للظاهر أو لنص واضح أو لعقيدة تبناها المسلمون وذهبوا إليها. . . والأقرب إلى الحقيقة بل ما يتعين المصير إليه، وهو أن تفسير كلمة ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ بمعنى آخذك إليَّ دون أن يمسوك بأذى فضلاً عن أن يقتلوك، فكأن الله يستوفيه فيأخذه وافياً كاملاً لأن كلمة «وفى» تعني الكمال والتمام. . .

يقال: وفى بعهده وأوفى إذا تمّم العهد ولم ينقضه، حفظه. . وتوفية الشيء: بذله وافياً، واستيفاؤه: تناوله وافياً.

وقد عبّر عن الموت والنوم بالتوفي. . .

فإذا كان الأصل في الكلمة هو المعنى الأول وهو أخذه وافياً، فإنا نذهب إليه ونؤكد عليه لأنه الأصل في ذلك وخصوصاً أنه مقرون بقوله: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ لرفع شبهة القتل التي يمكن أن يذهب إليها بعضهم من لفظة ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾. يضاف إلى ذلك أن القرآن يفسر بعضه بعضاً، وعليه لا بد من حمل الآية على هذا المعنى بما ورد في آية أخرى صريحة وواضحة لا لبس فيها على أنه لم يقتل يقيناً كما ذهب إليه اليهود والنصارى كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾[1]. فهذه الآية تفسر الآية المتقدمة وتكشف حقيقتها وترفع كل لبس فيها، وفي ذلك عبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. يضاف أخيراً إلى أن الواو في قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ﴾

---

(١) النساء/ ١٥٧ ـ ١٥٨.

كما هو معروف عند النحويين أنها لا تفيد الترتيب بل هي لمجرد الجمع وهي على حد جاءني زيد وعمرو، الذي يفهم منه مجيئهما أما أنه من جاء أولاً فهذا يعينه القرآن والنصوص...

يبقى أن نوضح معنى ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ مع أننا نؤمن أن الله ليس له مكان محدود وهو في كل مكان.

نقول: إن معنى ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ رفع تشريف وتكريم للمسيح لغاية رفعه من الأرض التي فيها الفسقة والكفرة وأهل الفجور، وقد وردت الروايات أن الله رفعه إلى السماء إلى مكان ملائكته حتى يظهر الإمام المهدي المنتظر فيعود معه ويصلي خلفه...

﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي مخلصك من قذارة الذين كفروا ومن أفعالهم الفاسدة الفاسقة، ومنها ما أرادوه من قتلك، فتطهيره هو رفعه حتى لا تطاله أيديهم النجسة بالقتل، أو لأنهم هم أقذار فرفعه له تطهيره من مجاورتهم والقرب منهم.

﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ هذا إخبار إلهي عن مستقبل كان في طي العدم، أخبر به الله عن أتباع عيسى عليه السلام والمؤمنين به، وكيف أن الله بمنّه يجعلهم ظاهرين على من كفر به من اليهود وأعلى منهم منزلة وأقوى شوكة وأشد قوّة وهذا ما نشاهده اليوم وقبل اليوم منذ أن أصبح للمسيح أتباع بعد أن رفعه الله إليه وسيبقى كما أخبر الله إلى يوم القيامة يوم يبعث الله الناس للحساب... وقيل إن الذين اتبعوه هم المسلمون الذين آمنوا به كنبي وأما النصارى فليس لهم علاقة فيه لخروجهم عن تعاليمه وجعله إلهاً، تعالى الله عن ذلك...

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ مصيركم جميعاً من آمن بعيسى واتبعه، ومن كفر به وأنكره جميعهم سيرجعون إلى الله ويردون إليه ويومها يوقف الجميع للحساب وتجزى كل نفس بما كسبت وهو الحكم العدل

يفصل بين الجميع فيما وقع بينهم من خلاف أدى إلى كفر فرقة وإيمان أخرى. . .

إن مواقع الاختلاف لن تبق معلقة ولن يبق كل فريق وراء رأيه متمسك به يرفض التنازل عنه لأن الله سيفصل في هذا الأمر وستتضح الحقيقة وتنكشف الأمور على وجهها الصحيح ويستبين المؤمن من الكافر والمحق من المبطل والذي هو مع الله ممن هو مع الشيطان. . .

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٥٦﴾.

كأن هذا تفصيل لحكم الله ﴿فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾ وقد انقسموا أمام حكم الله إلى قسمين، ولكل قسم جزاؤه المعدّ له.

فأمّا الذين كفروا بعيسى ورسالته وبما جاء به فالله سبحانه يعذبهم عذاباً شديداً، ومهما ذهب بك التصور لذلك العذاب يبقى في قصور عن الإحاطة بمراد الله من كلامه ـ عذاباً شديداً ـ.

وهذا العذاب لا يقتصر على الآخرة وما فيها من شدائد الآلام بل أيضاً سيطالهم في الدنيا، وأن ما وقع لليهود من المذابح والعذابات فهو قليل مما استحقوه وما جنته أيديهم «وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله».

ثم نفى أن يكون لهم من ينصرهم أو يعينهم على رفع هذا العذاب إشارة إلى استحقاقهم له ووقوعه بهم وبدون رافع له أو شفيع يخفف وقعه عليهم. . .

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٧﴾.

هذا هو القسم الثاني وهو القسم الذي حكم الله عليه بالرحمة إنهم الذين آمنوا بعيسى وبرسالته وبما جاء به من عند الله. . . قبلوا أطروحته السماوية وآمنوا بها

عن يقين، وبما أن هذا الإيمان له كاشف ودليل فدليله أنهم «عملوا الصالحات» قاموا بكل التكاليف المطلوبة منهم وتركوا كل ما نُهوا عنه.

هؤلاء يتولى الله إعطاءهم أجرهم وثوابهم كاملاً وافياً تاماً لا ينقصهم منه شيء...

ثم عقب ذلك بقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إشارة منه سبحانه إلى أنه إذا كان لا يحب الظالمين فبالأولى أنه لا يظلم أحداً في حكمه بل كل واحدٍ وما يستحقه...

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾ ذلك إشارة إلى ما قصّه الله على النبي ﷺ من أخبار عيسى وأطواره، وما مرّ به وعليه بل ما قصّه على النبي ﷺ من قصص زكريا ويحيى ومريم... تلك القراءة والبيان التي قصّها الله على رسوله هي من الدلالات العظيمة التي تثبت نبوتك فيها يا محمد! حيث لا علم لك بها ولم تكن قارئاً لها أو تعرف القراءة فهي تعليم من الله علمك إياها لتكون حجة لك ودليلاً على نبوتك...

﴿وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ هو القرآن معطوف على الآيات، إنها آيات عظيمة وقرآن حكيم، ووصف بالحكيم لأنه ينطق بالحكمة أو الحكيم: أي المحكم المتقن الذي لا خلل فيه ولا اضطراب، إنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾.

اللغة

﴿كَمَثَلِ﴾: شبه وصفة.

﴿ٱلْمُمْتَرِينَ﴾: الامتراء: الشك، ومثله المرية.

﴿حَآجَّكَ﴾: جادلك وخاصمك.

﴿تَعَالَوْا۟﴾: هلموا، وأصله من العلو: وهو الارتفاع.

﴿نَدْعُ﴾: من الدعاء: وهو النداء.

﴿أَبْنَآءَنَا﴾: أولادنا.

﴿وَنِسَآءَنَا﴾: النساء والنسوان والنسوة جمع المرأة: وهي الأنثى المقابل للذكر.

﴿نَبْتَهِلْ﴾: نجتهد في الدعاء، وقيل: إن أصل البهلة بالضم والفتح: اللعنة، والدعاء بها ثم شاعت في مطلق الدعاء.

﴿لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ﴾: اللعن: هو الرد والإبعاد على سبيل السخط، ولعنة الله على فلان: لها وجهان، في الآخرة عقوبة وفي الدنيا انقطاع من قبول رحمته وتوفيقه.

التفسير

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾.

هذه الآية جاءت رداً مفحماً لنصارى نجران الذين حملوا أنفسهم من بلاد اليمن عندما سمعوا بظهور النبي ﷺ وانتصاراته المتتالية، فخافوا على أنفسهم وخصوصاً أن الناس أخذت تدخل في دين الله أفواجاً، فخرجوا من بلادهم يخطبون وِدّ النبي ﷺ يريدون بذلك أن يحفظوا وجودهم. . .

دخلوا مسجد النبي ﷺ وهو المركز الأصيل للدعوة حيث كانت منه تنطلق الأوامر وتتم الاجتماعات، وهو مركز العمليات في كل الميادين.

كان ساداتهم ثلاثة: «الأهتم» و«العاقب» و«السيد» ومن سماحة الإسلام وعظمة نبيه وتسامحه أنه لمّا حضرتهم الصلاة أقبلوا يضربون بالناقوس وراحوا يصلون، فانزعج أصحاب النبي ﷺ وآذاهم ذلك وقالوا للنبي ﷺ هذا في مسجدك يا رسول الله؟. . .

فهدّأ النبي ﷺ روعهم ولما انتهوا التقوا بالنبي وقالوا له: إلى ما تدعونا؟

فقال صلوات الله عليه: إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وأن عيسى عبد مخلوق يأكل ويشرب ويحدِّث فقالوا: فمن أبوه؟ «يريدون أنه الله فيكون ابناً له. . .».

فنزلت هذه الآية الكريمة كحجة قاهرة ملزمة لا فكاك منها. . .

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ﴾ قدرة الله في عيسى الذي خلقه من غير أب كقدرته على خلق آدم أبو البشر من غير أب ولا أم. . . الله سبحانه وتعالى

قادر مطلق لا تحديد لقدرته تسقط أمام هذه القدرة كل الأسباب والعلل، فإذا كان عيسى قد ولد من غير أب فآدم ولد من غير أم ولا أب فكلاهما في ولادتهما على خلاف ما اعتاده الناس، وإذا كان كما تقولون أن عيسى يستحق نبوة الله فآدم أحق وأولى بهذه المنزلة لأنه أشد إعجازاً وأعقد في ولادته. . .

فكما أن الله خلق آدم من تراب ثم قال له كن ﴿بَشَرًا﴾ فكان كما أراد وخرج إلى عالم الحياة حياً متحركاً فكذلك بكلمة ﴿كُن﴾ المعبِّرة عن إرادة الله كان عيسى ولا فرق بينهما أمام كلمة ﴿كُن﴾ عندما يريد الله سبحانه مضمونها من أي شيء وفي أي شيء تعلقت. . .

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾. هذه الآية تأتي بعد ذلك البيان الواضح والحجة المفحمة لتؤكد مضمون ما سبق وتثبت الموقف بشكل صارم وحاد. .

وهي وإن كانت موجهة إلى النبي فيراد بها غيره من باب «إياكِ أعني واسمعي يا جارة» لأن الخطاب إذا كان موجهاً إلى النبي وبهذه الصيغة القوية مع عظيم منزلته وقوة عقيدته فغيره أولى بالثبات والصمود وأولى أن يكون قوياً في عقيدته وما يذهب إليه. . .

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ ما قصصته عليك هو الحق من ربك وعين الصدق الذي يجب الإيمان به والذهاب إليه فلا يختلج الشك في نفسك لأقوالهم الباطلة ولا تتحرك الشكوك فيها من أجل مزاعمهم التي لا تصمد أمام الحقيقة أو تقف في وجه الحجة والبرهان. . .

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾.

هذه الآية تسمى آية المباهلة ويعرفها الناس بهذا الاسم، لأنها ذُكرت فيها قصة مباهلة النبي ﷺ لنصارى (نجران)... توقّف حسّ الاستقبال عند النصارى وتعطل التفكير أمام الموروثات التي أخذوها عن آبائهم وأجدادهم الذين

غيّروا العقيدة وبدّلوها وأدخلوا من أشكال الوثنية فيها ما شاءوا أو اضطروا إليه لظروفهم التي مرُّوا بها..

لم يفقه نصارى (نجران) مقولة النبي ﷺ ولم يفكّروا فيها وفي كل ما قدّمه إليهم من أدلة وبراهين تثبت صحة نبوته من جهة وزيف ما يتمسكون به من عقائد واهية من جهة أخرى، كل ذلك ذهب أدراج الرياح وضاع مع الهواء في الفضاء...

إنهم قوم نشأوا على عقيدة معيّنة، والعقيدة تعيش في القلب، وما دخل في القلب يصعب انتزاعه منه حتى لو عرف صاحبه خطأه وخطأ منشأه إلاّ من عصم الله ووفقه للهدي والإيمان...

توقّفت لغة الحوار وتعطّلت الكلمة وانسدت كل المنافذ التي يمكن للنور من خلالها أن يدخل إلى القلوب المظلمة، وعندها ليكن استعمال آخر ما في الكنانة من سهام، فهذا وقت الحاجة إليها... لتكن الجولة الأخيرة التي بها يثبت الحق وإن كان مرّاً وصعباً...

إذا توقف إظهار الحقيقة على الإطاحة بمن أخفاها وسترها ـ عمداً وعن علم ـ فليكن ذلك، فهي الحل وإليها المرجع الاضطراري في مثل تلك الظروف... ومن هنا عرض عليهم النبي ﷺ المباهلة وهي أن يؤلف كل منهما جبهة مستقلة تقف وراء معتقداتها وما تذهب إليه في شأن عيسى ونبوة محمد ثم يتوجّه كل منهما إلى الله في الدعاء على الكاذب منهما...

إنها ساحة صراع، ولكن بدون سلاح إلاّ سلاح الدعاء... إنها مهمة سهلة لمن كان الحق معه ومن يعتقد صواب رأيه وسداد توجهه.. إنها معركة يجب أن يكون كل منهما على أتم الاستعداد لها... لا تحتاج إلى حشد جند وإلى قرقعة سلاح... كما أنه لا يكون فيها فر أو كرّ أو دماء أو أشلاء...

إنها أيسر ما يكون وأسهل ما يكون... أنتم أيها النصارى تدّعون الحق فيما تذهبون إليه والنبي محمد ﷺ وأصحابه يدّعون الحق فيما يذهبون إليه فلتكن المعركة وليكن سلاحها الدعاء...

عرض النبي على النصارى هذا العرض وهو عرض مغرٍ جداً، فإن النبي لم يستعمل معهم القوة والعنف ولم يستخدم وسائل الضغط والإكراه بل فسح لهم في المجال سماحةً منه أن يصلّوا في مسجده ويضربوا الناقوس أمام أعين المسلمين دون أن يمنعهم عن ذلك أو يسيء إليهم، وهو اليوم بعد أن امتنعوا عن قبول الحق والانصياع إليه لا بدّ وأن يستعمل معهم الأسلوب الناجع فكانت المباهلة كأسلوب أخير يلجأ إليه...

ويسمع النصارى هذا العرض من النبي ﷺ فيقبلون به ويوافقون عليه ثم ضربوا بينهم ثلاثة أيام تكون بعدها المباهلة...

عاد النصارى إلى حيث هم والتقوا مع أنفسهم في جلسة مصارحة ومحاسبة دقيقة مع يهود بني (قينقاع) و(النضير) و(قريضة) فاستشاروهم، فأشاروا عليهم أن يصالحوه ولا يلاعنوه، وقالوا: هو النبي نجده في التوراة فلا تلاعنوه وقال السيد للعاقب «قد والله علمتم أن الرجل نبي مرسل ولئن لاعنتموه إنه الاستئصال وما لاعن قوم نبياً قط فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم، فإن أنتم لن تتبعوه وأبيتم إلا إلف دينكم فوادعوه وارجعوا إلى بلادكم...

ثم التقى رأيهم على أن يخرجوا للمباهلة فينظرون بمن يخرج، فإن خرج بالغرباء والبعيدين عنه باهلوه، وإن خرج بأهله وأعزّ الناس عليه عرفوا صدقه وامتنعوا عن مباهلته...

في اليوم المعين خرج النبي ﷺ ومعه الإمام علي عليه السلام وأمامهما الحسن والحسين وخلفهما فاطمة الزهراء...

ما إن اقترب النبي ومن معه من الجماعة حتى سألوا من يكون هؤلاء؟ فقيل لهم: إن هذا علي بن أبي طالب صهره وابن عمه وأعزّ الرجال عليه، وأما هذه فهي ابنته فاطمة وأعزّ النساء عليه، وأمّا هذان فهما الحسن والحسين ابنا ابنته وأحب الخلق إليه...

لم يكد يصل العلم إليهم بالخارجين للمباهلة حتى التفت أسقف (نجران) إلى

قومه وبصراحة واضحة، قال لهم: يا معشر النصارى، إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله تعالى أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله، فلا تباهلوا وتهلكوا، وصالحوه على أن يقدّموا له ألفي حلّة، وثلاثاً وثلاثين درعاً، وغيرهما من الإبل والأفراس في كل عام، وعادوا إلى بلدهم يقبلون دفع الجزية حفظاً لأنفسهم من الاستئصال والأخذ الإلهي لهم. . .

هكذا تمت المباهلة كما ينقلها أهل السّير والتاريخ، وقد اتفق الجميع على أن النبي لم يخرج معه للمباهلة إلاّ الإمام علي وفاطمة والحسنين وعليه يتعيّن قطعاً إلاّ من كان في قلبه مرض، الأمور التالية. . .

أولاً: إن المراد ﴿أَنفُسَنَا﴾ هو الإمام علي عليه السلام وعليه يجب أن يأخذ الإمام كل خصائص النبي ما عدا النبوة ويصدّق هذا المعنى ويوافقه ما ورد في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ من قوله لعلي: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبي بعدي. . .».

وهذا ما نقله الرازي في تفسيره الكبير عن رجل من (الرّي) اسمه محمود بن الحسن الحمصي وكان معلم الاثني عشرية وكان يزعم أن علياً رضي الله عنه أفضل من جميع الأنبياء سوى محمد ﷺ قال: والذي يدل عليه قوله: ﴿وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ وليس المراد بقوله: ﴿وَأَنفُسَنَا﴾ نفس النبي ﷺ لأن الإنسان لا يدعو نفسه بل المراد به غيره، وأجمعوا على أن ذلك الغير كان علي بن أبي طالب عليه السلام فدلت الآية على أن نفس علي عليه السلام هي نفس محمد ﷺ ولا يمكن أن يكون المراد منه أن هذه النفس هي عين تلك النفس، فالمراد أن هذه النفس مثل تلك النفس، وذلك يقتضي الاستواء في جميع الوجوه ترك العمل بهذا العموم في حق النبوة وفي حق الفضل بقيام الدلائل على أن محمداً ﷺ كان نبياً، وما كان علي كذلك، ولانعقاد الإجماع على أن محمداً ﷺ كان أفضل من علي رضي الله عنه فيبقى فيما وراءه معمولاً به، ثم إن الإجماع دلّ على أن محمداً ﷺ كان أفضل من سائر الأنبياء عليهم السلام فيلزم أن يكون علي أفضل من سائر الأنبياء، فهذا وجه الاستدلال بظاهر هذه الآية. . .

ثم قال: ويؤيد الاستدلال بهذه الآية الحديث المقبول عند الموافق والمخالف وهو قوله ﷺ: «من أراد أن يرى آدم في علمه ونوحاً في طاعته وإبراهيم في خلته وموسى في هيبته وعيسى في صفوته؟! فلينظر إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه» فالحديث دل على أنه اجتمع فيه ما كان متفرقاً فيهم، وذلك يدل على أن علياً رضي الله عنه أفضل من جميع الأنبياء سوى محمد ﷺ...

ثم إن الرازي لم يقبل أن يكون الإمام أفضل من جميع الأنبياء بقوله: نصّاً: «أنه كما انعقد الإجماع بين المسلمين على أن محمداً ﷺ أفضل من علي فكذلك انعقد الإجماع بينهم قبل ظهور هذا الإنسان على أن النبي أفضل ممن ليس بنبي، وأجمعوا على أن علياً رضي الله عنه ما كان نبياً، فلزم القطع بأن ظاهر الآية كما أنه مخصوص في حق محمد ﷺ فكذلك مخصوص في حق سائر الأنبياء ﷺ.. انتهى كلام الرازي...

ونقول: إن ما ادّعاه من الإجماع على أن كل نبي أفضل من كل واحد غير نبي ـ هذا الإجماع ليس بصحيح وإلاّ لما وقع فيه الخلاف والشيعة كلهم يذهبون إلى أفضلية علي على جميع الخلق ما عدا النبي محمد ﷺ... فيمكن أن تُصحّح مقولة الرازي بصيغة أخرى مفادها «كل نبي أفضل من كل أحد غير نبي إلاّ الإمام علي ﷺ...

ثانياً: قام الإجماع على أن المراد بقوله: ﴿أَبْنَآءَنَا﴾ هم الحسن والحسين حيث لم يخرج النبي ﷺ بغيرهما، وبهذا يصح عليهما إطلاق اسم ابني رسول الله ويصدّق ذلك ما ورد على لسان النبي ﷺ من قوله: «ابناي هذان إمامان قاما أو قعدا».

وبهذه الآية كان يستدل أئمة أهل البيت ﷺ ويُسكتون من أراد التطاول عليهم، ومنها ما وقع للإمام موسى بن جعفر ﷺ مع هارون الرشيد في محاورة طويلة منها:

قال هارون: لمَ جوَّزتم للعامة والخاصة أن ينسبوكم إلى رسول الله ﷺ

ويقولوا لكم: يا بني رسول الله! وأنتم بنو علي وإنما ينسب المرء إلى أبيه وفاطمة إنما هي وعاء والنبي جدكم من قبل أمكم؟

فقال الإمام عليه السلام: لو أن النبي صلى الله عليه وسلم نُشر فخطب منك كريمتك هل كنت تجيبه؟

قال: سبحان الله ولِمَ لا أجيبه؟ بل أفتخر على العرب والعجم وقريش بذلك!

فقال الإمام عليه السلام: لكنه لا يخطب مني ولا أزوجه.

فقال هارون: ولِمَ.

فقال الإمام عليه السلام: لأنه ولدني ولم يلدك.

فقال هارون: أحسنت يا موسى!.

ثم قال: كيف قلتم: إنكم ذرية النبي والنبي لم يعقّب وإنما العقب للذكر لا للأنثى وأنتم ولد ابنته؟

فقال الإمام عليه السلام: أسألك بحق القرابة إلاّ أعفيتني.

قال هارون: لا أو تخبرني عن حجتكم فيه يا ولد «علي» وأنت يا موسى يعسوبهم وإمام زمانهم ولست أعفيك.

قال الإمام عليه السلام: تأذن لي في الجواب؟

قال هارون: هات.

قال الإمام علي عليه السلام: قال الله تعالى في كتابه: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾[(١)]. مَنْ أبو عيسى يا أمير المؤمنين!؟

قال هارون: ليس لعيسى أب.

(١) الأنعام/ ٨٤ ـ ٨٥.

قال الإمام عليه السلام: إنما ألحقه الله تعالى بذراري الأنبياء في طريق مريم وكذلك ألحقنا الله بذراري النبي صلى الله عليه وآله وسلم من قبل أمّنا فاطمة.

وطلب هارون من الإمام أن يزيد في حجته وبرهانه فأجابه إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾... الآية.

ثالثاً: إن هذه المباهلة تثبت صحة ما ادّعاه النبي من أنه مبعوث من قبل الله تعالى، لأن إحجام النصارى وارتدادهم عنها بعد العزم عليها، يكشف عن أنهم أيقنوا بصدقه وبصدق ما جاء به من عند الله، وأنه النبي المبعوث الذي بشّرت به الكتب المتقدمة، وكان عندهم أخباره وعلاماته وما يدل على صحة ما جاء به، وإلاّ فما أيسر أن يباهلوه، وبذلك يثبتون فشل ما يدّعيه وعدم صحته ولا يرجعون مهزومين مكبلين بالجزية وما فيها من إذلالٍ لهم وعيبٌ عليهم.

رابعاً: إن مجيء النبي صلى الله عليه وآله وسلم بهؤلاء الكرام البررة يثبت أن الأمة كلها اخُتصرت فيهم، وأنهم زبدتها وخيرتها وقوامها يمثلونها وينوبون مقامها في أصعب الأمور وأشقها، وهم بالتالي قادتها وأئمتها وولاة الأمر فيها..

ونعود بشكل سريع إلى الآية حيث تقول:

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ﴾ خاصمك وجادلك بعيسى عليه السلام.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ الإلهي الذي أوحى الله به إليك وعلمك إيّاه.

﴿فَقُلْ﴾ يا محمدا لهؤلاء المجادلين ﴿تَعَالَوْا﴾ هلموا إليّ ﴿نَدْعُ﴾ نحن ﴿أَبْنَاءَنَا﴾ الحسن والحسين وأنتم تدعون ﴿أَبْنَاءَكُمْ﴾ ونحن ندعوا ﴿وَنِسَاءَنَا﴾ فاطمة الزهراء وأنتم تدعون ﴿نِسَاءَكُمْ﴾ ونحن ندعوا ﴿أَنْفُسَنَا﴾ علي وأنتم تدعون ﴿وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ أي يجتهد كل منا في الدعاء على الكاذب في دعواه والمفتري على الله.

وعندها يصيب الله الكاذب منا بعذاب عظيم، يستأصل شأفته وينهي وجوده، ويبقى صاحب الحق الذي يحمل الصدق والإيمان...

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿ٱلْقَصَصُ﴾: مصدر قصّ: وأصله تتبع الأثر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ وقصّ عليه الخبر: حدّثه به.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: من عزّ، والعزيز: هو الذي يَقهر ولا يُقْهَر، ومن قولهم: أرض عزاز: إذا كانت صلبة.

﴿بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾: الفساد: خروج الشيء عن الاعتدال، ويضاده الصلاح، ويستعمل ذلك في النفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة كما هو الحال في المقام.

التفسير

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾، ما قصصناه عليك وأخبرناك به في أمر «عيسى» عليه السلام وإنه إنسان خلقه الله من غير أب وبكلمة ﴿كن﴾ فكان هو الحق الصادق المطابق للواقع الذي لا خلل فيه وليس ما ادعاه النصارى فيه، أو ذهبوا إليه من تأليهِ له أو كونه إبناً لله ـ تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ حصر للألوهية بالله وحده، وأنه لا يوجد غير الله، فهو ردّ على النصارى الذين ادعوا التثليث أو ردّ عليهم حيث ادعوا ألوهية «عيسى» فنفى الله عنه الألوهية وأثبتها لله وحده.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ إن الله لهو وحده الغالب القاهر القادر مطلقاً الحكيم في صنعه وأفعاله الموقع للأمور في مواضعها وعلى أصولها.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾.

وإذا اتضحت الحجة واكتملت البراهين ولم يبق إلاّ التعصب والعناد.. إذا أداروا ظهورهم للحق والعدل وأعرضوا عن كل ما مرّ من الأدلة، فلا يبقى أمامهم إلاّ الجزاء العادل وهو حسابهم على مقدار علم الله بهم وهو عليم بانحرافهم وضلالهم فسيحاسبهم ويقتصّ من المفسدين..

وجيء بدل «عليم بهم» بقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فأظهر الاسم وأبدله بالمفسدين ليدلل سبحانه على أن الإعراض عن البيّنات والأدلة إفساد للدين وإفساد للحياة وأن هؤلاء من المفسدين...

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

اللغة

﴿أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: اليهود والنصارى.

﴿تَعَالَوْا۟﴾: هلموا وأقبلوا.

﴿كَلِمَةٍ﴾: تطلق الكلمة على الكلام الكثير، كما تقول: فلان ألقى كلمة.

﴿سَوَآءٍ﴾: السواء: العدل والنَّصف، وقيل: أن سواء مصدر بمعنى مستوية: أي لا يُختلف فيها.

﴿نُشْرِكَ﴾: الشرك: أن يجعل مع الله إلهاً آخر، وهو أعظم الشركين، والآخر مراعاة غير الله معه في بعض الأمور كالرياء والنفاق.

﴿لَا يَتَّخِذَ﴾: لا يجعل.

﴿أَرْبَابًا﴾: جمع رب: وهو السيد المربي المطاع فيما أمر.

﴿تَوَلَّوْا۟﴾: أعرضوا.

﴿أَشْهَدُوا﴾: اعترفوا وأقرّوا أو اعلموا.

﴿مُسْلِمُونَ﴾: منقادون مخلصون لله.

التفسير

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ فتح النبيﷺ باب الحوار بينه وبين أهل الكتاب ـ يهود ونصارى ـ وألزمهم الحجة الواضحة فلم يقبلوا بها، وأصروا على مواقفهم بعناد وقوة، فاضطر إلى مباهلة النصارى ليحسم الأمر ويقضي الله على الفئة المتعصبة التي ترى الحق ولا تقبل به، فرفضوا المباهلة خوفاً على أنفسهم ومع ذلك قبلوا أحكام الذمة ورضوا أن يدفعوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون. . .

وهنا عاد إلى نوع من تطييب الخاطر، فلعل بقايا الخير تخرج من نفوسهم، ويكون هناك نقاط التقاء يجتمعون بها مع النبيﷺ في دعوته. .

﴿قُلْ﴾ يا محمدا لليهود والنصارى ـ وعبّر سبحانه عنهم: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ كصفة كريمة مؤهلين من خلالها لحمل كتاب الله وكلامه. .

﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ هلمّوا إلى كلمة فيها عدل وإنصاف تجمعنا وإياكم ونلتقي عليها وتكون مؤشراً على وحدتنا جميعاً.

إنها كلمة بمضمونها تقتل التعصب والتفرق والاختلاف ولا تصبح المخالفة فاقعة نافرة. .

ثم فسّر سبحانه الكلمة المطلوبة التي يجب أن يلتقي عليها أهل الكتاب مع المسلمين إنها كلمة ذات ثلاثة أسس، وهي ركائز هذا اللقاء الوحدوي. . .

الأول: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ وهذا محور كل عقيدة دينية صحيحة. . إنها عملية إعادة ربط لهذا الإنسان بالله وحده والتخلي عن عبادة غيره مهما كان ذلك الغير من السموّ والرفعة والمكانة.

وهذه الدعوة إلى عبادة الله تُصحّح المسار وترفع العثار وتأخذ بيد الإنسان إلى الكمال، ولا تدعه يتخبط في المتاهات أو يضيع في الأباطيل والأوهام..

والإنسان إذا رفض عبادة غير الله استدعى ذلك منه أن يتوجه بالعبادة إلى الله، ومن هنا ينطلق في تحديد الطريق إلى عبادة الله التي توصله إلى رضاه، وهذه أمنية غالية تحقق الكمال النسبي للإنسان.

الثاني: ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ أي نوحده في ذاته وفي صفاته فلا نشرك معه أحداً من خلقه فليس هو ثالث ثلاثة ولا ثاني اثنين ولا غير ذلك.

كما هو مفاد قوله تعالى: ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ حيث إنها نكرة في سياق النفي وتفيد نفي العموم وهذا تأكيد لما تحمله الآية السابقة.

الثالث: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وهذا نهي عن اتخاذ الأرباب من دون الله، وهو رد على اليهود والنصارى الذين اتخذوا «عيسى» و«العزير» إلٰهين.

كما أن فيه نَهي عن أخذ الحلال والحرام بحسب مشتهيات الأحبار والرهبان، الذين راحوا يعطون لأنفسهم هذا الحق فيحللون ويحرمون بحسب المصالح الوقتية التي تخدم مصالحهم دون أن يكون لهذا التحريم أو التحليل رصيد إلهي أو إذن من الله، ولذا عندما نزل قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

قال عدي بن حاتم: ما كنا نعبدهم يا رسول الله!

قال ﷺ: أليسوا كانوا يحلّون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم؟

فقال: نعم.

قال ﷺ: هو ذاك، أي عبادة لهم...

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾. فإن أعرضوا ولم يؤمنوا بما عرضتم عليهم وأصرّوا على مواقفهم في «عيسى» من الشرك والعبادة وغير ذلك،

فخذوا إقراراً واعترافاً منهم بأنكم مسلمون على هذه العقيدة الإلهية التوحيدية التي ترفض أن تأخذ غير الله رباً ولا تشرك به شيئاً أو تتوجه إلى غيره بالعبادة . .

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿تُحَآجُّونَ﴾: تخاصمون وتجادلون.

﴿حَنِيفٗا﴾: الحنف: ميل عن الضلال إلى الاستقامة، والحنيف: هو المائل إلى ذلك، وجمعه حنفاء، وتحنّف تحرّى طريق الاستقامة.

﴿أَوۡلَى﴾: أحق.

﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾: من اتبع: إذا اقتفى أثره ومشى خلفه.

﴿وَلِيُّ﴾: الولي: هو الناصر.

﴿وَدَّت﴾: أحبت وتمنّت.

﴿طَآئِفَةٌ﴾: جماعة.

﴿يُضِلُّونَكُمْ﴾: من الضلال: وهو العدول عن طريق الاستقامة.

التفسير

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

إبراهيم الخليل عنوان كبير وأطروحة عظيمة في التوحيد والإيمان وصلابة الموقف والجهاد. وهو شيخ الأنبياء وإليه يرجع الفضل في حمل لواء التوحيد وتجذيره.. إنه عنوان للإخلاص وحمل رسالة الله والتضحية في سبيل الله بنفسه وولده...

ومن هنا تجاذبته كل الأديان وأحبَّت الانتساب إليه وحوّلته لصالحها تريد به الانتصار ومن خلاله الفخر والسؤدد والتقدم على غيرها... إنه شعلة تجذب إليها الرُّواد والمسافرين إلى عالم الإيمان والارتباط بالله الحي القيُّوم.

وهذه واحدة مما اختلف فيها أهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ ثم راح كل فريق يدّعيها ويدّعي أنه منها، وإليها ينتهي بعد أن يبتدىء فيها...

اختلف اليهود والنصارى في «إبراهيم» عليه السلام وادعت كل طائفة أن «إبراهيم» منها، فاليهود ادعوا أن «إبراهيم» منها يحمل عقيدتها وتعاليمها وفكرها، والنصارى ادعوا أنه منها ويحمل عقيدتها وتعاليمها وفكرها..

تختلف كلتا الطائفتين في «إبراهيم». وإذا كانت في بعض الصور يمكن أن يكون الحق مع أحد المتخاصمين، ففي هذه الصورة الخطأ واقع من كلتا الطائفتين.. لقد جانب الصواب كُلاً من اليهود والنصارى ووقع في الخطأ كل منهما...

إن التجاذب بينهما وادعاءهما «إبراهيم» خطأ واضح فاضح، ولذا عندما يرتفع

الأمر إلى النبيﷺ ليحكم بينهما في هذه الدعوى تنزل الآيات القرآنية لتكشف الحقيقة إلى النبيﷺ ويحكيها النبي مخاطباً لهما معاً كاشفاً زيف هذا الإدّعاء.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ من اليهود والنصارى.

﴿لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ لما تجادلون وتخاصمون في إبراهيم، ويدّعيه كل منكما وهو بريءٌ منكما ولا صلة له بكما...

وكيف يدّعيه اليهود ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ﴾ التي بها اكتسبت اليهودية قيمتها كدين وصح الانتساب إليها كاسم ظاهر معروف...

وكذلك كيف يدّعيه النصارى. «و» ما أنزل «الإنجيل» الذي به اكتسبت النصرانية قيمتها وصح الانتساب إليها كاسم ظاهر معروف.. كيف يدّعيانه والحال إنهما ما أنزلا...

﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾ فهو متقدّم عليهما وسابق لهما فكيف يدّعيه اليهود، وكذلك كيف يدّعيه النصارى؟!...

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ إزدراء بهم تحقيراً لمقولتهم، وأن أصحاب العقول يفكرون في هذا الأمر ويخرجون ببطلان ما ذهب إليه اليهود والنصارى وكأن كلا الفريقين لا عقل له كي يفكر في مقولته الباطلة...

إن كلاً من اليهود والنصارى يريد أن يُثبت صحة ما هو عليه بمتابعة العظماء لدينه حتى قبل وجود هذا الدين وقبل تنزيله من قبل الله ووجوده كدين أوحى به الله إلى «موسى» أو «عيسى» وهذا واضح الفساد بيّن البطلان...

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ﴾.

ها أنتم يا معشر اليهود والنصارى بأعينكم وذواتكم تخاصمون وتجادلون في الأمور المعلومة عندكم والمدونة في كتبكم في التوراة والإنجيل فتلصقون التهم بـ«عيسى» كما فعل اليهود، أو تألهون «عيسى» وترفعونه إلى مصاف الآلهة كما فعل النصارى، وهي أمور لكم بها علم ومع ذلك تحرفونها عن وجهها! فكيف

تخاصمون وتجادلون في «إبراهيم» وهو أمر غائب عنكم لم يصلكم خبره، وبينكم وبينه مئات السنين إن لم نقل أكثر. . .

إنه لا علم لكم بـ«إبراهيم» ولا صلة بينكم وبينه، فالمجادلة فيه سفه وحماقة.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾ الله يعلم حقيقة «إبراهيم» وما كان عليه.

﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أنتم لا تعلمون شيئاً عن إبراهيم ولا عن انتمائه على وجه الحقيقة حيث هو من الحنفاء المسلمين. . .

﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا﴾ هذا تكذيب لليهود والنصارى وهدم لدعواهم الباطلة في «إبراهيم» أنه كان يهودياً كما زعم اليهود، أو نصرانياً كما زعم النصارى. . . إنه القول الفصل، فاليهودية والنصرانية كلتاهما محرفتان دخل عليهما الكثير من الخرافات والأباطيل، ولا تنتسبان إلى «موسى» و«عيسى» إلاَّ بالاسم فحسب، أما المضمون فلا قرابة بينه وبين الاسم من قريب أو بعيد. . .

﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا﴾ هذا بيان لحقيقة إبراهيم وما كان عليه ـ بعد أن لم يكن يهودياً ولا نصرانياً.

إنه كان ﴿حَنِيفٗا﴾ أي مائلاً عن هذه الأديان الباطلة والعقائد الزائفة.

﴿مُّسۡلِمٗا﴾ بل انتماؤه إلى الإسلام الذي هو الدين الصحيح بعقيدة التوحيد البعيدة عن وثنية اليهود والنصارى و﴿مُّسۡلِمٗا﴾ أي منقاداً لله مطيعاً لله موحداً لذاته ولصفاته، وهذا هو الإسلام في جوهره وحقيقته، وهو الذي دعا إليه الأنبياء جميعاً وإن اختلفت التفاصيل.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ فيه تعريض باليهود والنصارى وأنهم مشركون، وإبراهيم ما كان كذلك بل كان موحداً لله بعيداً عن كل شرك. . .

﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٨﴾.

هذا بيان لمن هو أحق بـ«إبراهيم» وأحق بالانتساب إليه. . . ليس بالدعاوى

الفارغة ولا بالانتماء الشكلي يكون الانتساب وإنما بالمتابعة والاقتفاء لآثار العظماء والعمل بما جاءوا به وما فعلوه أو قالوه. . .

ومن هنا يتبين أن أحق الناس بـ«إبراهيم» مَنْ اتبعه في زمانه من الحنفاء المسلمين الذين كانوا على ما جاء به وبلّغه لهم.

وكذلك فيما بعد ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ﴾ «محمد ﷺ» الذي على سيرته وخطاه في التوحيد والإيمان وأسس العقيدة ومعالم الشريعة.

ومن وراء هذا النبي ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بـ«محمد» ﷺ لأنهم معه في عقيدتهم وسلوكهم وحركة حياتهم، لم ينفصلوا عنه ولم ينحرفوا عما جاء به أو دعا إليه. . .

﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي هو يتولى نصرهم والدفاع عنهم والأخذ بأيديهم لما فيه أجرهم وثوابهم ودحر أعدائهم ومناوئيهم. .

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾. لم يكن أهل الكتاب في مقام الاكتفاء بما هم عليه، كما أنهم لم يكتفوا بالحوار والجدال في الدفاع عمّا هم عليه من انحراف في ادعائهم قتل المسيح، كما ذهب إليه اليهود أو تأليههم له كما ادعاه النصارى، أو في قضية «إبراهيم» وادعاء كل فريق أنه منهم. . . لم يكن أهل الكتاب ليكتفوا بذلك بل حاول بعضهم - رؤساؤهم والكبار فيهم - شدّ المسلمين إليهم وتحويلهم عن الإسلام إلى النصرانية أو اليهودية ليوهنوا المسلمين ويشككوهم في دينهم، كما ذكر في أسباب النزول لهذه الآية حيث حاول بعضهم أن يستميلوا «معاذاً» و«عماراً» ولكن هؤلاء الذين آمنوا لم يكونوا ليكفروا أو يرتدّوا عن دينهم، فلذا يحكي الله ما تمنّاه بعض أهل الكتاب وعملوا عليه، وبهذا نعرف أن ما هم عليه ضلال حيث عبّر سبحانه: ﴿لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ أي يرجعونكم عمّا أنتم عليه إلى ما هم عليه. . .

وردّ الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي إن محاولتهم إضلال المؤمنين مرة بعد أخرى ستأخذ بهم على كثرة الممارسة إلى

رسوخ ضلالهم وانحرافهم، بحيث يتوصل بهم المقام إلى اعتقاد صحة هذه الأدلة وبذلك يزداد رسوخهم في الضلال ولا يعود في قلوبهم بصيص خير أو بقايا أمل في العودة عمّا هم عليه من الانحراف، وهم لا يدركون ذلك أو يشعرون به لأن الانحراف إذا تأصّل في نفس الإنسان يتحول إلى جهل مركّب، وهو أسوأ ما يكون من حيث يمتنع قلعه إن لم نقل يصعب جداً إقتلاعه والتخلي عنه.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ۝٧٠ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٧١﴾.

اللغة

﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: دلائله وحججه، ومنها ما يقرأه عليهم النبي ﷺ.

﴿تَشۡهَدُونَ﴾: من شهد: بمعنى رأى، وتأتي بمعنى حضر.

﴿تَلۡبِسُونَ﴾: تخلطون، يقال: لبس الأمر عليه: إذا اشتبه واختلط.

﴿ٱلۡحَقَّ﴾: مقابل الباطل.

﴿ٱلۡبَٰطِلَ﴾: نقيض الحق: وهو ما لا ثبات له عند الفحص عنه.

﴿وَتَكۡتُمُونَ﴾: تسترون وتخفون.

التفسير

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ۝٧٠﴾. أقبح القبيح أن يعرف الإنسان الحق ثم يتنكر له أو يجحده ويحاربه، لأن فعله ذلك يمثل اعتداء على هذا الحق، والحق قيمة إلهية إنسانية يتفق العقلاء على الإيمان بها والمحافظة عليها والقيام بشؤونها...

إن أهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ وردت في كتبهم البشارات التي تحمل إليهم صفات النبي وخصائصه ومكان ولادته ومهاجره، وكانوا يتوقعون ظهوره وينتظرون مبعثه ومع يقينهم بذلك راحوا يكفرون به عند ظهوره، بل ويحاربونه بأشد ما تكون الحرب فيؤلبون عليه الوثنية وأهل الشرك ويحيكون عليه المؤامرات وينفّذونها تارة بأيديهم وأخرى بأيدي غيرهم وهكذا. . .

والاستفهام في قوله تعالى: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ﴾ توبيخ لهم على فعلهم القبيح المشين.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾. وهذه خصلة حقيرة ووضيعة من أهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ حيث يعمدون إلى الحق فيلقون عليه بعض الشبهات بالتحريف والتزييف أو التفسير المغلوط، وبذلك يلتبس الحق ويضيع جوهره ونوره ويختفي بريقه فيُفْقِدونه مضمونه وحقيقته ويصلون إلى مرادهم بهذا التشويش الخبيث. . .

ثم كما يضيع الحق بالصورة الأولى ـ صورة تلبيس الحق بالباطل، كذلك يضيع الحق بكتمانه وستره وإخفائه. .

فمع علم أهل الكتاب بنبوة «محمد» ﷺ فإنهم تارة يشوشون عليها بما يملكون من قدرة تشويش، وأخرى بكتمانها وإخفاء الآيات الدّالة عليها وعلى صدق مدّعيها مع علمهم بصدق النبي ﷺ وبصدق ما جاء به، وهذا قبيح في قانون العقل والمنطق وأهل العدل والإنصاف. . .

قال تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿طَّآئِفَةٌ﴾: جماعة.

﴿أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾: اليهود والنصارى.

﴿ءَامِنُوا۟﴾: صدّقوا.

﴿وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾: أوله، سمي الوجه وجهاً لأنه أول ما يواجه، وسمّي أول النهار بذلك لأنه أول ما يظهر بعد انقضاء الليل.

﴿ءَاخِرَهُۥ﴾: الآخر: يقابل به الأول.

﴿يَرْجِعُونَ﴾: من رجع: إذا عاد.

﴿تَبِعَ﴾: يقال: تبع الشيء: سار في أثره، وتبع الدين: تديّن به والتزم أحكامه.

﴿دِينَكُمْ﴾: ملّتكم، وأصله الجزاء، ومنه: كما تدين تدان.

﴿يُؤۡتَىٰٓ﴾: يُعطى.

﴿مِّثۡلَ﴾: المثل: الشبيه.

﴿يُحَآجُّوكُمۡ﴾: يخاصموكم ويجادلوكم.

﴿ٱلۡفَضۡلَ﴾: كل عطية لا تُلزم من يعطيها فهو فضل ويقصد بالفضل هنا النبوة.

﴿وَٰسِعٌ﴾: الواسع: ضد الضيق، والسعة: تقال: في الأمكنة وفي الحال وفي الفعل كالقدرة والجود.

﴿يَخۡتَصُّ﴾: التخصيص والاختصاص والخصوصية والتخصص: تفرّد بعض الشيء بما لا يشاركه فيه الجملة، وذلك خلاف العموم والتعميم.

التفسير

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٧٢﴾. قال الواحدي في أسباب نزول هذه الآية ما نصّه: «تواطأ اثنا عشر حبراً من يهود خيبر، وقال بعضهم لبعض: ادخلوا في دين «محمد» أول النهار باللسان دون الاعتقاد واكفروا به في آخر النهار، وقولوا: إنّا نظرنا في كتبنا وشاورنا علماءنا فوجدنا «محمد» ﷺ ليس بذلك وظهر لنا كذبه وبطلان دينه، فإذا فعلتم ذلك شك أصحابه في دينهم، وقالوا: إنهم أهل كتاب وهم أعلم به منا فيرجعون عن دينهم إلى دينكم، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأخبر نبيه محمداً ﷺ والمؤمنين...

وقيل: إنها نزلت في شأن القبلة، وهذا أيضاً رواه الواحدي في أسباب النزول، وذلك أنه لما حُرِّفت القبلة إلى الكعبة شق ذلك على اليهود لمخالفتهم، فقال «كعب بن الأشرف» وأصحابه: آمنوا بالذي أنزل على «محمد» ﷺ في أمر الكعبة وصلّوا إليها أول النهار ثم اكفروا بالكعبة آخر النهار، وارجعوا إلى

قبلتكم الصخرة لعلهم يقولون هؤلاء أهل كتاب، وهم أعلم منّا فربما يرجعون إلى قبلتنا. فحذّر الله تعالى نبيه ﷺ مكر هؤلاء وأطلعه على سرهم وأنزل ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ﴾... الآية...

وعلى كل حال صحت أسباب النزول أم لم تصح، فالآية ظاهرة الدلالة بيّنة المعنى تحكي عن مؤامرة يدبّرها اليهود بلباقة ولياقة، وفيها من القبول ما يمكن أن يتمرّر عبر طهارة الإيمان ووداعته وبداية الدخول فيه...

إن ـ بعضهم ـ يحيك مؤامرة من أجل زلزلة عقيدة المؤمنين بالإسلام ونبيّه، ويدخلون عن طريق الإسلام نفسه فيظهرون الإيمان به والتديّن بأحكامه، فيفرح المؤمنون لإيمان أهل الكتاب ويطمئنون إلى عقيدتهم وتوجههم، وما أن ترتاح قلوبهم وتنشرح صدورهم حتى يفاجئوا بردة هؤلاء اليهود، وعندئذٍ تكون الصدمة قوية وعنيفة يمكن أن تؤثر على ضعفاء الإيمان من المسلمين حيث تذهب بهم المذاهب إلى أن هؤلاء أهل كتاب يعرفون الحقيقة فآمنوا أولاً بدون تعصب، وأيضاً ارتدُّوا عن الإسلام عن علم ومعرفة بأن النبي ﷺ ليس هو المنتظر، والإسلام ليس هو الدين المترقب، وبهذا تكون البلبلة والتشويش، وقد يكون الارتداد والعودة إلى الكفر، وبالتالي تكون الضربة التي تؤثر في مسيرة الدعوة وحركتها ونموها واتساعها..

فالهدف من إيمان هذه الفئة ليس ما يتراءى منه كحقيقة عقيدية قلبية، وإنما هي حيلة ومكيدة يظهرونها في أول النهار ثم يكفرون بالنبي والإسلام في آخر النهار، وبذلك يطعنون في صحة نبوته فيكفر أصحابه ويرتدُّوا عن دينه...

﴿وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ﴾ لا تصدّقوا أو تطمئنوا ـ أيها اليهود ـ إلاّ لمن هو معكم ومن أهل ملّتكم.. لا تحكوا لأحد هذه المؤامرة ولا تكشفوا عن أبعادها وأخطارها.

فهذا الفصل من كلام اليهود كما يذهب إليه المفسرون...

﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ هذا اعتراض على مقولتهم قبل إتمام كلامهم لبيان

فساده وبيان أن من هداه الله للإسلام والإيمان لا يؤثر كيدهم في إيمانه ولا يزلزل عقيدته أو يحوّلوه عن دينه، وهو الهدى الصحيح والإيمان الصحيح، وليس ما أظهرته هذه الفرقة ثم ارتدّت عنه، فهم لا يشكلون ميزاناً صحيحاً ولا رأياً صائباً في الإيمان ولا قوة ولا ضعفاً فيه.

﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ هذه تتمة لقولهم: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾، فلا تصدقوا أو تطمئنوا إلاّ لمن كان معكم وفي ملتكم، فإن جاءكم من يدّعي النبوّة فانظروا إن كان من ملتكم فاقبلوا قوله وإلاّ فلا تصدقوه لئلا يذهب بالنبوة التي هي فيكم ولكم، ولئلا تصبح له الحجة عليكم يوم القيامة عند الله.. والغرض من ذلك نفي نبوة النبي «محمد» ﷺ.

وذهب بعض المفسرين إلى أن هذه الآية من أولها خطاب للمؤمنين وحاصلها: «يا أيها المؤمنون لا تؤمنوا وتصدقوا إلا لمن تبع دينكم» وكان على دين الإسلام، وقل لهم يا «محمد»: إن الهدى هدى الله ومن هدى الله فلا مضلّ له ولا تصدقوا أن أحداً يؤتى كما أُوتيتم من الدين والنبوة، وإن كنتم على غير ذلك يستخفون بكم وبدينكم أو يخاصموكم في كفركم بين يدي الله... والآية فيها مذاهب أخرى رأينا الإعراض عنها أولى، وكما قال الواحدي كما نقل عنه «الألوسي» في (روح المعاني) قال: «إن هذه الآية من مشكلات القرآن وأصعبه تفسيراً».

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ بعد أن منعوا النبوة من أن تكون في غير بني إسرائيل، كما زعموا ردّ عليهم الله بأن الفضل: سواء كان نبوة أو إمامة أو سعة في العيش كله بيد الله هو الذي يعطيه للمستحق ممن تكون لديه القابلية وتشمله العناية الإلهية، والله واسع العطاء لا تحدّه رؤية يهودية ضيّقة، وكأن الله لهم فحسب دون بقيّة مخلوقات الله، والله عليم بما يصلح العباد وينقذ البلاد، وهو أعلم أنّى يضع رسالته فيختار لها من خلقه أفضلهم وأكرمهم وأعظمهم وأكملهم، سواء كان ذلك المختار «موسى» أو «عيسى» أو «محمد» صلوات الله عليهم أجمعين.

﴿يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أعاد سبحانه تأكيد ما تقدم لينفي زعم اليهود أن الفضل والرحمة فقط يجب أن تكون فيهم وأن تنزل عليهم دون خلق الله...

الله سبحانه الذي يختص برحمته من النبوة أو الإمامة أو الخير من يشاء من عباده بحسب قابليتهم واستحقاقهم، والله ذو الفضل العظيم الذي لا يحدّ فضله ولا يُعد ولا يُمنع بحسب رغبات الناس وتمنياتهم...

قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿تَأْمَنْهُ﴾: الأمانة: وهي الوديعة عند شخص سواء كانت عيناً أم غير عين...

﴿بِقِنطَارٍ﴾: القنطار: المال الكثير، ومَنْ حدّده اختلف في تحديده إلى أقوال متعددة.

﴿يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾: يوصله إليك.

﴿بِدِينَارٍ﴾: الدينار: وحدة من العملة تقدر بأربعة وعشرين قيراطاً من الذهب، كان يُستعمل قبل الإسلام، وبقي يتداول به بعد ذلك.

﴿مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾: مدة دوامك ملازماً له ومطالباً.

﴿الْأُمِّيِّينَ﴾: العرب وبقية الشعوب.

﴿سَبِيلٌ﴾: السبيل: الطريق، والمقصود هنا ليس علينا ذمٌّ أو عتاب أو إثم.

﴿أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ﴾: إذا تمّم العهد ولم ينقض حفظه، وضده الغدر.

﴿بِعَهْدِهِۦ﴾: العهد: حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال، ويسمَّى الموثق الذي يلزم مراعاته: عهداً..

التفسير

قيل: إن هذه الآية نزلت في أشخاص معيَّنين «عبد الله بن سلام» الذي استودعه قرشي ألفاً ومائتي أوقية ذهب فأدَّاها إليه، والآخر «فنحاص بن عازوراء» استودعه آخر ديناراً فجحده..

وقيل: إنه عنى بأهل الأمانة النصارى لغالبية ذلك منهم، وعنى بأهل الخيانة اليهود لأن ذلك من عقيدتهم وعليه عملهم...

وعلى كل حال فالله سبحانه لا يظلم أحداً في سلوك سلكه وتصرّفٍ قام به، فمن عمل عملاً صالحاً يُمدح به ومن عمل عملاً قبيحاً يُعاب به، وهذا منتهى الإنصاف، وهنا يذكر الله عملاً عظيماً لبعض أهل الكتاب من حيث أمانتهم ووفائهم بهذه الأمانة والتزامهم بمضمونها...

إن بعض أهل الكتاب أهلُ أمانة إذا ائتمنته على المال الكثير وعلى الغالي والنفيس لا يخونك فيه ولا يجحده عليك بل يؤديه إليك كاملاً تاماً دون نقصان...

وفي مقابل هذه الجماعة من أهل الكتاب هناك جماعة أخرى تنهج نهجاً مغايراً للأولى ومخالفاً لها، وليت الأمر كان نتيجة هفوة أو شهوة أو زلّة قدم لأمكن غفران ذلك وغض النظر عنه، ولكن هذا الأمر إذا كان نهجاً منطلقاً عن عقيدة تبيح ذلك وتجيزه لأهلها فهنا تكون المصيبة العظمى والطامة الكبرى.

﴿وَمِنْهُم﴾ من أهل الكتاب - ﴿مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾. إن الخيانة وعدم أداء الأمانة تعيش في نفوسهم وتنطلق في حركات أيديهم وخطرات قلوبهم.. ولا يهمّ كم يكون المال من الكثرة والقلّة. إنهم يخونون حتى بالدينار على قلّته وحقارته، لأن ذلك من طبعهم ومقتضى سليقتهم تربّوا عليه ودرجوا على ممارسته وفعله، وهذا ما نراه اليوم أمام أعيننا ويراه العالم من فعل اليهود وممارساتهم...

إن هذه الفئة من اليهود لا تؤتمن حتى على دينار واحد فإنها تأكله وتخون صاحبه به على قلّته، ولا تستطيع أن تحفظه وتعيده إليك.

﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ إلاَّ إذا كانت لك الضمانات القويّة سواء كانت قوة مادية تجبره على ردّه، أو قوة معنوية من إشهادٍ عليه تثبت به حقك أو غير ذلك من الطُرُق التي تردع هذا الخائن عن خيانته...

وإن أظهر وأجلى مصاديق هذا المعنى ما نعيشه اليوم في الشرق الأوسط، حيث يحتل اليهود (فلسطين) ويعقدون الاتفاقيات ويلتزمون بها ثم ينقضونها ويخونون كل عهودهم التي يعطونها، ولا يبقى أمام أصحاب الحق الشرعيين في (فلسطين) ومن ورائهم كل العرب والمسلمين والعالم إلا أن يستعملوا القوة ويقهروا هذا العدو ويردُّوا الحق إلى نصابه...

وكما قلت لو أن هذه الخيانة كانت عثرة أو زلّة أو معصية حصلت لضعف هذا الإنسان لأمكن غض النظر عنها والتسامح فيها خصوصاً إذا أعقبتها التوبة وتداركتها الندامة، ولكن هؤلاء القوم لم تكن خيانتهم لشيء من ذلك بل لما حكاه الله عنهم بقوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾ فهذا هو المنطلق العقيدي لخيانتهم وعدم محافظتهم على الأمانة... إنهم يذهبون إلى استباحة أموال الآخرين من العرب وغير العرب ممن لم يكن على دينهم... إنهم يذهبون في عقيدتهم إلى استباحة أموال كل من لم يكن من أهل الكتاب ـ اليهود ـ وعليه فلا بأس بالخيانة وسلب أموال الناس، بل الغدر ونقض العهد واستعمال كل الطرق الملتوية طالما أنها تخدمهم وتخدم مصالحهم وتدرّ عليهم الأموال والأرزاق...

إن اليهود بعقيدتهم هذه يشكّلون أكبر خطر على الإنسانية كلها وليس على المسلمين فحسب.. إنهم جراثيم فتاكة في هذا الجسم البشري يجب إبادتها والقضاء عليها حتى يصح هذا الجسد ويتعافى وتكتب له الحياة الكريمة...

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يبررون فعلهم بأن الله أباح لهم

أموال غير اليهود، وهو قول يكذبون به على الله ويعلمون بأنهم يكذبون إذ حاشا لله أن يبيح أموال الناس لليهود لمجرد أنهم يهود، كيف والله خلق الخلق وهم عنده متساوون ولا يتفاضلون إلاّ بالإيمان والتقوى والعمل الصالح دون أن يبيح لأحدٍ سلب مال الآخرين أو خيانتهم أو أكل أموالهم بالباطل. . .

﴿بَلَىٰ﴾ جواب لقولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا﴾ بلى عليهم سبيل ومنع وذم إن لم يؤدُّوا الأمانة. ثم قرّر سبحانه قاعدة وفيها الطعن فيهم وأنهم ليسوا كذلك.

فقال تعالى: ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ﴾ أي وفى وأتم العهد ونفّذه وقام به، ومنه أداء الأمانة.

﴿وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ أطاعه في أمره ونهيه وآمن بالنبي ﷺ وما جاء به.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ محبة الله للمتقين تعني ثوابه وأجره وأفضاله ونعمه، وأعلى درجات تلك المحبة أن يتفضّل سبحانه على مَنْ يحبه بالدرجات العليا في جنات عدن مع ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[1].

(١) النساء/ ٦٩.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿يَشْتَرُونَ﴾: هنا بمعنى يبيعون، وأصل الاشتراء: مبادلة مال بمال.

﴿ٱلْعَهْدُ﴾: العهد: حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال، وسمِّي الموثق الذي يلزم مراعاته عهداً.

﴿أَيْمَٰنِهِمْ﴾: الإيمان جمع يمين: وهو الحلف والقسم مستعار من اليد اعتباراً بما يفعله المعاهد والمحالف.

﴿ثَمَنًا﴾: الثَّمنْ: اسم لما يأخذه البائع في مقابلة المبيع عيناً كان أو سلعة، وكل ما يحصل عوضاً عن شيء فهو ثمنه.

﴿لَا خَلَٰقَ﴾: لا نصيب ولا حظ.

﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾: لا يحسن إليهم ولا يرحمهم الله.

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾: لا يطهرهم من الذنوب.

التفسير

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ هذه الآية سواء صحت فيها أسباب النزول التي تقول: أن نفراً من زعماء اليهود عندما سئلوا عن نعوت النبي ﷺ وصفاته المذكورة في التوراة غيّروها وبدّلوها وأقسموا بالله أنها لا تنطبق على صفات النبي «محمد» ﷺ حفظاً لمقاماتهم الرئاسية ومصالحهم المادية الآنية الدنيوية. . .

أقول: سواء صحّت أسباب النزول أم لم تصح فإن معنى الآية ظاهر، وهو أن الله أخذ على الناس عهوداً من الإيمان به وبرسله والعمل بما جاء به هؤلاء الرسل من تكاليف، وهؤلاء الذين يبيعون عهودهم وما أعطوه لله من الوفاء بها ويقسمون على صحة ما يذهبون إليه في مقابل ثمن قليل حقير من متاع الدنيا وما فيها، هؤلاء سينالهم أنواع متعددة من العقوبات وهي كما فصّلها سبحانه بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي لا نصيب لهم في الآخرة ونعيمها وما فيها من علوّ الدرجات ورفيع المقامات ومن لا خلاق له ولا حظ له في الآخرة، فلا حظ له في الجنة ولا نصيب والتعبير باسم الإشارة الذي للبعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ فإنما لبعدهم عن ساحة رحمته بسبب نكثهم للعهد. . .

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ لسخطه عليهم ومقته لهم.

﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي لا يعطف عليهم برحمته، وهذا كناية عن غضبه عليهم، فإن مَنْ لا يُنظر إليه ولا يُتكلّم معه إنما هو مَنْ كان مغضوباً عليه غير مرضي السيرة والسلوك. . .

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾ أي لا يطهرهم بالعفو عنهم والمغفرة لذنوبهم وبالتالي يكون نصيبهم النار.

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ عذاب مؤلم على ما ارتكبوه من المعاصي والآثام.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿فَرِيقًا﴾: الفريق: الجماعة المنفصلة عن آخرين.

﴿يَلْوُونَ﴾: من اللّي: وهو اللّف والفتل، والمراد أنهم يميلون عن الصحيح إلى الكذب.

﴿أَلْسِنَتَهُم﴾: من اللسان - يذكّر ويؤنّث والتذكير أكثر - وهو آلة النطق والذوق والبلع.

﴿بِالْكِتَابِ﴾: المقصود بالكتاب هنا هو التوراة.

﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾: لتظنوه.

التفسير

اليهود عصابات متنوّعة تفرّغ بعضهم للكيد والدّس والإفتراء وحبك المؤامرات، وبعض منهم لضرب الاقتصاد، وضرب المصالح الحيوية للناس،

ولذا استغلّوا الربا واستولوا على الأموال ودبّ فيهم الجشع والطمع - وبعض آخر تفرّغ لتحريف الكتاب الإلهي وتغيير مدلوله وتفسير آياته بما يخدم مصالحه ومصالح قومه دون النظر إلى غضب الله والإساءة إلى كلامه، وهكذا تجدهم في كل الحقول والميادين دعاة تدمير وأوبئة فاسدة تضر المجتمع وتسيء إلى هدوئه واطمئنانه، ومن هنا كانت الحملات العنيفة والمطاردة الدائمة لهم وبُغض الناس لهم وكراهيتهم للتعامل معهم. .

وهذه فئة من الأحبار الذين كانوا على علم بما في التوراة من نعوت النبي «محمد» ﷺ ومن البشائر التي حملتها كتبهم، هؤلاء راحوا يحرّفون الكلم عن مواضعه كما يقص الله خبرهم بقوله:

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَٰبِ﴾ سواء كان هذا اللّي بألسنتهم يعني التفسير المغلوط أو التصحيف المغيّر للمعنى أو حذف ما يضر بالمعنى أو زيادة يختلف بها المراد، فهو على كل حال ممارسة خاطئة بحق الله وبحق الإنسانية التي تريد أن تصل إلى الله عبر الطريق الصحيح. . . - إنهم يلوون ألسنتهم بأي معنى فُسّر به اللي؟ - لكي يغرّروا بالناس ويحملوهم على اعتقاد أنه كلام الله، ولكي يمرّروا مخططاتهم في تكريس زعاماتهم المزيّفة ويشككوا الناس في نبوة «محمد» وما جاء به، ولكن الله يردُّ عليهم بقوله تعالى:

﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَٰبِ﴾ نفي قاطع بأنه ليس من كتاب الله ولا وجود له في التوراة، وكذلك ينسبون إلى الله. ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ منزل على نبيه «موسى» وينفي الله أن يكون من عنده ويرميهم بالكذب والافتراء.

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وأقبح الكذب ما كان عن علم بأنه كذب، وهذا الرد منه سبحانه بهذا الوضوح، لأنهم كانوا يقولون ما يقولونه تصريحاً لا تلويحاً فاستحقوا الرد مع الاستخفاف بهم والتشنيع عليهم. . .

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿ٱلْبَشَرِ﴾: الناس، وعبّر عن الإنسان بالبشر لظهور بشرته، ويطلق على الواحد والجمع ذكراً وأنثى.

﴿يُؤْتِيَهُ﴾: يعطيه.

﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: الإنجيل.

﴿ٱلْحُكْمَ﴾: الحكمة أو الفهم والعلم.

﴿ٱلنُّبُوَّةَ﴾: هي السفارة من قبل الله إلى الناس.

﴿رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾: جمع رباني نسبة إلى الرب: وهو المتشدد في الدين.

﴿تَدْرُسُونَ﴾: تقرؤون الكتاب.

﴿أَرْبَابًا﴾: من الرب، وهو في الأصل التربية، وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام، ولا يقال الرب مطلقاً إلاّ لله، وإذا أضيف إلى غيره جاز كرب الدابة وغيرها، وهنا الأرباب هي الآلهة...

التفسير

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾. روي أن هذه الآية نزلت في «أبي رافع القرضي» ورئيس وفد (نجران) قالا: يا محمد! تريد أن نعبدك ونتخذك رباً؟

قالﷺ: معاذ الله أن نعبد غير الله وأن نأمر بعبادة غيره تعالى، ما بذلك بعثني ولا بذلك أمرني، نعم أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله.

وعلى كل حال فالآية تنفي بتاتاً وقطعاً أنه لا يجوز في العقول بل لا يتصور صدور هذه الدعوى من الأنبياء.

فإن الأنبياء الذين هم بشرٌ أعطاهم الله ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ الذي ينظم سلوكهم ويهديهم ويرشدهم...

﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ الذي هو موافقة الحق في الأقوال والأعمال والسلوك، وأعطاهم...

﴿ٱلنُّبُوَّةَ﴾ التي هي السفارة الإلهية هؤلاء الأنبياء الذين كان لهم شرف الاتصال بالله عن طريق اختياره لهم وهم بالتالي يدّعون ذلك ويعملون له ويدعُون إلى الله وإلى توحيده واتباع ما يريد.. هؤلاء الأنبياء ما كان لهم أبداً، ولا يمكن أن يتصور منهم القول أنهم يدعون الناس إلى عبادتهم دون عبادة الله.

وما أروع التعبير بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ﴾ التي تنفي بصيغة عامة مثل هذه الدعوى، وأنها لا تصح بمقتضى العقل صدورها من نبي أعطاه الله ﴿ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ ليرشد الناس إلى الله سبحانه ثم يعدل عن ذلك لينصّب نفسه إلهاً بديلاً عن الله..

وهذا ردٌ على النصارى الذين ألّهوا المسيح وادّعوا أنه هو أمرهم بعبادته ـ حاشاه من نبي كريم أن يقول على الله ذلك ـ أو أن يتفوّه به، بل أسمعه وبنفس

الصيغة ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ﴾ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾[1].

فما كان للأنبياء أن يدعوا الناس لعبادتهم من دون الله ولكنهم كانوا يقولون لهم: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾.

هذه هي دعوة الأنبياء لا يقولون للناس اعبدونا من دون الله، بل ﴿وَلَٰكِن﴾ يقولون لهم: ﴿كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ﴾ نسبة إلى الرب، وهذه النسبة لا تكون ـ وخصوصاً إذا كانت للمبالغة كما هي صيغة رباني وأمثالها كالبحراني والرقباني ـ إلاّ إذا كان صاحبها يعيش مع الله ويتجرد لعبادته ويتوجه إليه في مقاماته بحيث يصح أن ينسب إليه وذلك لا يكون إلا إذا بلغ من القرب منه مبلغاً عظيماً ولا يتحقق هذا إلاّ بطاعته، ومن هنا فسّر «ابن عباس» الربانيين بأنهم «الحكماء العلماء الحلماء».

﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ هذا هو السبب الموصل لهم إلى مقام الربانيين بعد دعوة الرسل ليكونوا ربانيين. . .

﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ بسبب جدّكم في تعليم الكتاب وتفهيمه للناس، بحيث تفرغتهم لتفقيه الناس ما في كتاب ربهم. . . ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ فيه فأنتم تدرسون الكتاب وتفهمونه ثم تعملون به بما تعلّمونه منه إلى الناس ولا شك أن هذا كله مقدمة للعمل به والتفرغ لأداء حق الله والالتزام عملياً بكل ما جاء به أنبياؤه. .

ومن هذا البيان نقف على عظمة طلب العلم تعليماً وتعلّماً دراسة وتدريساً،

---

(١) المائدة/ ١١٦ ـ ١١٧.

فإن ذلك يوصل أهله إلى أن يصبحوا ربانيين فيستجيبوا لدعوة الأنبياء الذين دعوهم إلى بلوغ تلك المرتبة. . .

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ أي وما كان له - لبشر - أن يأمركم بعبادة غير الله سواء كانوا ملائكة أم أنبياء، لأن الأنبياء يدعون إلى الله وإلى عبادته والإخلاص له، فلا يجتمع ذلك مع الدعوة إلى عبادة غيره، ويذهب بعضهم إلى أن هذا ردٌّ على المجوس والنصارى حيث صدر منهم ذلك. . .

﴿أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ هذا استفهام إنكاري فيه معنى التعجب، وأنه لا يصدر من الأنبياء مثل هذا الخطاب للناس من الدعوة إلى عبادة غير الله. . .

﴿أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ﴾ كيف للنبي - أي نبي - أن يعكس مهمته التي من أجلها بعثه الله، فالله بعثه ليهدي الناس إليه ويدلّهم عليه ويرشدهم إلى توحيده وعبادته، فلا يمكن أن ينقلب ضد هذه الدعوى ويدعو إلى الكفر والجحود وعبادة غير الله سبحانه، خصوصاً بعد أن استسلمتم لله وتوجهتم إليه وانقدتم لحكمه، هذا محال يرفضه العقل كما يرفضه النقل. . .

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٨١)﴾.

اللغة

﴿مِيثَٰقَ﴾: الميثاق: عقد مؤكّد بيمين وعهد.

﴿ءَاتَيْتُكُم﴾: أعطيتكم.

﴿حِكْمَةٌ﴾: تصرف بعقل ودراية.

﴿مُّصَدِّقٌ﴾: عملاً واقعاً.

﴿وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾: نصره: أعانه.

﴿أَقْرَرْتُمْ﴾: الإقرار: إثبات الشيء، والإقرار بالتوحيد: إثبات ذلك في القلب واللسان، والإقرار: الاعتراف.

﴿إِصْرِى﴾: عهدي المؤكد.

التفسير

وحدة الأنبياء:

الأنبياء وحدة متكاملة في المنطلق وفي الهدف، فالله سبحانه بعث الجميع وحمّلهم رسالته إلى الناس ومهمتهم هداية الخلق وضمان سعادتهم، فكلهم يفرغون عن الله مراده، ومهمتهم تبليغ رسالته، ومن هنا كانوا وحدة متكاملة، التالي يؤمن بالمتقدم، والمتقدم يبشر بالتالي، وذلك كله يساعد على الهدف الأخير الذي يتقوم بجذب الناس إلى الحق سبحانه وإلى تنفيذ مراداته... ولا يمكن لهؤلاء الأنبياء الاختلاف أو التنازع لأن مصالحهم لا تتضارب ولا أشخاصهم تتأذى أو تصاب بوهن.. وهذه الآية الكريمة جاءت لتؤكد هذا المعنى وتحث الإتباع عليه.

فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾.

اذكروا إذ أخذ الله عهود الأنبياء بعضهم لبعض، وبالطبع يتبعهم أممهم ومن آمن بهم، وذلك للذي أعطاه الله لهم من الكتاب والحكمة، أي لأجل ذلك حيث أوقفهم بالوحي وبما طابق الحق والواقع على هذا الأمر وبما دلّ عليه العقل.

﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ ثم جاءكم رسول من عند الله بعثه سبحانه برسالته يصدّق بما معكم من كتب أنبيائكم وتعاليمهم وما جاءوا به.. فهذا الرسول الذي جاء له خاصتان.

الخاصة الأولى: أنه رسول من عند الله يحمل أدلة صدق هذه الدعوى بالمعجزات والبراهين والأدلة.

والخاصة الثانية: أنه يؤمن بالأنبياء الذين تقدموه وبكل ما جاءوا به...

وورد عن الإمام «علي» عليه السلام أن الله أخذ على الأنبياء ميثاق الإيمان بالنبي «محمد» صلى الله عليه وآله والبشارة به للأمم تمهيداً لاستقباله وتقبّله والإيمان به، ويقول في

نهج البلاغة «إلى أن بعث الله سبحانه «محمداً» رسول الله ﷺ لإنجاز عدّته[١] وإتمام نبوته مأخوذاً على النبيّين ميثاقه، مشهورة سماته، كريماً ميلاده..».

﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ أي يجب أن يؤمنوا به ويعتقدوا بنبوته ويعاونوه في تبليغ رسالته، فمهمتهم الإيمان به والمعونة له.

﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ قال سبحانه: مؤكداً ذلك الاعتراف منهم بنبوة «محمد» ﷺ ونصرته، وأنه قد بلّغوه لأممهم وأخذوا منهم عهداً لله أن يفوا به ويلتزموا بمضمونه...

﴿قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا﴾ أي اعترفنا بكل نبي يأتي بعدنا، وطبعاً اعترف أتباعهم أيضاً تبعاً لهم.

﴿قَالَ﴾ الله سبحانه ﴿فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ إشهدوا على أنفسكم وعلى أممكم وأنا معكم سأشهد عليكم وعليهم وأُري صدق هذا الإقرار والاعتراف عملاً وسلوكاً عندما يأتي النبي «محمد» ﷺ كنموذج أخير لوجوب الإيمان به ونصره وتأييده..

(١) الخطبة الأولى من نهج البلاغة.

قال تعالى: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

اللغة

﴿تَوَلَّىٰ﴾: أعرض.

﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾: يطلق الفسق ويراد به ارتكاب المعاصي ويطلق ويراد به الكفر كما هو الحال هنا...

﴿يَبْغُونَ﴾: يطلبون.

﴿أَسْلَمَ﴾: إنقاد وأذعن وخضع.

﴿طَوْعًا﴾: انقياداً بسهولة وعن رغبة.

﴿كَرْهًا﴾: إجباراً وعن كره.

﴿تُرْجَعُونَ﴾: تعودون.

التفسير

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾. من أعرض عن الإيمان

بالأنبياء وما أعطى من الميثاق والعهود في أن يكون مؤمناً بهم ناصراً لهم، ومنهم خاتمهم وآخرهم سيدنا «محمد» ﷺ فأولئك الذين ينقضون عهدهم هم الخارجون عن الدين، الكافرون بمقتضاه المتمردون على أحكامه.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾ استفهام إنكاري، وفيه توبيخ لهم أن يختاروا غير دين الله أو يطلبوا سواه، إذ لا دين يجمع خير الدنيا والآخرة غير دين الله.

﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ أي ولله استسلم وانقاد وذل وخضع من في السماوات والأرض اختياراً من بعضهم وكرهاً واضطراراً من بعض آخر، هذا إذا اقتصر على مدلول ﴿من﴾ التي تخص العقلاء.

أما إذا عمّمنا ليشمل العقلاء وغيرهم وتكون ﴿من﴾ من باب تغليب العاقل على غير العاقل، فهنا ينبغي أن يكون من يسلم لله طوعاً هو الإنسان باعتباره يملك إرادة وحرية اختيار، فهو يؤمن عندما تظهر له إمارات الصحة في الأدلة والبراهين، بل الإنسان يرتبط بالله من داخل فطرته، وبما زوّده الله فيه من العقل، وينقاد من هذا المنطلق لله ويخضع له.

وهناك استسلام من باب الإكراه كما في الموجودات الأخرى التي تخضع لقوانين الله العامة التي وضعها في هذا العالم، فالشمس تجري بمقتضى ما رسم الله لها، وكذلك القمر والأرض وكل شيء، فهذا كله تسخير وانقياد كُرهاً بمقتضى هذه القوانين التي وضعها الله، وليس للشمس ولا للقمر والأرض أن تحتج أو تتوقف...

وهناك أقوال أخرى لتفسير قوله: ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ رأينا الإعراض عنها أولى من ذكرها...

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ إلى الله ستعودون يوم القيامة فيحاسبكم على إيمانكم ويعطيكم الجنة ويحاسبكم على كفركم وفسقكم ويدخلكم النار...

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿ءَامَنَّا﴾: صدَّقنا واعتقدنا.

﴿وَٱلْأَسْبَاطِ﴾: جمع سبط، والسبط: ولد الولد.

﴿أُوتِيَ﴾: أُعطي.

﴿لَا نُفَرِّقُ﴾: من فرق الشيء إذا فصل بعضه عن بعض، يقال: فرَّقت بين الشيئين إذا فصلت بينهما.

التفسير

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ هذا الخطاب موجه إلى رسول الله ﷺ يأمره سبحانه أن يُظهر معتقده وما هو عليه، وجيء بصيغة الجمع ﴿ءَامَنَّا﴾ و﴿عَلَيْنَا﴾ أما من باب التعظيم لرسول الله ﷺ وأمَّا لشمول الخطاب للنبي ومن معه من المؤمنين به..

قل لهم يا رسول الله! آمنَّا بالله! واعتقدنا به، وكذلك آمنَّا بما أُنزل علينا من القرآن والإسلام والدين الحق.

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ هذه هي وحدة الإيمان في الإسلام يأمر بها الله نبيه «محمداً» ﷺ أن يقولها لأولئك الذين كفروا تارة بهذا النبي وأخرى بذاك، وتارة بما أُنزل على هذا، وأخرى بما أُنزل على ذاك. . . إن «محمداً» ﷺ وريث كل الأنبياء، فهو يؤمن بهم جميعاً ويؤمن بما أُنزل عليهم من كتب إلهية وعلى سيرة «محمد» ﷺ سار من بعده أتباعه المؤمنون به والسائرون على طريقه. . .

إن هذه الأُمة هي وريثة الأنبياء من وراء تصديقها لهم جميعاً. . . إنهم أنبياء أرسلهم الله لهداية الناس كلٌّ في زمانه يحمل وصفة ناجعة لأمراض ذلك المجتمع الذي يعيش معه، حتى وصل الأمر إلى خاتمهم وسيدهم رسول الله «محمد» ﷺ فيجب على البشرية أن تؤمن به وتأخذ الوصفة الإلهية عن يديه كي تشفى من كل أمراضها التي تضر بسلامتها وسلامة هذا المجتمع كله. . .

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾ بحيث نؤمن ببعضهم ونكفر ببعض آخر، كما فعل اليهود والنصارى. . .

إن الإيمان بجميع الأنبياء عقيدة إيمانية في الإسلام، فإن المسلم كما يؤمن بآدم يؤمن بـ«إبراهيم» و«إسماعيل» و«إسحاق» و«يعقوب» و«موسى» و«داود» و«سليمان» و«زكريا» و«يحيى» و«عيسى». . إنهم جميعاً في عقيدة المسلم أنبياء كرام على الله أرسلهم لهداية الناس فأدّوا الأمانة واجتنبوا الخيانة وعملوا بما أراد الله، ومن هنا يكون إيمان المسلم أوسع من إيمان كل الناس الآخرين وأعم وأشمل وأعمق. . .

وفي النهاية ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ نحن منقادون لله مطيعون له ومذعنون لحكمه هكذا أراد منا أن يكون الإيمان وهكذا كنا كما أراد. . .

قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿يَبْتَغِ﴾: يطلب.

﴿دِينًا﴾: الدين في الأصل: الجزاء، ويستعمل في الملة والطريقة.

﴿يُقْبَلَ﴾: قبول الشيء: هو الرضا به وإثابة فاعله عليه.

﴿ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: الخسران: انتقاص رأس المال، وخسر فلان: إذا أضاع من رأس ماله، والخاسر في الآخرة: هو الذي أضاع ثوابه ودخل النار.

التفسير

بعد أن قرر سبحانه مقولة النبي ﷺ ومن معه من أتباعه والمؤمنين به، بعد أن قرّر قولهم ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ بيّن سبحانه عظمة الإسلام وفعاليته وأثره ورتّب على ذلك أن كل من يطلب غير الإسلام الذي هو الانقياد لله والطاعة له ولما جاء به نبيه كل من يطلب غير ذلك ديناً يتدين به ويلتزم بمضمونه فلن يُقبل منه ويقع هذا التدين باطلاً والعامل به عاصياً لا ينتفع من وراء عمله بشيء، ففي

الدنيا تجري عليه أحكام الكفار وأمّا في الآخرة فهو من الخاسرين الذين خسروا أنفسهم بحرمانها من الثواب وأدخلوها النار ودركات العذاب. . .

قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٨) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٨٩)﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿قَوْمًا﴾: القوم: هم الجماعة من الناس.

﴿شَهِدُوا﴾: اعترفوا.

﴿حَقٌّ﴾: يراد بالحق هنا: أنه رسول الله ﷺ المبعوث إلى الخلق.

﴿الْبَيِّنَاتُ﴾: الحجج والأدلة ومنها المعجزات.

﴿جَزَاؤُهُمْ﴾: الجزاء: نتيجة حاصلة للعمل.

﴿لَعْنَةَ﴾: اللعن: هو الطرد والإبعاد، ومن لعنه الله فقد أبعده عن رحمته.

﴿خَالِدِينَ﴾: الخلود: المكث الطويل الدائم.

﴿لَا يُخَفَّفُ﴾: الخفيف: ضد الثقيل.

﴿لَا يُنظَرُونَ﴾: لا يمهلون أو يؤخرون.

﴿تَابُوا﴾: رجعوا إلى الله.

﴿وَأَصْلَحُوا﴾: أصلح الشيء: ضد أفسده، ترميم الخلل الواقع في الشيء.

﴿غَفُورٌ﴾: الغفران من الله: أن يصون العبد من أن يمسه العذاب.

التفسير

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ هذا استفهام يخرج عن معناه الحقيقي ليكون للتعجب والتعظيم لكفر هؤلاء القوم، واستبعاد أن ينصب الله لهم من الأدلة فوق ما نصب لهم، لأنهم كفروا.

﴿كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ فهم قوم قامت الحجة عليهم من كل وجوهها، فهم آمنوا بالله واعترفوا بأن «محمداً» ﷺ هو رسول من عند الله أرسله بالهدى ودين الحق وجاءهم من البراهين والحجج والأدلة ما فيه الكفاية لصدق ذلك، ثم بعد كل تلك الأمور الواضحة عندهم والساطعة لديهم كفروا برسول الله ﷺ وأنكروا رسالته وتنكروا لكل ما جاء به وهنا يمنع الله لطفه عنهم، أي لا ينصب لهم أدلة جديدة زيادة عما نصب لهم أول مرة، وبذلك يستمرون بالكفر ويعيشون جحيمه.

وهذه الآية تنطبق على اليهود والنصارى تماماً، فهم كانوا على بيّنة واضحة وتعاليم صريحة ببعثة رسول الله ﷺ، وكانوا يتوقعون ظهوره ويعرفون علاماته كما كانوا يعرفون مكان ولادته ومهاجره فلما جاء ﷺ وبعثه الله إلى الناس كفروا به وأنكروه وتنكّروا لكل ما عندهم من بشارات وعلامات، بل راحوا في حربه على أشد ما تكون الحرب عداوة وكيداً ومؤامرات واستمروا على ذلك حتى قهرهم الإسلام وأسكت نأمتهم...

وتختم الآية بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا تشملهم عنايته ولا يوفقهم لطريق الهدى لأنهم بأيديهم تنكبوا عن طريق الحق وظلموا

أنفسهم عندما انحرفوا عما علموا صدقه وصحته.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴿٨٧﴾﴾ أولـئـك الذين كفروا بعد إيمانهم سيكون عقابهم المتوقع أن ينزل بهم العذاب، إن الله يطردهم من رحمته ويبعدهم عن ساحة قدسه، وهذا معنى لعنة الله عليهم، لأن من لعنه الله أقصاه عن كل خير وأبعده عن كل نعيم، ومن كان كذلك كان في جهنم ودركاتها العميقة.

وأمّا اللعن من الملائكة فهو أن يضاعف عليهم العذاب، وكذلك اللعنة من الناس أجمعين هو الدعاء عليهم بالطرد والإبعاد وإيقاع العذاب الشديد بهم...

وهذه الصيغة وإن لم تكن أمراً ولكن مفادها الأمر...

كما أنها لا تنفي جواز اللعن عن غير هؤلاء لأن إثبات شيء لشيء لا يستدعي نفيه عن غيره، إلا إذا كان هناك قرينة تدل على ذلك...

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴿١٦٢﴾﴾.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ الضمير في ﴿فِيهَآ﴾ ذهب بعضهم إلى أنه راجع إلى جهنم واستدلوا على ذلك بقرينة ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾.

والآخرون قالوا: أن الضمير يرجع إلى ﴿لَعْنَةُ ٱللَّهِ﴾ وأنهم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾. والنتيجة واحدة، لأن من طردهم الله! دخلوا النار وكان ذلك جزاؤهم وفيها يخلدون دائماً لا يُفتّر عنهم العذاب ولا ينقطع فترة دون أخرى ولا يمهلون أو يؤخرون عنه، بل هو دائماً واقع بهم ملاحقهم بشدته وقوته وعنفه دون انقطاع ولا إمهال...

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿٨٩﴾﴾. وهكذا يفتح الله أبواب التوبة أمام عباده الخاطئين حتى أولئك الذين كفروا وارتدّوا عن الإيمان بالله، إذا رجعوا إلى رحاب الله رحّب الله بهم وقبل توبتهم وأدخلهم في رحمته...

إن الذين تابوا عن كفرهم ورجعوا إلى الاسلام والإيمان وأصلحوا إيمانهم بالثبوت عليه والاستقرار في خط المؤمنين وعملوا بمقتضى هذا الإيمان، فأولئك يشملهم الله بغفرانه فيغفر ذنوبهم ويمحوها وكأنها لم تكن ويرحمهم بإدخالهم الجنة . . .

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿ٱزْدَادُوا۟﴾: الزيادة: أن ينضم إلى ما عليه الشيء في نفسه شيء آخر.

﴿لَّن تُقْبَلَ﴾: التقبُّل: قبول الشيء والرضا به على وجه يقتضي الثواب عليه، فلن يتقبّل منهم: أي لا يرضاه الله ولا يثيب عليه.

﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾: الضلال: العدول عن الطريق المستقيم ويضاده الهداية.

﴿مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ﴾: مقدار ما يملأُها.

﴿ذَهَبًا﴾: الذهب: هو المعدن الثمين.

﴿ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾: الفدية: البدل من الشيء في إزالة الأذية، وافتدى به بذله عوضاً.

﴿نَّٰصِرِينَ﴾: النصر والنصرة: العون.

التفسير

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾. هـؤلاء قـوم كفروا بعد الإيمان، ثم تعمقوا في الكفر، وازدادوا منه، فكانت النتيجة أنه سبحانه رفض توبتهم ولم يقبلها منهم. . .

مَنْ يكون هؤلاء؟

وكيف ازدادوا كفراً؟

ولماذا لن يقبل الله توبتهم؟

قيل في الجواب: أنهـم اليهود كفروا بـ«عيسى» والإنجيل بعد الإيمان بـ«موسى» والتوراة، ثم ازدادوا كفراً «بمحمد» ﷺ والقرآن.

وقيل: إنهم اليهود آمنوا «بمحمد» ﷺ قبل مبعثه ثم كفروا به بعد ظهوره، ثم ازدادوا كفراً بالطعن فيه وتشكيك الناس في دعوته ثم حيك المؤامرات عليه وأخيراً إعلان الحرب عليه.

وقيل: إنهم قوم ارتدُّوا بعد إيمانهم بالنبي ﷺ ثم هربوا إلى مكة يتربصون بالنبي ريب المنون فإن تم ذلك فهو، وإلاّ فيتوبون، فهم ازدادوا كفراً بموقفهم هذا.

وأمّا عدم قبول توبتهم! فإمّا لأنها كانت في وقت قد مضى وانقضى زمان قبولها كما لو كانت في وقت العجز وعند لفظ الأنفاس الأخيرة بحيث لم تكن عن اقتدار وإنما كانت اضطراراً، وتحت الأمر الواقع كما هو رأي بعضهم فتكون كتوبة فرعون لمّا أدركه الغرق.

وأمّا لأنها لم تكن في الواقع والحقيقة مستجمعة لشروطها كما لو كانت في الظاهر فحسب مع إبطان الكفر والنفاق. . . وإما لغير ذلك مما لا تصح فيه التوبة ولا تقبل. . .

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ الثابتون على الضلال والانحراف، الذين سلكوا سلوك الغيّ والفساد. . .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾.

الذين كفروا وماتوا على كفرهم بدون توبة أو رجوع إلى الله. . هؤلاء لن يقبل الله منهم فدية مهما كانت عظيمة وكبيرة، وكنى الله بذلك عن أن هذا الإنسان لو كان له ملء الأرض ذهباً، ثم أراد أن يفك نفسه من النار بهذا المال فما نفعه هذا المال ولا أفاده أو فك أسره من النار لعدم قابلية المحل للفداء.

وهذا تخويف عظيم من الموت على الكفر وحضٌ للإنسان أن يتوب عنه حتى إذا أدركه الموت، أدركه وهو على الإيمان فينتفع عندئذٍ بكل عمل يقوم به أو يقدّمه لحياته الآخرة. . .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾. الذين ماتوا على الكفر لهم عذاب مؤلم موجع، وهذا تقنيط لهم من العفو لأن من لم يُقبل منه الفداء قد يشمله العفو فإذا رفعه الله بوقوع العذاب عليهم لم يبق لهم طريق للنجاة. . . ثم إنه سبحانه أسقط من أمامهم المساعدين لرفع هذا العذاب، فعندها يقع عليهم العذاب ويسقطون فيه فلا نجاة لهم منه. . .

قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿لَن تَنَالُوا۟﴾: يقال: نال المطلوب: إذا أصابه وتناوله بيده.

﴿ٱلْبِرَّ﴾: كلمة جامعة لوجوه الخير.

﴿تُنفِقُوا۟﴾: الإنفاق: إخراج المال عن ملكية الشخص وصرفه على غيره.

التفسير

﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾. ترغيب في الإنفاق ودعوة إليه وأنكم لن تبلغوا مرتبة الأبرار وأهل الكمال إلاَّ إذا أنفقتم من أعز ما عندكم وأفضل مما تحبون وترغبون...

فالإنفاق مما يحبه الإنسان يجعله في مرتبة الأبرار، وهم الأتقياء الصلحاء وأهل الجنة الأمناء. والإنفاق مما يحبه الإنسان يكشف عن روحية عالية تُؤْثِر حب الله وإعانة عباده وإيثارهم على نفسه، وبذلك يخرج المنفق عن حدود شخصه وذاته ليكون بحدود العطاء الذي انطلق من أجله وكان...

والإنفاق مما يحبه الإنسان وإن كان أصدق مصاديقه. . المال الذي يرفع عوز الناس ويسدّ حاجتهم ولكن له مصاديق أخرى، كبذل الجاه في معونة الناس، والبدن في طاعة الله، والمهج في سبيل الله.

إن الإنفاق يوطّد العلاقة بالله وبالناس، أما العلاقة بالله فلأنه يطيعه ويلتزم أمره ويؤثره على نفسه فيكون أمر الله أحب إليه منها.

وأمّا العلاقة بالناس فلِما يزرع هذا الإنفاق من الصلة والمودة ورفع الحرمان والقهر والحاجة، وهذا يُشعر الفقير بتعاطف الغني معه ويحس أن يداً حنونة تمتد إليه لتساعده في وقت الحاجة فتتبلسم جراحه وتطمئن نفسه. . .

إن بعض الناس يعزّ عليهم إخراج الدرهم والدينار من أيديهم مع كثرة صلاتهم وصيامهم وعبادتهم، وهؤلاء لم يتمتعوا أبداً بروحية الإسلام، ولم يبلغوا إلى درجة الأبرار وأهل الخير والصلاح فيحتاجون إلى إعادة النظر في تديّنهم والتزامهم والتفتيش بدقة متناهية عن مواضع الخلل في هذه النفوس لإصلاحها والعود بها إلى حقيقة الإيمان وواقعه، فإن الإيمان بآثاره الخيّرة وإيجابياته وليس بعنوانه وشعاره. . .

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾. ما تبذلونه من شيء سواء كان صغيراً أم كبيراً مما تحبون ومما لا تحبون رياء وسمعة، أم إخلاصاً وفي سبيل الله، فالله سبحانه يعلمه ويجزي به ولا يضيع عنده أجر عمل مهما قلّ.

قال تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِالتَّوْرَىٰةِ فَاتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ الظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ۗ فَاتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿الطَّعَامِ﴾: ما يُتناول من الغذاء، ويطلق على البرّ عند أهل الحجاز.

﴿حِلًّا﴾: حلالاً: وهو الجائز غير الممنوع من تناوله.

﴿إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

﴿حَرَّمَ﴾: الحرام: هو الممنوع من تناوله، وحرّم الشيء: منع من تناوله وخطره.

﴿فَأْتُوا۟﴾: من أتيت به: إن جئت به.

﴿فَاتْلُوهَآ﴾: فاقرؤها.

﴿افْتَرَىٰ﴾: الإفتراء: اقتراف الكذب وأصله من قري الأديم: إذا قطعه.

﴿فَاتَّبِعُوا۟﴾: من الإتباع: وهو اقتفاء الأثر.

﴿الْمِلَّةِ﴾: الطريقة وتطلق على الشريعة والدين.

﴿حَنِيفًا﴾: المائل عن الباطل إلى الدين الحق.

التفسير

﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾.

كان اليهود أشدّ الناس تعصُّباً لبعضهم وأكثرهم حسداً وبغضاً للإسلام والمسلمين، وقد اتخذوا أساليب عديدة مختلفة ومتنوعة الأشكال في مواجهة النبي ﷺ ومن معه، وأخذوا عليهم إحصاءً دقيقاً لكل كلمة وكل موقف حتى إذا لم يجدوا ما يشوّهوا به هذا الدين افتروا عليه كذباً ونفاقاً وراحوا يشككون في كل مقولة وينسبون الأمور إلى غير أصولها، وهذه واحدة من جُمَل كثيرة يذكرها القرآن ويفضح أساليبهم البالية ويتحداهم ويذهبون إليه ويفشّل خططهم من مصادرهم المعتمدة عندهم والمعتبرة لديهم...

كل الطعام المأكول وبدون استثناء كان حلالاً على بني إسرائيل... إنها إباحة عامة لكل ما يتغذى به الإنسان أباحه الله لبني إسرائيل قبل نزول التوراة إلاَّ ما حرّم «إسرائيل» على نفسه وهو «يعقوب» عليه السلام حيث يُنقل[1] «أنه كان إذا أكل لحوم الإبل هيَّج عليه وجع الخاصرة فحرم على نفسه الإبل، وذلك من قبل أن تنزل التوراة، فلما أنزلت التوراة لم يحرمه ولم يأكله»، فملاك هذا التحريم لم يكن في التوراة وإنما كان من «يعقوب» عليه السلام ولكن بني «إسرائيل» أصرُّوا أن ما كان محرماً من قديم فهو محرم في التوراة، وما حرّمه «يعقوب» على نفسه فهو محرّم عليهم نصاً وفي التوراة، وأنه حكم ثابت دائم لم يتبدل ولم يتغيّر فكيف يبيحه «محمد» ﷺ لأصحابه؟ وكيف يحكم بحليته؟ وهنا تأتي المفاجأة لبني «إسرائيل» وعلى يد النبي الأكرم ﷺ حيث يتحداهم بأمرٍ يقول الله فيه لنبيه.

﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ قل لهم يا «محمد»! وأنت تتحداهم فيما يذهبون إليه من تحريم لحوم الإبل، فأتوا بالتوراة وهلموا بها إلينا لنقرأها معاً، ونعرف من خلالها الكاذب من الصادق والمفتري على الله ممن يصدق الحديث معه...

---

(١) تفسير العياشي، ج١، ص١٨٤.

هلمّوا إلى التوراة فاستنطقوها فإن كانت كما تقولون فالحق كل الحق معكم وإلى جانبكم وإلاّ فأنتم المفترون على الله الكذب. . .

وما أيسر هذا التحدي على من يملك نواصي الحق. . . إنها طريقة سهلة لا تكلّف إلاّ هذا العناء الصغير، أن يتناولوا التوراة ويفتحوا أوراقها على ما يدّعون، وعندها تسقط مقولة النبي ﷺ فيما يذهب إليه. . . ولكنهم اليهود أهل الافتراء على الله وعلى أنبيائه لم يستجيبوا لهذا التحدي فأسقط ما في أيديهم. . من كذبهم ودجلهم وظهرت حقيقة ما يدّعون. . . إنه الزيف الذي يعيشه اليهود والتضليل الذي يمارسونه على كل الشعوب باستثناء الشعب اليهودي. . . لقد بان كذبهم وافتراؤهم وانفضحت نواياهم. فقال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴿٩٤﴾﴾.

فمن كذب على الله في التحريم والتحليل، وهو كذب عظيم وبهتان مبين بعد أن ظهر الحق وبان الصدق وانكشف افتراء اليهود على الله، فأولئك هم الظالمون للحقيقة ولله وللرسل ولأنفسهم ـ فظلمهم عام.

﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴿٩٥﴾﴾.

﴿قل﴾ يا محمد! ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ في التحليل والتحريم، حيث أحلّ لحوم الإبل لا كما يدّعيه اليهود، وهذا تعريض بكذبهم، وأنهم لا يملكون الحق في كلامهم ولا في سلوكهم.

﴿فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الذي لم يحرّم لحوم الإبل كما فعلت اليهود، ولا اتخذت الطرق الملتوية والافتراءات كما تفعل اليهود، بل كان ﴿حَنِيفًا﴾ تاركاً لكل الطرق والملل والأديان التي فيها الباطل عادلاً إلى دين الحق والهدى والتوحيد.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ لم يشرك بالله أحداً. . بل كان إمام الموحدين الذي علّم الناس التوحيد. . .

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧)﴾.

اللغة

﴿بَيْتٍ﴾: أصل البيت: مأوى الإنسان بالليل، ويقال: للمسكن: بيت من غير اعتبار الليل، وبيت الله: الكعبة.

﴿وُضِعَ﴾: بُني، وجُعل.

﴿بِبَكَّةَ﴾: هي مكة، سميت بذلك من التبّاك: أي الازدحام، لأن الناس يزدحمون فيها للطواف، وقيل: لأنها تبك أعناق الجبابرة.

﴿مُبَارَكًا﴾: البركة: الزيادة، وكثرة الخير الثابت بالنمو.

﴿هُدًى﴾: هادياً: وهي الدلائل التي نصبها الله للوصول إليه وإلى طاعته.

﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾: للناس جميعاً ـ هذا هو المراد بالعالمين هنا ـ.

﴿آيَاتٌ﴾: جمع آية: وهي الدلالة الواضحة.

﴿بَيِّنَاتٌ﴾: جمع بينة: وهي الظاهرة الواضحة.

﴿مَقَامِ إِبْرَٰهِيمَ﴾: محل قيام «إبراهيم» وهو الحجر الذي قام عليه لما ارتفع بناء البيت.

﴿ءَامِنًا﴾: أصل الأمن: طمأنينة النفس وزوال الخوف.

﴿حِجُّ﴾: الحج بالكسر مصدر، وقيل: اسم مصدر ومعناه لغة مطلق القصد ثم نقل إلى السفر إلى مكة لأداء المناسك المعروفة.

﴿ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ﴾: قدر عليه ـ والمقصود بالقدرة هنا: هي القدرة الشرعية المنصوص عليها.

﴿سَبِيلًا﴾: السبيل: هو الطريق.

﴿غَنِيٌّ﴾: الغنى: عدم الحاجة.

التفسير

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾.

يمكن أن يكون هناك سؤال عن أول ما بُني في الأرض لعبادة الله، كما يمكن أن يكون هناك كما ورد ـ أن اليهود ادعوا أن بيت المقدس هو أقدم البيوت لعبادة الله ـ ويقصدون بذلك أن يعيبوا على المسلمين توجههم نحو الكعبة، فجاءت الآية المباركة لتقرر حقيقة وتحكي واقعاً وتكشف عن أمر يكون فيه، فيصل القول في هذا الشأن. . .

أول بيت بني لعبادة الله هو الكعبة الشريفة، بناها آدم عليه السلام ثم جدّدها بعده الأنبياء، وكان «أبرز» من أعاد بناءها «إبراهيم» الخليل وولده «إسماعيل» بعد أن استقر الأخير في تلك الأرض الطاهرة المقدسة، وقد وردت الآثار والأخبار بذلك.

وبالإسناد الصحيح عن «أبي عبد الله» عليه السلام، قال: لما أفاض «آدم» من منى

تلقَّته[(١)] الملائكة، فقالت: يا «آدم»! بر حجُّك أمَا أنَّا قد حججنا هذا البيت قبل أن تحجَّه بألفي عام».

ويروي «الكليني» من خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام يقول فيها[(٢)]: «ألا ترون أن الله اختبر الأوَّلين من لدن «آدم» عليه السلام إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس قياماً إلى أن قال ثم أمر «آدم» عليه السلام وولده أن يثنوا أعطافهم نحوه فصار مثابة لمنتجع أسفارهم وغايةً لملقى رحالهم».

و﴿بكة﴾ اسم من أسماء مكة.

﴿مُبَارَكًا﴾.. أما بركته فظاهرة حيث تشد إليه الرحال ويقصده الحجاج من كل حدب وصوب يحملون معهم أقواتهم وأرزاقهم وتكون مكة مفتوحة لكل قاصد، تجبى إليها ثمرات كل شيء وتنقل إليها خيرات البلدان ثم يتزود منها الحجاج ما يتبرّكون به وينقلون بركته إلى من خلفهم من أهل بلادهم.

ومن بركته أيضاً ما تركه الأنبياء فيه من بركات، خصوصاً «إبراهيم الخليل» و«محمد الحبيب» ومن بركته أن المتعبد فيه يزداد ثوابه ويكثر أجره.

﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي هادياً، ولمزيد هُداه قيل هدى على حد قولهم زيد عدل ومن يسترجع تاريخ هذه البُنية حتى في عصر الجاهلية يرى بركتها تظهر على أهلها وعلى الناس، فقد كانت تلتقي عندها القلوب، ويختلف إليها الناس ويقدسها حتى من لا يرتبط بالله إلاّ بخيط رقيق...

وأمّا في الإسلام فقد تجلّى هذا الهدى حيث يقصدها الملايين لأداء الحج والطواف بها، وكم من نفوس تتطهر ويذهب ما فيها من علل وآفات وكم من أشخاص يرجعون إلى الله عندما تترائى لهم تلك الأماكن الشريفة.

وبالتالي فالنفوس تختلف وكل نفس تأخذ من الهدي ـ في تلك الأماكن ـ ما تكون مؤهلة له وقادرة على التقاطه واستيعابه والاستفادة منه...

---

(١) وسائل الشيعة، كتاب الحج، باب ١ من أبواب وجوب الحج، ج١/حديث ٦.

(٢) خطبة ١٩٣ المسماة بالقاصعة.

﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ في بيت الله وما حوله علامات واضحة تدل على شرفه وعُلوّ مقامه، ويكفي أن الملايين تقصده لزيارته والطواف حوله والتبرك بأحجاره وتنشوق للمسها ولثمها، وتتمنى جواره، كما أن من أعاد النظر في بنائها واحترام الخلق لها حتى في زمن الجاهلية. أدرك أن ذلك علامة على عظمتها وعلو شأنها. كما أن من تلك العلامات الظاهرة الخالدة.

﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وهو المكان الذي وقف عليه «إبراهيم» عليه السلام فأثرت قدماه في ذلك الحجر وبقي أثرهما إلى اليوم رغم مرور الزمان وتداول الحدثان، وكذلك الحجر الأسود، وزمزم والحطيم وغيرها من الأماكن المشرّفة في تلك البقعة الطاهرة.

﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ وهذه آية أخرى عظيمة فقد استجاب الله لخليله «إبراهيم» عليه السلام عندما دعا ربه قائلاً: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾[1] فتحوّل إلى نقطة فيها الإيمان والأمان وقد كان الرجل في الجاهلية يلاقي قاتل أبيه وأخيه فيمر عليه ولا يؤذيه، وجاء الإسلام فكرّس هذا الحق لهذه البقعة وتحوّلت إلى نقطة أمان ليس للإنسان فحسب، بل يأمن فيها حيوانها وطيرها وكل ما فيها من ذوات الروح حتى لو جنى أحدهم جناية خارج الحرم ثم دخل إليه حُرّم إخراجه بالقوة والعنف ولا يقام عليه حدٌّ، وإنّما يضيّق عليه في المأكل والمشرب ولا يتعامل معه بيعاً وشراءً وحديثاً حتى يخرج من الحرم فيقام عليه الحد.

- في الحديث عن «عبد الله بن سنان» عن «أبي عبد الله» عليه السلام قال: سألته عن قول الله (عز وجل) ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ البيت عَنَى أم الحرم؟

قال: من دخل الحرم من الناس[2] مستجيراً به فهو آمن من سخط الله، ومن دخل من الوحش والطير كان آمناً من أن يهاج أو يؤذى حتى يخرج من الحرم.

وعن «معاوية بن عمار» قال: سألت «أبا عبد الله» عليه السلام عن رجل قتل رجلاً

---

(١) إبراهيم/ ٣٥.

(٢) وسائل الشيعة، كتاب الحج، باب ١٣ من أبواب مقدمات الطواف، حديث/ ٢.

في الحل ثم دخل الحرم، فقال: لا يُقتل ولا يُطعم ولا يُسقى ولا يُباع ولا يُؤذى حتى يخرج من الحرم فيقام عليه الحد.

قلت: فما تقول في رجل قَتل في الحرم أو سَرق؟

قال: يقام عليه الحد في الحرام صاغراً لأنه لم ير للحرم حرمة وقد قال الله (عز وجل) ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾[1]. فقال هذا هو في الحرم، وقال: لا عدوان إلا على الظالمين.

وهذا الأمر واضح فإن من يجني خارج الحرم ثم يلوذ به ويحتمي في داخله يُعامل معاملة مختلفة عمن ينتهك حرمة الحرم فيجني فيه وفي داخله، لأنه هتك حصانة هذا الحرم بفعله فحق أن يُعاقب ولا يُحترم بعد فعله وتعدّيه..

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾، هذا تشريع للحج وإيجاب له على الخلق ولكن بشرط الاستطاعة - والجملة خبرية مستعملة في الإنشاء وهي أبلغ في الوجوب كما هو معروف ويمكن أن تبقى الجملة على خبريتها.

وهذه الآية مستأنفة لا علاقة لها بما تقدم ولا تندرج تحتها.

واللام في «ولله تفيد الاختصاص كما أن كلمة ﴿عَلَى﴾ تفيد الوجوب كما في أمثال هذا المقام وقد وردت الأخبار بعد انعقاد الإجماع على وجوب هذه الفريضة.

في الحديث عن «أبي عبد الله» عليه السلام قال:[2] من مات ولم يحج حجة الإسلام لم يمنعه من ذلك حاجة تجحف به أو مرض لا يطيق فيه الحج أو سلطان يمنعه فليمت يهودياً أو نصرانياً..

وفي الحديث عن «أبي عبد الله» عليه السلام في قول الله[3]: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ﴾[4] قال: هما مفروضان.

---

(١) البقرة/ ١٩٤.

(٢) وسائل الشيعة، كتاب الحج، باب ٧ من أبواب وجوب الحج وشرائطه، حديث/ ١.

(٣) وسائل الشيعة، كتاب الحج، باب١ من أبواب وجوب الحج، حديث/ ١.

(٤) البقرة/ ١٩٦.

وأمّا الاستطاعة المشروط بها هذا الواجب ـ بعد القطع أنها ليست هي الاستطاعة العقلية المفروضة في كل تكليف ـ فإنما هي الاستطاعة العرفية التي حددتها السنة الشريفة بالصحة وأمن الطريق والقدرة المالية والزاد والراحلة.

وفي الحديث عن «أبي عبد الله» عليه السلام يحدّد هذا المعنى[1] حيث يسأله السائل عن قول الله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ ما يعني بذلك؟

فيقول الإمام عليه السلام: من كان صحيحاً في بدنه فحلّى سربه ـ له زاد وراحلة فهو ممن يستطيع الحج...

وفي مضمون هذا الحديث أحاديث كثيرة ذكرها صاحب وسائل الشيعة.

وهذه الفريضة كما أنها في العمر مرة واحدة للأحاديث الصحيحة الناطقة بذلك، فهي على الفور في سنة الاستطاعة، ولا يجوز تأخيرها عن تلك السنة، وبهذا أيضاً وردت السنّة..

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿وَمَن كَفَرَ﴾: أي من ترك الحج وجيء بكَفَر بدلاً من ترك الحج تأكيداً لوجوبه وتغليظاً على تاركه وتوبيخاً شديداً لشدة هذا العصيان، وإن تاركه تاركاً لشعيرة من شعائر الإسلام، وأصلاً مهمّاً من أصوله، وهذا المعنى هو الذي يجب الذهاب إليه بإجماع المسلمين واتفاقهم على أن تارك الحج لا يعدّ كافراً ولا يعامل معاملته حتى لو مات، ويجهّز ويكفّن ويدفن وتطبّق عليه شعائر الإسلام في كل أموره حتى الميراث وغير ذلك.

وأمّا إذا جمدنا على ظاهر النص فلا بدّ وأن يحمل ذلك على ما لو كان ذلك الترك عن إنكارٍ له تشريعاً مما يؤدي إلى تكذيب النبي صلى الله عليه وآله والطعن في رسالته، وهذا الأمر من الصحة بمكان، وبه جاءت الرواية.

(١) وسائل الشيعة، كتاب الحج، باب ٨ من أبواب وجوب الحج، ح٤.

في الحديث عن «علي بن جعفر» عن أخيه «موسى»[١] عليه السلام قال: إن الله (عز وجل) فرض الحج على أهل الجدة في كل عام، وذلك قوله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال: قلت: فمن لم يحج منّا فقد كفر؟

قال: لا، ولكن من قال: ليس هذا هكذا فقد كفر.

ويختم سبحانه الآية بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إشارة إلى أن ما تأتون به من الطاعات والأوامر الإلهية وما أنتم ملزمون به إنما كان لأجلكم ولأجل مصالحكم، ولما فيه سعادتكم، وإذا تمردتم وعصيتم ولم تطيعوه فإنه لا تضره معصيتكم ولا ينقص من ملكه مثقال ذرة، لأنه الغني المطلق عن كل المخلوقات.

---

(١) وسائل الشيعة، كتاب الحج، باب٢ ممن أبواب وجوب الحج/ حديث١.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾: هم اليهود: لأن الله أنزل عليهم التوراة، والنصارى لأن الله أنزل عليهم الإنجيل.

﴿شَهِيدٌ﴾: عليم أو أنه يرى ويعلم.

﴿تَصُدُّونَ﴾: والصدّ: هو المنع.

﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: السبيل: الطريق، وسبيل الله: طريقه الذي هو الإسلام، والسبيل يذكر ويؤنث.

﴿تَبْغُونَهَا﴾: تطلبونها، من بغى الشيء: إذا طلبه.

﴿عِوَجًا﴾: العوج بكسر العين: الميل في الدين والقول والعمل، وبالفتح عوَجَ في الحائط والجذع.

﴿شُهَدَآءُ﴾: عالمون مطلعون.

التفسير

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

خطاب إلى النبي «محمد» ﷺ أن يواجه أهل الكتاب بهذا السؤال الذين سيعجزون عن الإجابة عليه..

لم تكفرون بآيات الله؟

لأي شيء تجحدون المعجزات والدلالات وما قام من البراهين على نبوّة «محمد» ﷺ؟

إنه سؤال يبتدىء بمخاطبتهم بـ﴿أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ المؤهلين لهذه الصفة، ومن كان مؤهلاً لحملها يجب أن يكون أميناً عليها، ففي هذا النداء توبيخ لهم بأنهم لم يحملوا هذا المعنى، ولم يكونوا من أهل هذا الاسم...

وقوله: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يحمل معه التحدي والتوبيخ لهم، وأنه لا عذر لهم ولا حجة في جحد آيات الله وإنكارها، وإذا لم يكن لهم عذر أو حجة في جحد وإنكار آيات الله فيكون أقبح الجحود وأشده نكراً...

﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد لهم، وأن كل هذا الإنكار منهم والجحود بمرأى من الله يعلمه ويحاسب عليه وسيوقع بهم العذاب.

ثم إن اليهود غاظهم اجتماع (الأوس) و(الخزرج) وإلفتهم ومحبتهم، ورأوا أنه لا مجال لهم ولا زعامة إن بقوا كذلك، فأثار «شماس بن قيس» الفتنة حيث أوعز إلى شاب يهودي فأخذ يرتجز الإشعار التي كانت بينهم في الجاهلية.. حيث أثار الضغائن حتى تواثبوا وشهروا السلاح على بعضهم وكادوا أن يقتتلوا وتقع الفتنة فتدارك النبي ﷺ ذلك وخرج إليهم قائلاً: «يا معشر المسلمين الله الله أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألّف بينكم ترجعون إلى ما

كنتم عليه كفاراً» ـ فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان كيْد لهم من عدوهم فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا وعانق الرجال بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ فنزلت الآية...

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ كرّر الخطاب وأعاده تأكيداً على أنهم لم يتحملوا هذه النسبة ولم يقوموا بحقها ومن حقها أن يؤمنوا بـ«محمد» ﷺ وبما جاء به، وبما بشرت به كتبهم من علامات وصفات ونعوت تنطبق على النبي ﷺ بشكل دقيق، وإذا لم يؤمنوا وأبوا إلاّ اليهودية.. فليتركوا الناس وحرية اختيارهم.. كفّوا يا أهل الكتاب عن تشكيك المسلمين بدينهم وزرع الارتياب في نفوسهم وإثارة ما فيه الاضطراب والفوضى.

﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ﴾ لم تمنعون المؤمنين عن إكمال شوطهم في حقل الإيمان والإسلام، وتروحون تشككونهم في دينهم وتثيرون التساؤلات الباطلة والاستفهامات السخيفة العارية عن كل صحة..؟!

إنه استفهام فيه إنكار عليهم أن تكون هذه هي طريقة أهل الكتاب... إن من أُعطي شيئاً من كلام الله يجب أن يرعاه ويحفظه ويبحث عن الناس الذين يلتقون معه فيه فيشد على أيديهم ويقوّيهم ويسدّد توجههم، ولكن هؤلاء اليهود اتخذوا طريقاً مغايراً ومخالفاً لهذا الأمر...

إن طريقتهم فضلاً عن جحدهم نبوة «محمد» ﷺ أن يقطعوا السبيل على الذين آمنوا ويشككونهم في دين «محمد» ﷺ وما جاء به، وليس ذلك لشبهة عندهم، أو عدم وضوح الآيات لديهم، بل لأنهم أرادوا الانحراف بهم عن دين الله إلى الطرق الباطلة المنحرفة.

﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ تطلبون من وراء هذا الصد عن طريق الإيمان طريقاً معوجاً تشككون الناس في الإسلام وبما عندكم وفي كتبكم من صفاته ونعوته وانطباقها عليه، وأنتم تعلمون صحة هذا الدين وصدق النعوت الموجودة في كتبكم على النبي ﷺ.

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ فالله يعلم كل حركة تتحركونها وهي في علمه قبل وقوعها لا ينساها ولا يغفل عنها، سيحاسبكم عليها ويعاقبكم على كل فعل صدر منكم يكون وراءه تشكيك في دين الله، أو في نبوة «محمد» ﷺ أو في تضليل المؤمنين وصدهم عن دين الله ومنعهم أن يكملوا شوطهم الإيماني الذي ابتدؤوا به وخطوا فيه خطوات. . .

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

اللغة

﴿تُطِيعُواْ﴾: الطوع: الانقياد، وتطيعوا: تنقادوا لهم وتعملوا بأمرهم.

﴿فَرِيقًا﴾: طائفة.

﴿يَرُدُّوكُم﴾: من ردّه: إذا أرجعه، ويردونكم: يرجعونكم.

﴿تُتْلَىٰ﴾: تقرأ.

﴿يَعْتَصِم﴾: يتمسك ويلتجيء، وأصل الاعتصام: المنع، ومنه: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾[1].

﴿صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: طريق لا اعوجاج فيها.

(١) هود/ ٤٣.

التفسير

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾.

بعد أن بيّن سبحانه كيف تحرك اليهود في سبيل الانحراف بالمسلمين عن دينهم، وكيف كانوا يصدونهم عن الإسلام بالشكوك التي يزرعونها والشبهات التي يلقونها وكشف تلك الخطط اللئيمة والمؤامرات الدنيئة، نبّه سبحانه هنا من الخطر الكبير الذي يلحق بالمؤمنين إن هم أطاعوا جماعة اليهود. . .

خطاب توجّه إلى المؤمنين المؤهّلين لحمل هذه السمة، وبأعزّ صفة يمكن أن يفتخروا بها، ألا وهي صفة الإيمان. . . أنتم يا معشر (الأوس) و(الخزرج) ومعكم حلفاءكم بل معكم كل الذين آمنوا إن تقبلوا قول هذه الطائفة من أهل الكتاب وهم اليهود فإنهم لا يقولون لكم خيراً ولا ينصحونكم بما فيه صلاحكم وهداكم، وإنما يزرعون بينكم الفتنة والانحراف والكفر، وبالتالي هذا يخرجكم عن دينكم وعقيدتكم وتعودون إلى أيام الجاهلية بما تحمل تلك الأيام من عقيدة فاسدة وكفر بالله وانحراف عن مستقيم الطريق. . .

إنها طائفة لا تريد لكم الخير ولا تبغي لكم الهدى، ومن هنا إن تطيعوها تعودوا إلى الكفر والضلال بعد إذ أنتم مؤمنون. . .

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ هذا استفهام فيه إنكار واستبعاد أن يحدث منهم مثل هذا الأمر، أو يصدر منهم مثل هذا الكفر والردة ويطيعوا الطائفة النكدة من اليهود. . .

وهذا الاستبعاد لطاعة الطائفة المعيّنة وهي من اليهود المؤدي طاعتها إلى الكفر، هذا الاستبعاد لأمرين:

الأول: آيات الله التي تقرأ عليكم. . . إنها كلمات الله الطيبة التي تعلمكم أصول العقيدة من التوحيد ونفي الشريك إلى بيان ما يتبع ذلك من الإيمان بالأنبياء والإيمان بالمعاد، وأيضاً تبيّن التكاليف المطلوبة منكم. . .

إن آيات الله تصرخ بالإلفة والمحبة بين المؤمنين، وتوجّه المسيرة الإيمانية نحو الله ونبذ الجاهلية والعنصرية، كما أن فيها التحذير من أهل الكتاب ودسائسهم وكيدهم وحيلهم. . .

إنها آيات الله تتلى عليكم تقول لكم: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾.

إنها آيات الله كما تدعوكم إلى الوحدة والإلفة تدعوكم إلى نبذ الفرقة والاختلاف، فما وقع بينكم من نعرات جاهلية وكادت أن تقع الواقعة بينكم يجب أن لا يكون. . .

الثاني: ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾، بين أظهركم رسول الله، فكيف تقع منكم الطاعة لليهود المؤدي ذلك بحسب التسلسل إلى الكفر والردة عن الإسلام إلى الجاهلية؟. . .

فيكم رسول الله الذي أرسله الله لهدايتكم فبيّن لكم كل ما فيه نفعكم وصلاحكم وما يجمع أمركم ويوحّد كلمتكم. . .

هل يعقل أن تقتتلوا فيما بينكم وفيكم رسول الله؟! هذا شيء لا يكون ومن البُعد بمكان. . . إلى رسول الله ﷺ يجب أن ترجعوا في أموركم وعند اختلافكم كما يجب عليكم أن تطيعوه وتسمعوا منه، فإنه لا ينقل إلاّ عن الله وما ينقله عنه فيه تحقيق مصالحكم في الدنيا وسعادتكم في الآخرة. . .

﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ من يلجأ إلى دين الله ويتمسك به ويعمل بمضمونه اهتدى إلى الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه.

إن من يتمسك بدين الله الذي أنزله على رسوله «محمد» ﷺ ويعمل به، فلا محالة إنه يصل إلى شاطىء الأمان ولا يعكّر صفوه كيد الكائدين ومكر الماكرين، وإن أمتنا متى رفضت الاستماع إلى أهل الكتاب وتمسكت بدينها بقيت مركز قوة ومصدر عزٍّ وكرامة تحفظ وجودها، ولا يكون لأحد فيها مطمع أو مغمز ولايؤثر عليها كيدٌ من قريبٍ أو بعيدٍ مهما كان كبيراً وخطيراً. . .

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعۡتَصِمُوا بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ۚ وَٱذۡكُرُوا نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

اللغة

﴿حَقَّ﴾: الحق: هو الواجب الثابت.

﴿تُقَاتِهِۦ﴾: من وقى، والوقاية: حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره، والتقوى في الشرع: حفظ النفس مما يؤثم.

﴿وَٱعۡتَصِمُوا﴾: تمسكوا.

﴿بِحَبۡلِ ٱللَّهِ﴾: الحبل: أصله في اللغة السبب الذي يوصل به إلى البغية والحاجة، وحبل الله: ما يتوصل به إليه، وأصله الفصل في الأجسام وتمايزها عن بعضها.

﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾: التفرق: هو التشتت والاختلاف بحيث تصبح كل جماعة مستقلة عن الأخرى ومنفصلة عنها.

﴿وَٱذۡكُرُوا﴾: تكلموا بأنعم الله عليكم.

﴿نِعْمَةَ﴾: النعمة: الحالة الحسنة.

﴿أَعْدَآءً﴾: الأعداء: الخصماء.

﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾: جمع بينكم ووحّدكم مع التئام.

﴿إِخْوَٰنًا﴾: جمع أخ: وهو المشارك آخراً في الولادة من الطرفين أو من أحدهما أو من الرضاع ويستعار لكل مشارك له في الدين أو في الصفة أو غير ذلك.

﴿شَفَا﴾: شفا الشيء: حرفه وطرفه.

﴿حُفْرَةٍ﴾: الحفرة هي: (الجورة) المكان الذي أخرج منه ما فيه من تراب وبقي فارغاً.

﴿فَأَنقَذَكُم﴾: نقذته وأنقذته واستنقذته: أي خلّصته ونجيّته.

﴿يُبَيِّنُ﴾: يكشف ويُظهر.

التفسير

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾.

كرّر سبحانه نداءه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا﴾ كما كرّر سابقاً قوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وفي هذا التكرار جمال وتوافق وانسجام، وكما كان هناك نداءه لهم لعيوب فيهم وأساليب قبيحة فيهم، يتخذونها لإضلال الناس والسّير بهم نحو الباطل، فالخطاب هنا للمسلمين تسديداً لهم وتذكيراً بما ينفعهم ويفيدهم، وبيان لنعمه عليهم كي يحفظوا هذه النعم ويستديموا بقاءها واستمراريتها...

أمر سبحانه المسلمين أن يتقوا الله حق تقاته وقد وقع المفسرون في أخذٍ وردٍّ وأنه ما المراد؟

﴿ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ فذهب بعضهم إلى استحالة ذلك لأن من يجهل الله لا يقدر على أن يتقيه مثل هذه التقوى اللائقة بجلاله.

ولكن هذا المفسر غفل أن تقوى الله يمكن أن تتحقق بالتزام أوامره واجتناب نواهيه، والسير وفق الطريق الإلهي الذي يرسمه لعباده حتى يبلغ الأمر إلى درجة التزام المستحبات وترك المكروهات وبتعبير بعضهم «أن يُطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر» ومثل هذه الدرجة يمكن أن يبلغها بعض الناس ممن شملتهم عناية الله كالأنبياء والرسل والأوصياء والأئمة عليهم السلام، ثم الناس بعدهم درجات حتى بلغنا عن بعض علمائنا أنهم لم يرتكبوا مباحاً قط فضلاً عن مكروه.

وذهب بعض المفسرين تبعاً لبعض آخر أن هذه الآية ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[1] وهذا القول يذهب إلى أن هذه الآية نسخ صدرها وبقي عجزها بدون نسخ ولكن النسخ مرفوض إذ لا رواية صحيحة تدعمه، وأيضاً دعوى النسخ هذه كانت لأجل الإشكال في إدراك هذه المرتبة من تقوى الله حق تقاته فعدلوا إلى قوله: ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ ولكن إذا أمكن إدراكها وبلوغها بالتفسير المتقدم فلا إشكال في المقام.

وأيضاً يمكن الجمع بين الآيتين، ومع إمكان الجمع لا تصل بنا القضية إلى النسخ ويصبح المعنى ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾.

والآية فيها حضّ شديد على الالتزام بالتقوى بأعلى وأرقى درجاتها.

﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ النهي هنا وإن كان واقع على الموت، ولكن مفاد الآية: إلزموا الإسلام وتمسّكوا به واستمروا عليه حتى إذا جاءكم الموت جاءكم وأنتم مسلمون لله منقادون له مطيعون لأمره، وهذا تحت الاختيار، ويمكن للمكلف أن يقع منه ويقوم به، فإن طاعة الله وطاعة رسوله وأوليائه تجعل بمقدور هذا الإنسان أن يحققها ويستمر عليها، فإذا جاءه الموت جاءه وهو على الإسلام والطاعة والإيمان، فيدخل الجنة ويبلغ مراتبها وإلا سقط في النار وهوى في دركاتها.

﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ وهذا أمر إلهي للأمة التي عاشت مع النبي

(١) التغابن/ ١٦.

وعانت من اليهود الذين راحوا يزرعون الفتنة بين صفوفها ويفرّقون بين الأحبة، ويحاولون بشتى الوسائل أن يفرّقوا ذلك الجسد الإسلامي الواحد ويمزقوا إلفته واجتماعه...

إن يهود المدينة ومن حولها كانوا أشد الناس عداوة للنبي ولدعوته وللمسلمين، ولذلك غاظهم ما رأوه من اجتماعهم ووحدتهم فكانوا يعملون باستمرار على زرع الفتنة يذكّرون كل قبيلة أسلمت بما سلف منها أيام الجاهلية نحو عدوها من القبائل الأخرى، ثم يثيرون الأخرى على الأولى، وهكذا كانوا ينفثون سمومهم ويشحنون بها قلوب المسلمين الذين كان دخولهم في الإسلام حديثاً.. إنهم كانوا يسمّمون الأجواء وينشرون العداء، وكان النبي والواعون من المؤمنين يتصدون لهذه المؤامرات ويعرفون كيف يطفئون نارها، وهذه الآية جاءت لتوجه المسلمين بمقتضى الأمر فيها إلى نبذ عادات الجاهلية وتقاليدها وما درجوا عليه واعتادوه منها...

جاءت الآية الكريمة بأمر الله لتنسف كل الماضي العفن المنتن... ذهب الماضي بعصبيته وأنانيته وقبليته وكل مخلّفاته وآثاره، وجاء الإسلام كدين منقذ على يد النبي الأعظم ﷺ بما في هذا الدين من عقائد وشرائع وأحكام وأخلاق وآداب والتزامات...

إن حبل الله الذي أمرنا الله بالتمسك به هو المعنى العام الذي يتلخّص بالتزام الإسلام وتطبيق ما جاء فيه..

وهناك تفسيرات متعددة لحبل الله منها: أنه العهد المذكور في قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[(١)].

ومنها جاء في القرآن لخبر الثقلين المتفق عليه بين المسلمين، وهو قول النبي «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله تعالى حبل ممدود من السماء إلى الأرض

---

(١) البقرة/ ٤٠.

وعترتي أهل بيتي» وقيل: إنه الإخلاص والتوبة، وقيل: إنه الجماعة للآيات التي بعده. . .

وهذه كلها جزئيات لمعنى عام وهو أن كل ما ينجي الأمة من النار ويدخلها الجنة فهو حبل الله، وهذا يتقوم بالتزام الإسلام كله أصولاً وفروعاً وكل متفرعاتهما. . .

﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ نهي عن التشتت والتمزق، وهذا مؤكد بالمعنى لقوله: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ فمتى اعتصموا بحبل الله لم يتفرقوا. . .

كما أن هذا النهي يمكن أن يكون لدواعي الحالة القائمة حيث كان اليهود يفرقون بين المسلمين فنهاهم الله عن الفرقة. . .

﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾.

والتذكير بنعم الله إشعاراً لهذا الإنسان أنّ عليه أن يقف عندها طويلاً ويفكر فيها كثيراً ويعيد حساباته بدقة ليشكر المنعم ويقوم بحق هذه النعم. . .

أذكروا أيها العرب المسلمون: نعمة الله عليكم التي تجسدت أُخوّة في الدين والإيمان بعد العداء فيما بينكم، ووقوع الحرب الطويلة التي أخذت منكم أعزّة من الأولاد والأنفس والأهل والأحباب. . .

إنها واحدة من النعم الكثيرة حيث كنتم أعداء تتقاتلون وتسفكون الدماء وتستبيحون أموال بعضكم وأعراضكم. . .

وكانت الحرب بين (الأوس) و(الخزرج) قد دامت أكثر من مائة سنة جرت فيها الدماء واستبيحت الأعراض وكان الحقد والعداوة والحسد يحكم كل تلك العلاقات، ثم بعد مجيء الإسلام وبعثة الرسول ﷺ ونزول القرآن تحول ذلك العداء والبغض والحقد إلى أخوّة وحب وتسامح وتعلّق بأحكام الإسلام. . .

ويمكن أن نعدّ من أهم معاجز النبي ﷺ هي معجزة جمع العرب تحت راية

الإسلام، فتلك الأمة التي مزقتها الأحقاد وتقاتلت مع بعضها على ناقة جرباء دامت عشرات السنين سقط فيها القتلى وسالت الدماء.

إن ذلك البدوي الذي كان يطارد الجراد ليصطاده ويقتات به ويركض خلف البعير في تلك الصحراء القاحلة ليرده إليه...

إن ذلك البدوي الذي كان كل همُّه السلب والنهب والثأر ليس عنده من الحضارة أدنى مقوماتها وأقل القليل منها...

أقول إن ذلك البدوي نفسه عندما جاء الإسلام حوّله إلى قائد عظيم يحمل راية الحق ويدافع عنها حتى الشهادة..

إن ذلك البدوي نفسه قد تحرّر من كل القيود التي تعيقه عن الانطلاق، فراح يحمل الإيمان لكل شعوب الكون، وأصبح كل همّه أن ينقل رسالة الله إلى الناس...

إن ذلك البدوي القديم قد عقد مع الله حلف إيمان من جديد فأصبح رائداً من روّاد الحق وواحداً من بناة أعظم الحضارات الإيمانية والإنسانية...

إن ذلك الإيمان عندما دخل إلى داخل هذه الروح البدوية صاغها صياغة جديدة تبدلت على أساسها معالم الدنيا ومفاهيمها وكل ما فيها...

وإن كل ذلك التغيير كان ببركة الرسالة التي أنزلها الله على رسوله «محمد» ﷺ فيمكن أن تكون إحدى معجزاته ﷺ أنه وحّد العرب الجفاة القساة الغلاظ وحولهم من ذلك ليكونوا أرقّ الناس قلوباً وأعطفهم وأرحمهم يبكون من خشية الله ويرقُّون على الضعيف ويؤثرون غيرهم على أنفسهم ويجدون لذتهم في سرور الآخرين وسعادتهم...

من هنا يذكّر الله العرب كيف كانوا أعداءً فألّف الله بينهم وجمع شملهم فصاروا بنعمة الله إخواناً يتعاونون ويتكاتفون ويتعاطفون، ويصبح كل واحد منهم يحدب على الآخر ويعطف عليه ويدفع عنه الشر والأذى، ويصبح همُّه رضاه وسروره والحفاظ عليه..

﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾. وهذه نعمة الإيمان.. وهي من نعم الآخرة. وأثرها هناك أعظم من أثرها في الدنيا، وإن كان أثرها في كل منهما ظاهر...

كنتم (الأوس) و(الخزرج) وكل العرب مشرفين بكفركم على النار لا يفصلكم عنها إلاّ الموت، حيث تسقطون في جهنم فنجّاكم الله منها وخلّصكم من لظاها ببركة الإسلام ونبي الإسلام وشريعة الإسلام.

ومن درس عقائد العرب ـ قبل الإسلام ـ وعقائد غيرهم من الناس والأمم وجد الإسفاف في الفكر والكفر والجحود وعبادة الأصنام والأوثان حتى وصل بهم الأمر أن جعلوا معبودهم من تمر، حتى إذا جاعوا أكلوه وربما قدسوا الحجر وحملوه معهم حتى إذا احتاجوا إليه جعلوه أثافي للقِدْر، وهكذا.

ومصير هؤلاء إلى النار لولا الإسلام الذي دخل القلوب، وغيّر طبائعهم كما غيّر أفكارهم ومفاهيمهم وأنقذهم من تلك النار إلى الجنة وما فيها من حور عين ونعيم دائم مقيم...

وفي الحديث عن «أبي عبد الله عليه السلام كان إذا ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله قال: بأبي وأمي وقومي وعترتي وعشيرتي، عجبٌ للعرب كيف لا تحملنا على رؤوسها والله (عز وجل) يقول في كتابه: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ فبرسول الله صلى الله عليه وآله أُنقِذوا»...

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

مثل ذلك البيان المتقدم الشافي الكافي يبيّن الله آياته ويظهرها لكم ويكشفها أمام أعينكم لكي تهتدوا بها إلى خير الدنيا وسعادة الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿أُمَّةٌ﴾: من الأم: وهو القصد، وفي اللغة تستعمل في معانٍ وهنا يراد منها جماعة.

﴿يَدْعُونَ﴾: يحثون على فعل الخير ويدفعون نحوه.

﴿الْخَيْرِ﴾: ما يرغب فيه الكل كالعقل مثلاً والعدل والفضل والشيء النافع.

﴿الْمَعْرُوفِ﴾: اسم لكل فعل يُعرف بالعقل أو الشرع حسنه.

﴿يَنْهَوْنَ﴾: من النهي: وهو الزجر عن الشيء.

﴿الْمُنكَرِ﴾: اسم لكل فعل يُعرف بالعقل أو الشرع قبحه.

﴿الْمُفْلِحُونَ﴾: الظافرون المنتصرون...

التفسير

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾.

هذه اللام في ﴿وَلْتَكُن﴾ تسمى لام الأمر.

فهنا أمر من الله للأمة أن تقوم بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا تكليف وجوبي دلَّت عليه الآية ويعضدها الأخبار الكثيرة التي جاءت لتؤكد وجوب هذا الأمر.

والله سبحانه بعد أن أمر المؤمنين بالتقوى في الآية المتقدمة: ﴿**واتقوا الله حق تقاته**﴾ وأراد تحصين أنفسهم أولاً: أراد هنا أن يحملوا الناس الآخرين على هذه التقوى، أو يحملوا هذه التقوى إلى قلوب الآخرين ليصبح المجتمع كله طاهراً يحمل الفضيلة ويعيشها ويتحرك فيها...

ثم إن قوله تعالى: ﴿وَمِنكُمْ﴾ ماذا يراد بها هل التبعيض أو البيان؟ وقد ذهب إلى كل طائفة من المحققين وأهل الرأي وما عليه الفهم العام أنها تبعيضية وأن على الأمة أن تهيىء بعض الأفراد من أجل القيام بهذا الواجب وتنفيذه، ومن هذا استفادوا الوجوب الكفائي لهذا الواجب وأنه إذا قام به البعض سقط عن الجميع.

المعروف والمنكر

لا يكاد يُجهل معنى المعروف أو معنى المنكر وخصوصاً عند أهل الشرع والدين..

فالمعروف هو كل ما أمر به الشرع سواء كان واجباً أو مستحباً، والمنكر بخلافه.

ومن المتيقن الذي لا شك فيه أن الشرع يريد الأول ويدعو إليه ولا يرغب في الآخر بل وينهى عنه، ومن هنا حثّ على الأول ورغّب فيه ورتب الثواب عليه والأجر، وزجر عن الآخر وحذّر منه ورتب العقاب عليه.

ولكي يحفظ وجود المعروف ويتم انتشاره ولكي يمنع من المنكر ويضيّق

عليه، كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من واجب الأمة أن تقوم فيه أو أن تختار منها من يؤديه..

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يشكل رقابة دائمة من الأمة على نفسها بحيث تعيش كلها في حالة طوارىء لأي منكر يمكن أن يتحرك فيها، فتتحرك لمكافحته والقضاء عليه وهذا نوع حصانة من الأمة على نفسها..

أما الأحاديث الدّالة على وجوبه والتي تحث المسلمين على القيام به، فهي كثيرة: اكتفي منها بنقل عيّنات معدودة.

في الحديث عن «أبي جعفر» و«أبي عبد الله عليهما السلام»[1] قالا: ويلٌ لقوم لا يدينون الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

عن «أبي جعفر» عليه السلام قال: يكون في[2] آخر الزمان قوم ينبع فيهم قوم مراؤون.. إلى أن قال: ولو أضرّت الصلاة بسائر ما يعملون بأموالهم وأبدانهم لرفضوها كما رفضوا أسمى الفرائض وأشرفها. إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة عظيمة بها تقام الفرائض هنالك يتم غضب الله (عز وجل) عليهم فيعمُّهم بعقابه فيهلك الأبرار في دار الأشرار والصغار في دار الكبار، إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء ومنهاج الصلحاء فريضة عظيمة بها تقام الفرائض وتأمن المذاهب وتحل المكاسب وتُردّ المظالم وتعمر الأرض وينتصف من الأعداء ويستقيم الأمر.

روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: لا تزال[3] أمتي بخير ما أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وتعاونوا على البر، فإذا لم يفعلوا ذلك نُزعت منهم البركات وسُلط بعضهم على بعض ولم يكن لهم ناصر في الأرض ولا في السماء.

ثم هناك بعض الأمور التي يجب توفرها في القائم بذلك، وبعض الشروط

---

(١) وسائل الشيعة، ج١٦، باب ١ من أبواب الأمر بالمعروف، حديث ١ ـ ٦.
(٢) وسائل الشيعة، ج١٦، باب ٢ من أبواب الأمر بالمعروف، ح٦.
(٣) وسائل الشيعة، ج١٦، باب ١ من أبواب الأمر بالمعروف، حديث ١٤ ـ ١٨.

التي يحدّدها الفقهاء لوجوبه تارة ولجوازه أخرى، ولحرمته ثالثة، بحيث يختلف الأمر من واحد لآخر، ومن قضية لأخرى، وليس هنا محل بحث تلك الأمور، بل محلها الفقه، وهي مدونة بشكل كامل قد أتى عليها الفقهاء دراسة وتحقيقاً. . .

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿تَفَرَّقُوا﴾: انفصلوا وأصبح كل أناس جماعة مستقلة، وأصله الفصل في الأجسام وتمايزها عن بعضها.

﴿اخْتَلَفُوا﴾: من المخالفة: وهي أن يأخذ كل واحد طريقاً غير طريقه الآخر في حاله أو قوله.

﴿الْبَيِّنَاتُ﴾: البراهين الواضحات.

﴿تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾: إما على الحقيقة فيكون لون البياض إشارة يعرف بها أهل الإيمان وإمّا كناية عن الفرح والبشر والسرور.

﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾: أما على الحقيقة فيكون لون السواد علامة يعرف بها أهل الكفر والمعاصي، وإما كناية عن الغم والحزن...

﴿ذُوقُوا﴾: الذوق: وجود الطعم بالفم، وأصله فيما يقل تناوله دون ما يكثر وقد اصطلح في القرآن على الكثير.

التفسير

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾.

أهل الكتاب:

اختلف أهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ اختلافاً كبيراً فيما بينهما كطائفتين وأهل دينين، واختلف كل قوم فيما بينهم اختلافاً كبيراً وانقسموا على أنفسهم وتعددت فرقهم، وقد أحصى علماء الأديان مذاهب ومدارس لهؤلاء القوم كثيرة..

ونحن نجد في لبنان عيّنة مشاهدة ـ بل في غير لبنان أيضاً ـ نجد الكنائس التي تخصّ كل طائفة، وقد نجد في بلدة واحدة أكثر من خمس كنائس وكل كنيسة لها طقوسها ولها رجال دينها ولها مذهبها الخاص حتى أنهم اختلفوا في ميلاد السيد «المسيح» عليه السلام وفي أعيادهم وفي شعائرهم، وهذا الاختلاف لم ينشأ حديثاً ولم يتكوّن بفعل مرور الزمن بل له جذوره العميقة التي لعبت فيها الأهواء فأنشأت هذا الاختلاف...

لقد كان هذا التفرق والاختلاف بعد أن رفع الله «عيسى» إليه وحدث ما حدث من دخول الأهواء والأغراض والمطامع والمنافع وأخذ كل واحد ممن له علاقة ولو أوهى من بيت العنكبوت يسنّ طريقة ويشرّع أمراً حتى تأصلت هذه المذاهب والمدارس وتلقتها الأجيال التالية وكأنها رسالة «المسيح» عليه السلام واتخذت صبغة متميزة عن غيرها، وبهذا تفرق أهل الكتاب واختلفوا وتنابذوا، بل تحاربوا وسفكت دماء واستبيحت أعراض وسلبت أموال وانتهكت حرمات.. هذا ما حدث بين أهل الكتاب...

الله سبحانه ينهانا ويحذرنا أن نفعل فعل أهل الكتاب فنتفرق في الدين ونختلف في اتباع الأهواء بعد الدلالات الواضحات على الحق التي بها تصل الأمة إلى الإلفة والاجتماع ووحدة الكلمة... لم يكن الاختلاف في الأمة

والتفرق لقصور في البيان وعجز في الحجة بل هذه الجهة مصانة وواصلة لا غبار عليها وإنما نشأ الإختلاق وحدث التمزق للأغراض الساقطة والأهواء المتبعة والمنافع التي تتشوّق إليها النفوس المريضة. . .

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أولئك ـ الذين تشبهوا بمن تفرقوا واختلفوا من أهل الكتاب ـ ولسبب هذا التفرق والاختلاف لهم عذاب عظيم، وهذا تهديد منه سبحانه لنا إذا وقع التفرق والاختلاف بيننا. .

﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٌۚ﴾ هذا في الآخرة، وهو بيان لحال أهل الحق وأهل الباطل. .

و«بياض الوجوه وسوادها»: إما أن يحمل على الحقيقة ويكون ذلك علامة يعرف بها الصالحون وأهل الخير والطاعة، أو علامة يعرف بها الصالحون وأهل الشر والمعصية.

أو يكون «بياض الوجوه»: كناية عن الفرح والسرور وانشراح الصدر والبهجة لما يلاقيه من النعيم والفضل الكبير، وهذا مستعمل ومعروف، ويكون «سواد الوجوه» كناية عن الكآبة والحزن وما ينتاب صاحب المعصية من الهم والغمّ وهذا أيضاً معروف، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ۝٥٨﴾[1].

وقدّم سبحانه في الذكر أهل الوجوه البيض وهم أهل الثواب لشرفهم وكرامتهم عنده. . .

﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ۝١٠٦﴾.

هذا تفصيل لحال الفريقين وبيان لعاقبة كل منهما وما ينتظره يوم القيامة. . .

فالذين اسودّت وجوههم لكفرهم وانحرافهم، يقال لهم: أكفرتم بعد إيمانكم؟ وهو سؤال استفهام لا يراد به حقيقة الاستفهام وإنما هو للإنكار

---

(١) النحل/٥٨.

والتعجّب من فعلهم، وكيف يقدمون على هذا الانحراف مع ما فيه من الخطر والزلل. . .

ثم اختلفوا في المراد في بقوله: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ فذهب قوم من المفسرين إلى أن المراد به كل بني «آدم» عليه السلام وإيمانهم يراد به ما أخذه الله عليهم وهم ذر في ظهر «آدم» عليه السلام ويكون كل من ينحرف عن هذا العهد قد كفر بعد الإيمان. . .

وذهب بعضهم إلى أن كل من وصلته الآيات الدالة على الله وتوحيده ثم لم يعمل النظر فيها فقد كفر.

وذهب بعض ثالث إلى حمل الآية على بعض أهل الكتاب ممن وصلته البشائر بالنبي محمد ﷺ وعلم نعوته وأوصافه ثم لمّا بعثه الله كفر به ولم يؤمن برسالته.

ومن المفسرين من حمل الآية على من ارتدّ بعد الإسلام، وهناك من قال أنه يراد بها أهل النفاق أو أهل البدع أو الخوارج. . .

وعلى كل حال فالعبرة بعموم النص وهو منطبق على كل من جاء بما فيه ردّته عن الإسلام بعد إيمانه، ويكشف ذلك الحكم ما هو علة وسبب فيه، بقوله: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، فالعلة هي الكفر، والنتيجة العذاب المترتب على هذه العلة. . .

ثم إن هذا الأمر ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أمر للإهانة ومن أجل تقرير المأمور به.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ أما أصحاب الخير والحق وأهل التقى والإيمان السعداء الأبرار، فإنهم في الجنة التي هي محل رحمة الله، وعبّر بالحال عن المحل، دائمون فيها لا يتحولون عنها ولا يخرجون منها. . .

قال تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾.

اللغة

﴿ءَايَٰتِ﴾: حجج وبراهين.

﴿نَتْلُوهَا﴾: نقرأها.

﴿تُرْجَعُ﴾: تعود.

﴿ٱلْأُمُورُ﴾: الأمر: الشأن، والأمور: القضايا.

التفسير

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾.

ما تقدم من الآيات التي ذكرناها لك من دلائل التوحيد والوعد والوعيد وقرأناها عليك مما فيها، فهي حق وفيها الحق من حيث الإحسان إلى المحسن والعقاب إلى المسيء.

﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ جلّ سبحانه عن الظلم وكما في الدعاء «إنما يحتاج إلى الظلم الضعيف» وهو القوي المطلق الذي بيده الأمور... وإذا كان غنياً عن

ظلم العباد فهم إذن الذين يظلمون أنفسهم بانحرافهم ومعصيتهم وبعدهم عن ساحة رحمته.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قالوا: إن هذا دليل على عدم ظلمه سبحانه لأن الظالم يمارس الظلم إما لجهله أو لعجزه أو لحاجته، والله منزّه عن ذلك لملكه العالم وقدرته على تدبيره وعلمه بتفاصيله...

وعلى كل حال فهو الحاكم المتصرف الذي له ملك السماوات والأرض ويفعل في ملكه ما يشاء.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ مصير العباد إلى الله وحسابهم عليه يجازي المحسنين بالجنة ويعاقب المسيئين بالنار والعبد نفسه هو الذي يرسم طريقه ويختار آخرته...

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

اللغة

﴿خَيْرٌ﴾: الخير: ما يرغب فيه الكل كالعقل مثلاً والعدل والفضل والشيء النافع.

﴿أُمَّةٍ﴾: من الأم. وهو القصد، وفي اللغة تستعمل في معان وهنا يراد منها جماعة وطائفة.

﴿أُخْرِجَتْ﴾: أظهرت.

﴿تَأْمُرُونَ﴾: الأمر: هو الطلب من العالي إلى السافل بصيغة معينة كأفعل وما أشبه ذلك وهنا يراد به البعث نحو الخير.

﴿الْمَعْرُوفِ﴾: اسم لكل فعل يُعرف بالعقل أو الشرع حسنه.

﴿تَنْهَوْنَ﴾: من النهي: وهو الزجر عن الشيء.

﴿الْمُنكَرِ﴾: اسم لكل فعل يُعرف بالعقل والشرع: قبحه.

﴿الْفَاسِقُونَ﴾: الفسق: هو الخروج عن طاعة الله ويطلق على الكفر كما هو الحال.

﴿يَضُرُّوكُمْ﴾: الضرّ: سوء الحال، وضرّه: إذا جلب إليه ضراً.

﴿أَذًى﴾: الأذى: ما يصل إلى الحيوان من الضرر إما في نفسه أو جسمه أو تبعاته دنيوياً كان أو أخروياً.

﴿يُوَلُّوكُمُ﴾: تولى: إذا عدي بنفسه، إقتضى معنى الآية معنى الولاة، وليت وجهي كذا: أقبلت به عليه، وإذا عدي بـ «عن» اقتضى الإعراض.

﴿الْأَدْبَارَ﴾: جمع دبر: وهو مؤخر كل شيء، وتولية الإدبار: كناية عن الانهزام وهو أمر معروف.

﴿لَا يُنصَرُونَ﴾: النصر: المعونة.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾: لصقت بهم وأُنزلت فيهم.

﴿الذِّلَّةُ﴾: الذل: والذليل: هو المقهور مع المهانة.

﴿ثُقِفُوا﴾: وُجدوا وصودفوا.

﴿بِحَبْلٍ﴾: الحبل: أصله في اللغة السبب الذي يوصل به إلى البغية والحاجة، وحبل الله: ما يتوصل به إليه.

﴿وَبَاءُو﴾: رجعوا: أو بمعنى مكثوا من البوء: وهو المكان ومنه تبوأ فلان منزل كذا. . .

﴿بِغَضَبٍ﴾: غضب الله: عقوبته.

﴿ٱلْمَسْكَنَةُ﴾: الفقر أو أشد الفقر، ومن معاني المسكين: الضعيف الذليل، والذليل: المقهور...

﴿يَعْتَدُونَ﴾: من الاعتداء: وهو تجاوز الحق والظلم فيه.

﴿سَوَآءً﴾: متساوون، ليسوا سواء: لا يتساوون.

﴿قَآئِمَةٌ﴾: مستقيمة ثابتة.

﴿يَتْلُونَ﴾: يقرؤن: وأصل الكلمة من الإتباع فكأن التلاوة هي إتباع اللفظ للفظ.

﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾: أوقاته وساعاته. ومفرده إِنًى على وزن مِعًى، وقيل: واحده أنى على وزن عصا.

﴿يُسَٰرِعُونَ﴾: يبادرون.

﴿يُكْفَرُوهُ﴾: يجحدوه من الكفر بمعنى الجحود سُمي منع الجزاء كفراً لأنه بمنزلة الجحد والستر.

التفسير

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾.

وقع الخلاف في ﴿كُنتُمْ﴾ وهل كانت هذه تامة أو ناقصة أو زائدة.

والأقرب أنها تامة وكأن الله يضع هذه الأمة موضع الخيرية المطلقة من الأمم، وكأن ذلك الأمر مفروغ عنه...

الله سبحانه أظهر هذه الأمة وجعلها خير الأمم بما تحمل وتعمل وتعتقد وتتحرك...

إنها أمة رائدة تحمل الخير للناس وتبشّر به وتقتلع الشر منهم وتدفع به؟ فهي بعد اكتمالها وكمالها تخرج بهذا الكمال إلى الناس كلهم من أجل إنقاذهم والأخذ بأيديهم لما فيه صلاحهم. . .

إنها أفضل أمة على مسرح الحياة منذ تكوّنت هذه الحياة وابتدأت تتحرك على هذه الأرض. . .

وهذه الخيرية ليست جزافاً أو اعتباطاً، بل لأنها أمة تأمر بالمعروف المتمثل بكل فعل يرضاه الله ويحبه ويدعو إليه كالصلاة والصيام والحج والزكاة وإعانة المحتاج وسد عوزه وغير ذلك من الأمور التي تندرج تحت قائمة المعروف.

وخيرية هذه الأمة أنها أمة تنهى عن المنكر، والنهي عن المنكر يتمثل بالردع عنه والمنع منه سواء كان باليد أو باللسان أو القلب، والمنكر يتمثل بترك الواجبات وظلم العباد والاستبداد بالناس والاعتداء على الحقوق، وغير ذلك مما يدخل تحت قائمة المنكرات. . .

فالأمة بكل شرائحها تحمل المعروف وتعمل به وتدعو إليه كما أنها تتنكّر للمنكر وتبتعد عنه وتزجر من يفعله ويقوم به بشتى السبل ومختلف الطرق.

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾ فهي صاحبة عقيدة بالله تؤمن به وتتحرك بأمره ولا تخرج عن إرادته. . .

وقدّم سبحانه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله، لأن الآية مسوقة لبيان هذا الأمر، أو لأن الإيمان بدون هذا الفعل يتعرى ولا يصبح له أثر كبير أو لأن الإيمان مما اشتركت به كل الأديان، بينما انفردت هذه الأمة بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فاقتضى ذلك تقديمه. . .

﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْۚ﴾.

هذا ترغيب لأهل الكتاب في الإيمان بالنبي ﷺ وما جاء به، وأنهم لو آمنوا لأدركوا نعيم الدنيا وسعادة الآخرة كما أدركها المؤمنون من أمة محمد ﷺ. . .

ثم فصّل ما دعا إليه ومدى استجابة أهل الكتاب بقوله:

﴿مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ كـ عبد الله بن سلام وأصحابه.

﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي الكافرون: وعبّر بالفسق لعله إشارة إلى أنهم كذلك حتى بحسب أديانهم وشرائعهم، وأنهم غير مؤهلين للأمانة أو لقبول قولهم لفسقهم...

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ لن يؤثروا على إيمانكم ووحدة صفكم وقوة شوكتكم، نعم سيصدر منهم بعض الأذى اليسير كالسب والشتم والتّهم والطعن، وهذا مما يتحمله الناس عادة.. وهذا من الإخبار بالغيب تحقق في الواقع...

﴿وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾.

وإذا حاولوا قتالكم وحربكم فلن يعودوا إلاّ بالهزيمة يجرّون أذيال الخيبة والخسارة... واستعمال «تولية الإدبار» في الهزيمة أمر معروف ومستعمل...

وهذا أيضاً مما وقع وجرت فصوله على أرض الواقع وتحقق مضمونه للعيان حيث لم يظفر اليهود في موقع واحد، بل كانت الهزيمة تلاحقهم من حصن إلى حصن حتى فرض الله عليهم الجلاء عن الجزيرة العربية كلها...

﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ لا ترتفع لهم راية ولا يحصل لهم قوة فهم مخذولون لا يكتب لهم نصر...

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا﴾. لزمتهم الذلة وأحاطت بهم بحيث لا تفارقهم أو تخرج عنهم أينما وُجِدوا وحيثما صُودفوا...

قال بعضهم أن هذا الضرب عليهم بالذلّة ضرب تشريعي، حيث يجب عليهم دفع الجزية للمسلمين حيثما كانوا بما تمثل هذه الضريبة من إذلال لهم واحتقار لوجودهم.

وقيل: إن ضرب الذلّة عليهم هو أمر تكويني لمخالفتهم للدين وقتلهم للأنبياء وهذا مشاهد على امتداد القرون والعصور، فهم باستمرار مطاردون مكروهون مبغوضون لا يحبهم إلا ساقط أو سافل أو وضيع لا أصل له...

﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ هذا استثناء من المذلّة العامة التي تلحق اليهود في جميع أحوالهم.. فهم أذلاء في كل الأحوال إلاّ إذا اتصلوا بالله واعتصموا به والتجأوا إليه سواء كان ذلك بدفع الجزية أو بالإيمان به وبما جاءت به رسله...

أو بذمة المسلمين التي ترجع في النهاية إلى أمر الله التي أمضاها وأنفذها وجعلها مقبولة...

أو يفسر ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ أي أنهم يبقون ذيولاً لغيرهم من الأمم المستكبرة، وبذلك يحتمون بهم ولا يكون لهم استقلالية أو وجود على حِدة كما هي حال بقية الأمم والشعوب...

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ رجعوا بغضب من الله، قد نزل بهم، وهو كناية عن استحقاقهم عقوبة قوية منه تنزل بهم...

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ أحاط بهم الفقر ولحقهم حيثما كانوا، فهم فقراء باستمرار في الظاهر، وقلما وجدت يهودياً يُظهر الغنى والثراء، فكأن الفقر من شعائرهم التي يرفعونها باستمرار حتى أننا وجدنا هذا بعد قيام كيانهم الغاصب في فلسطين، فقد صوّروا للعالم أنهم ضعفاء فقراء يحيط بهم العرب من جوانبهم يريدون ابتلاعهم مما جعل بعض الدول تساندهم ظناً منها بصدقهم، وإن كانت الدول بأكثريتها الساحقة تعرف كذبهم ودجلهم ومدى هذه الدعايات المضللة غير الصحيحة...

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

ذلك الذي لحقهم ونزل بهم من ضرب الذلّة عليهم ورجوعهم بغضب الله وضرب المسكنة عليهم ذلك كله لم يكن إلا لجحودهم الدلالات الواضحة التي قامت على رسالات الأنبياء ومنها رسالة النبي محمد ﷺ.

وكذلك لأنهم عمدوا إلى الأنبياء فقتلوهم بغير حق ـ وهذا القيد ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ للتوضيح ـ وإلاّ فليس هناك قتل للأنبياء بحق. فهم اعتدوا على الله حينما

أنكروا الدلالات التي نصبها للوصول إليه، وقتلوا الأنبياء الذين حملوا رسالاته وليس هناك أشد وأكثر قبحاً وظلماً من هذين. . .

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي لحقهم من ضرب الذلّة عليهم وغضب الله عليهم وضرب المسكنة.

﴿بِمَا عَصَوا﴾ عصوا الله وتمردوا عليه ورفضوا أحكامه ولم يقوموا بأوامره ويتركوا نواهيه.

﴿وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ يتعدون حدود الله ويتجاوزونها بالمعصية والتمرد.

﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ فإذا كانوا بشكل عام كما تقدم يحملون الذلّة والمسكنة ويقتلون الأنبياء ويعتدون ويعصون فعلى ذلك فلا يتساوون كلهم بذلك بل هناك جماعة منهم لا يحملون الأوصاف المتقدمة ولا يعملون الأعمال السابقة، ثم أخذ سبحانه في بيان صفات هذه الفئة المخالفة للأولى والتي لا تتساوى معها في أعمالها. . .

﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾.

إنها جماعة مخصوصة لها علاماتها ومميزاتها وتحمل صفات وملامح تختلف عن ملامح الجماعة الأولى التي اعتدت وتجاوزت وفعلت ما فعلت. . .

وقد وصفهم الله بصفات:

١ ـ ﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ مستقيمة على طاعة الله وعبادته وتنفيذ حدوده وما أمر به لم تخالفه ولم تعمل بغير إرادته. . . إنها أمّة ثابتة على أمر الله.

٢ ـ ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ يقرؤون كلام الله المنزل في ساعات الليل وأوقاته فهم مع الله في تلك الأوقات التي يهجع فيها غيرهم وينامون. . .

٣ ـ ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ فإذا اعتبرناه حالاً من قوله: ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ﴾ فيصبح المعنى يقرؤن الكتاب المنزل حال سجودهم مبالغة في الخشوع والخضوع. .

وأمّا إذا اعتبرناه كاملاً مستقلاً فيكون المعنى إمّا يخضعون لله ويذلّون له أو

يراد بالسجود هنا الصلاة، لأن السجود من أهم أركانها وقد يطلق البعض ويراد به الكل للعلاقة المسوّغة لذلك بين الجزء والكل.

٤ - ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ والإيمان بالله يستلزم الإيمان به كما يحق لجلاله ويستتبعه الإيمان بأنبيائه وكل ما أراده منهم. والإيمان باليوم الآخر يستدعي الاستعداد له بالتحرّز عن المعاصي والقيام بالواجبات.

٥ - ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ لحبهم للآخرين ينقلون إليهم الكمال ويحملونهم عليه... إنهم يحثّون باستمرار على فعل كل خير.

٦ - ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ يردعون المفسدين عن فسادهم ولا يقبلون بوجود ما يهدد مصالح الإنسان في دنياه وآخرته...

٧ - ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ يبادرون إلى فعل الخير مما فيه نفع الناس وقضاء حاجاتهم وما يوفر لهم السعادة... والمسارعة هي تعجيل ما ينبغي فيه التعجيل ويكون ذلك مستحسناً لما فيه من تقديم للخير وتوفيره.

وأما العجلة في الأمور التي تكون غير محمودة فلأنها تعني تقديم ما لا ينبغي تقديمه، ولذا تذم العجلة في الأمور وتحمد المسارعة فيها وهذا هو الفرق بينهما...

٨ - ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أولئك الذين تقدم الحديث عنهم من جملة الصالحين وهم خيرة العباد من أنبياء ورسل وأوصياء وأولياء.

﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ وهذا عام في كل من يعمل عملاً صالحاً فلن يضيع الله أجره ولن يذهب ثوابه، بل الله يحفظ ذلك ويثيب فاعله ولا يحرمه أجره...

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ لا يخفى على الله من اتقى وأصلح في عمله وهو يتولى إثابتهم وإعطاء الأجر لهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ﴾: لن تدفع عنهم أو تجزي عنهم، يقال: أغنى عنه: إذا دفع عنه ضرراً لولاه لنزل به، ويقال: ما يغني عنك هذا: أي ما يجزي عنك ولا ينفعك.

﴿أَمْوَٰلُهُمْ﴾: الأموال: ما يمتلكه الإنسان من جميع الأشياء.

﴿أَوْلَٰدُهُم﴾: أبناءهم: جمع ولد.

﴿ٱلْمَثَلُ﴾: الشبيه.

﴿يُنفِقُونَ﴾: من أنفق المال إذا أخرجه عن ملكه إلى ملك غيره.

﴿رِيحٍ﴾: جمع رياح: وهي الهواء المتحرك وعامة المواضع التي ذكرت بالأفراد كانت للعذاب، بينما في المواضع التي ذكرت للجمع كانت للرحمة.

﴿صِرٌّ﴾: الصر: البرد الشديد.

﴿أَصَابَتْ﴾: أدركت.

﴿حَرْثٌ﴾: الحرث: الزرع، وأصله من حرث الأرض إذا شقَّها للزرع والبذر.

﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾: أبادته وقضت عليه، وهلك الرجل: إذا مات، وهلك الزرع: إذا فسد.

التفسير

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾.

بعد أن بيّن سبحانه حال المؤمنين وموقعهم وأجرهم الذي يحفظه لهم ولا يضيعه أتبعه هنا ببيان ذكر الكافرين وما أعدّه لهم من العذاب الأليم، وما ينتظرهم من سوء العقاب وخيبة الأمل...

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسله وكتبه ولم يعملوا بمقتضى أمر الله وما أراده منهم أولئك لن تدفع عنهم أموالهم سوء المصير وعذاب السعير، فإن المرء في الدنيا يدفع عن نفسه بماله ويجعل ماله فداء له ويدفع به عن نفسه كل أذية ممكنة، فهذا المال تسقط فعاليته ويتعطل أثره ويفقد دوره في الآخرة فمهما ملك الكافر من مال فلن يدفع عنه ما حاق به من عذاب الله كنتيجةً لكفره...

وبما أن الإنسان يدفع عن نفسه بأولاده وهم أكثر الناس منافحة عنه وذبّاً للأذى أن يلحق به، فهذا العنصر أيضاً يسقط أثره، ولا تغني الأولاد أو تدفع عنه ما يحيق به في الآخرة، وإذا سقطت الوسائط التي كان يتوقع أن تدفع عنه فلا بد وأن تكون نتيجته العذاب.

﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

أولئك الكفار هم أهل النار والملازمون لها، والباقون فيها دائماً لا يخرجون منها ولا يتحولون عنها.. وهذا وعيدٌ لهم وتهديد.

الكافر وما يظهر أنه عمل صالح

قد يقال أن هؤلاء الكفار قد ينفقون شيئاً من أموالهم في الأمور العامة، والخدمات الاجتماعية وصلة الأرحام وإعانة الفقراء، كما نشاهد ونرى فكيف لا تغني هذه عنهم ولا تدفع شراً يحيق بهم...

والله يتولى هنا الرد فيقول سبحانه:

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾.

إن مثل هذه النفقات التي ينفقها الكفار في الحياة الدنيا في بطلانها وذهاب أثرها وعدم الانتفاع بها، كمثل ريح باردة شديدة البرودة (تفسد ما تلاقيه) هذه الريح، أصابت زرع قوم ظلموا أنفسهم من حيث لم يزرعوا الزرع في أوقاته أو في أماكنه المعدة له، فأتت هذه الريح فأفسدته وأتلفته ولم تترك منه شيئاً...

إن الزرع في غير وقته أو في غير مكانه يُعد ظلماً له من حيث يعرّضه صاحبه للتلف، وكذلك الكافر إذا عمل عملاً من أجل الدنيا، فلن ينفعه في الآخرة، وإذا كان يقصد به وجه الله فينبغي أن يسلك الطريق الذي أعدّه للوصول إليه، ولأنه لم يسلك المسلك الصحيح من الإيمان به وبرسله، وقبول ما جاء به أنبياؤه فلن يقع الفعل صحيحاً ولوجه الله...

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وما ظلمهم الله بضياع أجر النفقات وثوابها، ولكن ظلموا أنفسهم حيث لم ينفقوا الأشياء في أوقاتها وفي وجوهها وقربة إلى الله ومن أجل أن تنفعهم في الآخرة وتدفع عنهم السوء والأذى...

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾.

اللغة

﴿لَا تَتَّخِذُوا۟﴾: لا تجعلوا.

﴿بِطَانَةً﴾: بطانة الرجل: خاصته، وأهل مشورته الذي يفضي إليهم بأسراره، شبّه ببطانة الثوب لأنه يلي البدن.

﴿مِّن دُونِكُمْ﴾: من غيركم.

﴿لَا يَأْلُونَكُمْ﴾: لا يقصرون في أمركم، يقال: ألا في الأمر يألو: إذا قصّر فيه، وما ألوته خيراً: أي ما قصرت في فعل ذلك.

﴿خَبَالًا﴾: الخبال: الفساد والنقصان، ومنه: رجل مخبول: إذا كان ناقص العقل.

﴿وَدُّوا﴾: أحبوا، يقال: وددت كذا: أي أحببته.

﴿مَا عَنِتُّمْ﴾: العنت: شدة الضرر والمشقة.

﴿بَدَتِ﴾: ظهرت.

﴿الْبَغْضَاءُ﴾: أشد البغض، والبغض: الكراهية والعداوة.

﴿أَفْوَاهِهِمْ﴾: الأفواه: جمع فوه، وهو الفم.

﴿تُخْفِي﴾: تستر، ويقابله الإعلان.

﴿صُدُورُهُمْ﴾: الصدر: هو الجارحة المعروفة التي فيها القلب والرئة.

﴿بَيَّنَّا﴾: أظهرنا وكشفنا.

﴿الْآيَاتِ﴾: الدلالات والحجج.

﴿تَعْقِلُونَ﴾: من العقل: وهو الفهم والدراية.

﴿لَقُوكُمْ﴾: اللقاء: مقابلة الشيء ومصادفته معاً.

﴿خَلَوْا﴾: مضوا: أو انفرد بعضهم ببعض وهو المراد هنا.

﴿عَضُّوا﴾: العضّ: هو أخذ الشيء بأطراف الأسنان والضغط عليه.

﴿الْأَنَامِلَ﴾: أطراف الأصابع.

﴿الْغَيْظِ﴾: أشد الغضب.

﴿تَمْسَسْكُمْ﴾: من المس: وهو كاللمس يكون فيما يكون معه إدراك بحاسة اللمس، وهو هنا بمعنى يصيبكم.

﴿حَسَنَةٌ﴾: يعبّر بها عن كل ما يُسرُّ من نعمة تنال الإنسان في نفسه وبدنه وأحواله وهنا يقصد بها الظفر والسعة والخصب.

﴿تَسُؤْهُمْ﴾: تحزنهم وتغمهم.

﴿تُصِبْكُمْ﴾: تصل إليكم.

﴿سَيِّئَةٌ﴾: السيئة: ما يصيب الإنسان مما يحزنه من نقمة تنال الإنسان في نفسه وبدنه وأحواله، وهنا يقصد بها الخيبة والهزيمة والجدب.

التفسير

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾.

هذه الآية الشريفة تأتي تحذيراً للمسلمين من كيد المنافقين... إنها تنبه الفئة المؤمنة إلى مخاطر التعامل مع المنافقين وكشف أسرار الجماعة المسلمة لهم لما يشكّل ذلك من خطر على الوحدة الإسلامية وسلامتها و...

إن أعوان المسلم يجب أن يكونوا ممن هم على خطه وفي نفس مسيرته، فمن يجمعه وإياك عقيدة واحدة يصبح ما يهمك يهمه وما يضرك يضره، ومن هنا يتحرك للحفاظ عليك وعلى أهدافك وغاياتك ولا يفرّط بشيء يقوّي موقفك ويشدّ أزرك ويساعدك في الحياة...

وأما من يخالفك في العقيدة ولا يجمعك وإياه هدف أو غاية إذا اتخذته من خواصك وجعلته من مستشاريك وأطلعته على الأسرار والخفايا وما يدور بين جماعتك وأهل ملتك، فإنه بدون شك يكشف العورات ومحلات الضعف ويستطلع الثغرات، وبهذا يشكل خطراً عظيماً، يمكن أن يأتي على طموحاتك وآمالك وينسف كل الخطط التي ترسمها في مواجهة أعدائك وأعداء أمتك ووطنك...

إن من يختصّ بك من الرجال وتنكشف له بكل تفاصيل خططك ونواياك يجب أن يكون في درجة عالية من العقيدة التي تحملها والأمانة والصدق ورعاية المصلحة، ويشعر أن كل كلمة يعرف بها ويقف عليها تصبح أمانة عنده لا

يتحدث بها أو يفشيها بل يسهر على تحقيقها وتنفيذها وإخراجها إلى الحياة حركة وسلوكاً وعملاً . . .

إن خواصك ـ بطانتك ـ عندهم كل وجودك ومستقبلك وحياتك وسعادتك وشقائك، فلذا يجب أن يكونوا معك على عقيدة واحدة وهدف واحد، ومن هنا يأتي هذا التحذير قائلاً:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ لا تأخذوا خواصاً لكم تكشفون لهم أسراركم وخفايا ما عندكم من خطط وآمال. . . وعلّل ذلك وبيّن سببه بقوله تعالى: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ لا يقصرون في إفسادكم ولا يدعون جهدهم في مضرتكم فهذا منهم حركة وعملاً في سبيل ضعضعة المسلمين وزلزلة عقائدهم وما هم فيه.

﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾ أنهم أحبوا مشقتكم وإتعابكم وما يوقعكم في الضرر الشديد، إنهم لنفوسهم المريضة وعداوتهم لكم يفرحون بما يصيبكم من أذى وما يلحق بكم من أتعاب ومشقات. . .

﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ قد ظهرت الكراهية الشديدة لكم ولدينكم ومعتقداتكم على ألسنتهم ونطقوا بها. . . إنها حالة عفوية قهراً عنهم تحكي بعض ما في عمق النفس من حقد عليكم وعلى عقيدتكم. . .

﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ فإذا ظهرت البغضاء على أفواههم ونطقوا بذلك في بعض الحالات، فهذا الذي ظهر قليل جداً بالنسبة لما يحملونه في أنفسهم من حقدٍ عليكم. . . إن ما ظهر جزء يسير عما هو في طيات نفوسهم. . . إن في نفوسهم حقداً دفيناً أكبر بكثير مما ظهر وخرج إلى العلن. . .

ولا يخفى أن عدم ذكر ما تخفيه الصدور، إنما هو لبيان أنه شيء كبير لا يقدّر بقدر ولا يمكن وصفه أو كشفه على حقيقته، فيترك إلى تقدير المخاطب ليذهب فيه كل مذهب. . .

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ كشف الله لنا الحجج الواضحة الظاهرة

على عداوة هؤلاء القوم المنافقين لنا بما ظهر منهم وما خفي في نفوسهم وما يحملونه نحونا من بغض وحسد وسعي في الضرر... إن ذلك يكفي دلالة واضحة لأصحاب الأفهام السليمة والعقول الصحيحة فلا يتخذوا بطانة من غير أهل دينهم وملتهم...

﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ وهذه هي أولى المعادلات غير الصحيحة التي يجب أن تبتعدوا عنها فلا تتخذوهم بطانة لكم...

إنكم أنتم تحبونهم.. وترغبون فيهم.. تظهرون ذلك في عملكم وسلوككم وتريدون لهم الخير تبعاً لهذا الحب، ولكنهم لا يبادلونكم نفس الشعور ونفس الحالة... إنهم لا يحملون نحوكم ذرّة من حبّ أو رغبة وكيف يمكن أن يكون هناك توافق واطمئنان وارتياح؟ فإن مَنْ لا يحبك لا يحب مصالحك ووصول الخير إليك، وهذا دافع من دوافع عدم اتخاذهم بطانة لكم...

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ أي تؤمنون بجنس الكتاب الإلهي المنزل على رسل الله من موسى وداود وعيسى ومحمد ﷺ بينما هم لا يؤمنون بالكل، وهذا فارق لهم من حيث أن عدم الإيمان ببعض الكتب يؤدي إلى تكذيب من أرسل به، وهذا يجعل خللاً في العقيدة التي تحكم المؤمن بالكل عن المؤمن بالبعض فحسب...

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾. وهذه صورة من حقدهم وكيدهم فهم يحملون صورة ذات وجهين، بأحدهما يظهرون الإيمان إذا كانوا معكم والتقوا فيكم... وإذا جمعتكم وإياهم الأمكنة والأزمنة قالوا آمنا بما آمنتم به ونحن وإياكم ضمن عقيدة واحدة تحكمنا جميعاً، وذلك حفظاً لأنفسهم وتمريراً لما يريدون من خطط ومؤامرات، ولكنهم إذا انفردوا مع بعضهم ولم يعد في البيّن أحدٌ منكم، وخلت المجالس لهم عندها أظهروا حقدهم وحسدهم وغضبوا لما يرون من وحدتكم واجتماعكم وائتلافكم.

﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ كناية مستعملة لشدة الغيظ والتأسف على أمر

مهم كان ينشده المغتاظ وقد فاته القيام به. . .

﴿قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ﴾ قل: يا محمد! إن الله سيعلي راية الإسلام ويقوّي شوكته، فدُومُوا في حقدكم حتى تموتوا وأنتم كذلك. . . وهذا دعاء عليهم وإن كان في صورة الأمر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ إن الله عليم بما تحويه صدوركم من الخواطر والنوايا وما يختلج فيها من حقد وحسد وبواعث ضغينة.

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ وهذا من قبائح ما يحمله المنافقون على المؤمنين، فعندما يصيب المسلمين نعمة من نصر أو خصب أو غنيمة يستاء هؤلاء المنافقون ويحزنون لما أصابكم من الخير، فكأن النعم التي تصل إليكم وتُفرح قلوبكم لها أثر عكسي عليهم فتصيبهم هزة وانتكاسة وألم ومرارة. . .

﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا﴾ وهذه عكس الأولى، فهنا إذا أصبتم بنكسة أو خسارةٍ أو ذهاب مالٍ أو اختلاف يبتهجون ويُسرُّون ويفرحون بها، ففرحهم في ألمكم وحزنهم وأساهم في فرحكم، وإذا كانت نفوسهم بهذه الخسّة معكم كيف تتخذونهم بطانة لكم؟ تفضون إليهم بأسراركم وخفايا خططكم وما تعدّونه لمواجهة المستجدات والطوارىء التي تطرأ عليكم.

﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ وهذا وعد الله للمؤمنين ولكنه مشروط. . . إن تصبروا على طاعة الله وتصمدوا في مواجهة الأحداث وتصبروا على عداوتهم وما أمركم الله بمواجهتهم، وعدم اتخاذهم بطانة لكم، ثم تتقوه بالقيام بما أمر الله وترك ما نهى عنه. فكيدهم وحقدهم وبغيهم وحسدهم لا يؤثر عليكم ولا يلحق بكم ضرراً أو أذى. . إنه وعد مشروط بالصبر والتقوى ينتج عدم تأثير كيد المنافقين ومن ورائهم كيد الكفار على المسلمين عقيدة ووجوداً. . .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ إنه سبحانه يعلم بتفاصيل كل حركة يتحرك بها هؤلاء، فيحبطها ويسقط مفعولها ويثيب المؤمنين عليها ويؤجرهم على مواجهتها والتصدي لها. . .

قال تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ
(١٢١) إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) وَلَقَدْ
نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن
يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا
يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ
قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ
فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧) لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨) وَلِلَّهِ مَا
فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢٩)﴾.

اللغة

﴿غَدَوْتَ﴾: الغدوة والغداة: أول النهار، وغدوت: أي ذهبت غدوة، وغدوت من أهلك: ذهبت عنهم، وفي المصباح غدا: بمعنى انطلق.

﴿أَهْلِكَ﴾: قال الراغب في مفرداته: أهل الرجل: من يجمعه وإياهم نسب أو دين أو ما يجري مجراهما من صناعة وبيت وبلد.

﴿تُبَوِّئُ﴾: التبوء: أصله أخذ المنزل، وبوأت القوم منازلهم: أنزلتهم فيها وأسكنتهم، وهناك يراد بها تُعد وتهيّء.

﴿مَقَاعِدَ﴾: جمع مقعد: وهو موضع القعود.

﴿هَمَّت﴾: الهمّ: في الأصل ما هممت به، أي عزمت في نفسك على فعله.

﴿طَّآئِفَتَانِ﴾: مثنى طائفة: وهي الجماعة من الناس.

﴿تَفْشَلَا﴾: مثنى فشل، والفشل: الجبن والضعف.

﴿وَلِيُّهُمَا﴾: الوليّ: الناصر والمعين، والولي: هو القائم بشأن الآخر والمدبر لأمره.

﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾: التوكيل: أن تعتمد على غيرك وتجعله نائباً عنك، وتوكلت عليه: اعتمدته.

﴿نَصَرَكُمُ﴾: النصر: العون والفوز والنجاح.

﴿بِبَدْرٍ﴾: اسم ماء كانت قربه موقعة (بدر) أُولى معارك المسلمين مع المشركين.

﴿أَذِلَّةٌ﴾: جمع قلة، والذليل: المهان وهنا يقصد به قلة العدد.

﴿يَكْفِيَكُمْ﴾: الكفاية: سدّ الحاجة، يغني عنكم، والكفاية: هي الإستغناء بالشيء عن غيره.

﴿يُمِدَّكُمْ﴾: الإمداد في الأصل: إعطاء الشيء حالاً بعد حال، يقال: مدّ في السير: إذا استمر عليه وامتد به السير إذا تواصل وطال.

﴿مُنزَلِينَ﴾: النزول: في الأصل انحطاط من علو، وهنا يراد أن الله ينزلهم لشد أزر المؤمنين ونصرهم...

﴿بَلَىٰٓ﴾: كلمة تصديق وجواب كنعم إلا أنها لا تقع إلا بعد نفي، وتفيد إثبات ما بعدها.

﴿مِّن فَوْرِهِمْ﴾: الفور والفوران: يقال: فار القدر: إذا غلا وجاش، ثم استعير للسرعة والعجلة.

﴿يُمْدِدْكُمْ﴾: من الإمداد: وهو إعطاء الشيء حالاً بعد حال.

﴿مُسَوِّمِينَ﴾: بفتح الواو بمعنى معلَّمين على القتال، وبكسرها بمعنى لهم علامة يعرفون بها.

﴿بُشْرَىٰ﴾: البشري والبشارة: هو الخبر السار.

﴿وَلِتَطْمَئِنَّ﴾: الطمأنينة والاطمئنان، السكون بعد الانزعاج.

﴿الْعَزِيزُ﴾: هو الذي لا يُقهَر، والعزَّة: حالة مانعة للإنسان من أن يُغلب من قولهم: أرض عزاز: أي صلبة.

﴿الْحَكِيمُ﴾: المدبِّر بتعقُّل ودراية.

﴿لِيَقْطَعَ﴾: القطع: هو الجزّ والإبانة.

﴿طَرَفًا﴾: طائفة وقطعة.

﴿يَكْبِتَهُمْ﴾: الكبت: الهزيمة والإهلاك، ويأتي بمعنى الإذلال والغيظ.

﴿فَيَنقَلِبُوا﴾: فيرجعوا ويعودوا.

﴿خَائِبِينَ﴾: الخيبة: عدم الظفر بالمطلوب.

التفسير

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾.

هذه الآية تذكّر النبي ﷺ وتبعاً له جميع المسلمين، كيف كان الفشل مع عدم الصبر وعدم تحمّل المشاق ومخالفة أوامر النبي ﷺ كما أنها تستعرض لمحة من قصة (بدر) وكيف تكللت بالظفر والنجاح لأن المسلمين صبروا مع النبي ﷺ وصمدوا في مواجهة الأعداء.

واذكر يا محمد عندما تركت ديار أهلك وبلدك وموطنك وخرجت إلى خارج

المدينة حيث منطقة (أُحد) توزّع المسلمين على مواقع القتال، وتضع كل واحد في موقعه، وكان النبي ﷺ قد قسّم المسلمين ووزعهم وجعل على فم الشعب خمسين من الرماة بقيادة عبد الله بن جبر وأمرهم أن يستبسلوا في الدفاع ولا يفارقوا أماكنهم، كما أنه صلوات الله عليه رتب المواقع لكلٍ من الأنصار والمهاجرين وسائر المؤمنين. . .

وهذا البيان يكشف بوضوح كيف كان الرسول ﷺ وهو القائد العام للجيش يتولى توزيع الكتائب والأفراد بنفسه، ويقوم بوضع كل منهم في موقعه العسكري الذي من خلاله يسدّ الفراغ ويؤدي واجب الدفاع والجهاد. . .

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميع لأقوالكم ما كان منها لله ولرسول الله وما كان فيها من الضرر والفساد، وهو عليم بكل حركة تقومون بها وكل قول تتلفظون به. وهو عليم بكل شيء ولا يخفى عليه شيء. . .

﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾. هذا أمر يكشف الله عنه للنبي ﷺ. . . أنها حالة نفسية عاشتها جماعتان من المسلمين كانتا مع النبي ﷺ. بل كانتا جناحي عسكره يوم (أُحد) هما كما يذكر أصحاب السِّيَر بنو سلمة من (الخزرج) وبنو حارثة من الأوس فقد حدثتهم أنفسهم بالهزيمة والانكسار عندما رأوا كثرة المشركين وخصوصاً رجوع عبد الله بن أُبيّ بثلث الناس مما فتّ في عضدهم وأوهن قوتهم وهمّت أنفسهم وتحدثت بالفشل والجبن، وبالعودة والرجوع وترك ساحة المعركة.

ولكن هذا الهم وحديث النفس بقي في موقعه لم يؤثر على حركتهم وصمودهم وجهادهم ولذا أثنى الله عليهم. وكيف كان هو المتولي لمعونتهم والقادر على نصرهم والقائم على شؤونهم.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ يجب على المؤمنين أن يعتمدوا على الله لا على غيره، والاعتماد عليه يكون بالعمل بكل ما أراد، وتنفيذ ما أمر، ومن جملتها اعتماد الأسباب والوسائل التي بها يتحقق النصر، فليس بمتوكل على الله من

أهمل قوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾(١) وليس بمتوكل على الله من لم يعمل بقوله تعالى: ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾(٢). وليس بمتوكل على الله من جلس في بيته وترك قوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ﴾(٣). وهكذا دواليك فالتوكل يستدعي العمل بكل ما يطلبه الله منا، ثم بعد الفراغ من تهيئة المتطلبات بكل تفاصيلها عندها نعود إلى الله ونضع الأمور بين يديه طالبين منه النصر والظفر والتوفيق فيُنزل نصره على عباده ويتم وعده الذي قطعه لهم ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾(٤).

موجز وقعة أُحد:

انتصر المسلمون في غزوة بدر وكانت الضربة الموجعة لقريش حيث قتل منها سبعون رجلاً، وأُسِر سبعون آخرون، ولما رجعوا إلى المدينة تفرّد أبو سفيان بالزعامة، فتوجه إلى قريش قائلاً لهم: يا معشر قريش لا تدعوا النساء تبكي على قتلاكم فإن البكاء والدمعة إذا خرجت أذهبت الحزن والحرقة والعداوة لمحمد ويشمت بنا محمد وأصحابه...

تجهّز أبو سفيان وحرّك قريشاً وحلفاءها من كنانة وغيرها، فجمعوا الجموع والسلاح وخرجوا من مكة في ثلاثة آلاف فارس وألفي راجل وأخرجوا معهم النساء لإثارة الحفيظة خرجوا لحرب رسول الله ﷺ وكانت هند زوجة أبي سفيان وأم معاوية صاحبة الثأر الكبير والعداوة العميقة حيث قتل محمد أباها وأخويها...

بلغ رسول الله ﷺ الخبر فجمع أصحابه وحثّهم على الجهاد، ثم استشارهم

(١) الأنفال/ ٦٠.
(٢) آل عمران/ ٢٠٠.
(٣) الحج/ ٧٨.
(٤) محمد/ ٧.

في الخروج إلى خارج المدينة والقتال من هناك، أو البقاء في المدينة والقتال منها، وهنا اختلفت الآراء فذهب شيخ المنافقين عبد الله بن أُبيّ ومن معه إلى الرأي القائل بالبقاء داخل المدينة ومواجهة المهاجمين قائلاً: يا رسول الله! لا تخرج من المدينة حتى نقاتل في أزقتها فيقاتل الرجل الضعيف والمرأة والعبد والأمة على أفواه السكك وعلى السطوح، فما أرادنا قوم قط فظفروا بنا ونحن في حصوننا ودورنا وما خرجنا إلى أعدائنا قط إلاّ كان الظفر لهم. . .

ويقول أصحاب الرأي الآخر الذين اختاروا الخروج إلى خارج المدينة والقتال من هناك يقولون على لسان سعد بن معاذ: يا رسول الله! ما طمع فينا أحد من العرب ونحن مشركون نعبد الأصنام؟ فكيف يطمعون فينا وأنت فينا لا، حتى نخرج إليهم فنقاتلهم، فمن قتل منّا كان شهيداً ومن نجى منّا كان قد جاهد في سبيل الله. . .

وغلبت الفئة الداعية إلى القتال خارج المدينة وكان هذا هو الرأي الذي اختاره النبي ﷺ وفعلاً خرج النبي وأصحابه ومن معه إلى (أُحد) وكان جملة من خرج ألف مقاتل عاد ابن أُبيّ ومعه ثلث الخارجين فبقي النبي بسبعمائة مقاتل. . .

وزّع النبي المقاتلين في أماكنهم ونظّم صفوفهم فجعل جبل أُحد خلف ظهورهم كمانع طبيعي يحميهم من هذه الجهة، ولمّا كان على ثغر الجبل منفذ يمكن أن يأتي منه الخطر من حيث يتسلل العدو إليهم، فلذا وضع خمسين من الرماة بقيادة عبد الله بن جبير ووجّه إليهم أمره قائلاً: «انضحوا الخيل عنا بالنبل واحموا لنا ظهورنا لا يأتونا من خلفنا والزموا مكانكم لا تبرحوا منه إن كانت لنا أو علينا فلا تفارقوا مكانكم».

ثم وزع المقاتلين الآخرين كتائب في مواقعهم كما قال الله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾.

وكما نظم النبي ﷺ صفوف المسلمين، نظم أبو سفيان صفوف الشرك، وأصبح الجيشان في المواجهة لا يفصلهما عن الحرب إلا شرارة صغيرة ثم تكون المعركة.

دارت المعركة بين خصمين شديدين أحدهما ينشد ثأره والآخر يدافع عن وجوده وعن دينه، وما هي إلا جولة وإذا بجند المشركين ينهزم وإذا برجالهم تفر على وجوههم وتبدأ عملية المطاردة وجمع الغنائم...

ولكن المفاجأة كانت كبيرة والخطر كان عظيماً عندما ترك الرماة في ثغر جبل أُحد مواقعهم ولم يلتفتوا إلى تحذير أميرهم عبد الله بن جبير أن لا يبرحوا أمكنتهم عملاً بوصية النبي ﷺ ولكنهم لم يستمعوا إليه وتركوه ونزلوا إلى جمع الغنائم فلم يبق معه إلا عشرة مقاتلين...

كان خالد بن الوليد على خيالة المشركين وقد أوكل إليه أمر هذه الكتيبة، فعرف نقطة الضعف فهاجم هذا الموقع فقتل عبد الله بن جبير ومن معه ثم كرّ على المسلمين فأعاد الحرب على خلاف ما انتهت إليه قبل لحظات...

تغيرت المعادلات وتبدلت الأحوال وتغيّر مسار المعركة.. كانت صدمة قوية ومفاجأة رهيبة قلبت الأمور رأساً على عقب.. لقد تحولت رياح المعركة لصالح قريش المشركة ومن معها، ولمّ خالد شمل المنهزمين من جنده وعناصره، وفي الوقت نفسه تبدّد شمل المسلمين وتفرقوا في كل اتجاه...

كانت المأساة عظيمة وخصوصاً عندما دبّت الشائعة الكبرى التي تقول: أن النبي ﷺ قد قُتل! فيتفرق المسلمون في أعالي الجبل وأماكن النجاة، ولم يبق إلاّ نفرٌ معدودٌ وعلى رأسهم علي بن أبي طالب عليه السلام يذبّون عن النبي ويدفعون عنه الموت...

انتهت المعركة بخسارة فادحة سبعون شهيداً من المسلمين، ذهبوا ضحية مخالفة أمر النبي ﷺ حينما ترك الرماة مواقعهم التي بوأهم إياها النبي ﷺ...

عاد المشركون مكتفين بما أدركوا من ثأرهم، ولكن بعد أن توجهوا عائدين أعادوا حساباتهم وفكروا بالعودة لاستئصال شأفة المسلمين والانتهاء منهم، ولكن النبي بحكمته أدرك ذلك فأمر من معه أن يستعدوا ـ وخصوصاً الجرحى ـ

فيخرجوا معه لمطاردة المشركين، وبهذه الخطة الحكيمة استطاع أن يرد قريشاً عمّا يمكن أن تكون قد عزمت عليه من جهة، ثم ينبّه أعداء الداخل على أن قوة المسلمين لم تُفِل أو تضعف بل أنهم لا يزالون على قوتهم...

انتهت المعركة وسقط حمزة عم النبي شهيداً ومثّلت هند أم معاوية فيه أعظم مُثلة، وكذلك سقط الشهداء، ولكنها معركة كانت درساً مهماً للطاعة والانضباط والالتزام بأوامر النبي... كانت درساً أبلغ من النصر...

هذه غزوة أُحد بإيجاز كما يتطلبه المقام على أمل العودة إلى الحديث عنها في سورة الأنفال...

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾. ذكّرهم سبحانه بالنصر يوم بدر تسلية لهم عمّا لحقهم من نكسة أُحد، وأن من يتوكل على الله ويعمل بما أمر وأراد فالله يتولى نصره، وإن كان ضعيفاً قليلاً في عدده وعُدته...

و﴿بدر﴾ اسم بئر سميت كذلك باسم مالكها بدر وكانت عليها وقعة بدر أُولى المعارك الإسلامية التي جرت مع الشرك المتمثل بقريش...

وكان عدد المشركين ألف رجل بينما عدد المسلمين ثلاثماية وثلاثة عشر رجلاً.

وكان المشركون قد خرجوا متأهبين للقتال عكس المسلمين الذين لم يخرجوا بأهبة حرب ولا عزة محارب.

وكان مع المشركين الخيل والسيوف والدروع والرماح والسهام، بينما كان أكثر المسلمين مشاة مع بعض الأباعر يتعاقبون عليها، ولم يكن معهم إلا فرسين وكان بعض سلاحهم من جريد النخل...

إنها معادلة ساقطة فلا تكافؤ في عدة ولا عدد ومع ذلك علم الله صدق المسلمين وإخلاصهم وتضحيتهم من أجل دينهم فأيدهم بنصره وغلبوا المشركين وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأسروا كثيرين...

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ يراد به وأنتم قلّة في عددكم وفي عدتكم، ولا يحمل الذل على المعنى المتعارف لتنافيه مع قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ اتقوا الله بترك المحرمات والقيام بالواجبات لعلكم تقومون بشكر ما أنعم الله به عليكم من هذا النصر الذي جاء بعد الصبر.

تكشف الآية أن التقوى تحقق الشكر لله وبدون تقوى لا يتحقق الشكر...

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾﴾.

﴿إِذْ﴾ ظرف متعلق بقوله: ﴿نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ وعليه يكون المعنى يوم بدر الذي كان فيه النصر، تقول فيه: يا محمدا قل للمؤمنين...

﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾ استفهام فيه إنكار عليهم، أن لا يكتفوا بإمداد الله ومساعدته لهم ثلاثة آلاف من الملائكة أنزلهم الله لنصرتهم وشدّ أزرهم...

وكأن هذا الإنكار منه صلوات الله عليه لما وجدوه من أنفسهم يوم بدر من ضعف وقلة عدد، وقلة عدة حتى وصل بهم الأمر، أن لا يصدّقوا كفاية هذا المدد في تحقيق النصر...

ومن المتفق عليه أن في غزوة بدر نزلت الملائكة لنصرة المؤمنين، وقد كان ذلك لمّا علمه الله من صدق نياتهم والإتيان بمتطلبات المعركة بحسب قدرتهم وطاقتهم، فتدخل الأمر الإلهي بنصرهم عن طريق إنزال الملائكة...

﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾.

﴿بَلَىٰٓ﴾ إيجاب لما بعد ﴿أَلَن﴾ وكأن الأمر يكفي أن يمدّكم بثلاثة آلاف، ثم

(١) المنافقون/ ٨.

وعدهم بأن يمدهم بخمسة آلاف من الملائكة لهم علامات واضحة يعرفون بها، ولكن بثلاثة شروط:

الأول: ﴿إِن تَصۡبِرُواْ﴾ لما تعطيه هذه الملكة من قوة التحمل والتجلّد والصمود في وجه الأعداء.

الثاني: ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ أن تبقوا في خط الله فلا تخالفوه في أمر أراده منكم، أو أمرٍ نهاكم عنه، فلا تتركوا واجباً أو ترتكبوا محرماً.

الثالث: ﴿وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا﴾ يطبقوا عليكم بسرعة في هذا الوجه الذي يقصدونكم فيه.

فإذا اجتمعت لكم هذه الأمور الثلاثة يأتي المدد الإلهي المحقق للنصر المؤزر.

﴿يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾. يعينكم الله ويرسل إليكم خمسة آلاف من الملائكة معلّمين على القتال متدربين عليه، أو يأتوكم ولهم علامات يعرفون من خلالها...

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ﴾ ما جعل الله ذلك الإمداد بالملائكة إلاّ بشرى يزفُّها الله إليكم باقتراب النصر.. والبشرى تدفع الإنسان وتحفزه إلى تحقيقها والعمل من أجل أن تصبح حقيقة في الواقع.

﴿وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ أي تسكن قلوبكم فلا تضطرب لقلة عددكم وكثرة عدوكم، وإذا اطمأنت القلوب كانت الحركة واثقة وواعية ومتحركة بدقة نحو الهدف الأصيل...

﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾. بعد أن وعدهم بمدد من الملائكة كبشرى لهم ولتطمئن قلوبهم جرياً على العادة القائمة عند الناس من حيث أن الأسباب المتعارفة تجعل الارتياح لدى الناس ويعتمدون عليها باستمرار، أراد سبحانه هنا أن يردّ الأمور إليه وأن الله الذي يملك الأسباب والمسببات والنصر من عنده وحده فحسب، فهو العزيز في قدرته الذي لا يضام وهو الحكيم الذي

يعلم مواطن النصر فيوفق الناس إليها ويقدِّرهم عليها كما يعلم أن من الحكمة أن تجري في غير ذلك فيجريها على طبق حكمته...

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ ذلك النصر الذي هو من عند الله كان من أجل أن يقضي على قسم من الذين كفروا بالقتل لما في ذلك من عقوبةٍ لهم على تمرّدهم وقتالهم للحق، وأيضاً لما في ذلك من تأديب لغيرهم ممن تسوّل لهم أنفسهم أن يقفوا في وجه الدين ومحاربته..

﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾ يخزيهم ويحزنهم بهزيمة يعودون بها نادمين، لم يظفروا بما أمّلوا وما عزموا عليه في مواجهة المسلمين وقتالهم، وقد حدث ذلك في بدر حيث قُتل سبعون رجلاً من صناديد قريش وأُسر مثلهم ورجع من رجع منها يجرّ أذيال الخيبة والهزيمة...

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ هذه الآية تنفي أن يكون للنبي دور ـ في مقابل دور الله ـ في الأمور التي تمرُّ على الناس وما ينتابهم من عوارض الحياة هداية وضلالاً، وإيماناً وكفراً، ونصراً وهزيمة، بل الأمر لله فهو الذي يرسم مسار الأحداث ومسيرة الناس بحسب علمه وحكمته.

وقالوا إن قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ جملة معترضة فائدتها ما تقدم...

وذهب بعضهم إلى أنها جاءت لترفع احتمال أن يتخذ المسلمون نبيهم محمداً ﷺ إلهاً كما اتخذ النصارى المسيح عليه السلام إلهاً، فهي تخفّف من هذا الاتجاه التصاعدي الذي يمكن أن يتوجه نحوه بعض المسلمين لما وجدوه في الرسول من صفات وأقوال وأفعال لم يعهدوها من أحد من البشر...

وإذا كان الأمر بيد الله فله الحكم..

وقوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿لِيَقْطَعَ﴾ فالله إن شاء أن عليهم يتوب إذا آمنوا وأصلحوا واتقوا..

﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ إذا أصرُّوا على الكفر والتمرد.

﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ في كفرهم وفي مواقفهم وفي حربهم...

وفي الآية اختلافات كثيرة وتأويلات متعددة منها: أن النبي ﷺ في غزوة أُحد كسرت رباعيته وشج وجهه الشريف فقال صلوات الله عليه: «كيف يفلح قوم خضّبوا وجه نبيهم بالدم؟» فنزل قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾...

ومنها: أن النبي كان حريصاً على هداية قومه وشق عليه ما هم فيه من كفر وعناد فنزلت الآية...

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فهو الخالق لكل ما فيهما ومن فيهما كما أنه المالك لهما ولما فيهما، والمالك يتصرف في ملكه كيف يشاء ومتى يشاء لا يمنعه مانع ولا يحجزه حاجز، وإذا كان الأمر كذلك فهو سبحانه.

﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ ممن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى.

﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ ممن أساء وأصرَّ على الذنب ولم يتب أو يرجع إلى الله...

وما أجمل هذه المقابلة بين المغفرة والعذاب! وأن على المؤمن أن يكون بين رجاء الرحمة والمغفرة، وبين خوف العذاب وعدم قبول التوبة...

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ غلّب سبحانه جانب الرحمة تطميعاً لهؤلاء العصاة لعلهم إلى رحمته يفيئون وعن ضلالهم يعودون...

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢)﴾.

اللغة

﴿لَا تَأْكُلُوا﴾: الأكل: معروف، وهنا يراد به الأخذ، وعبّر بالأكل عن الأخذ لأنه يرجع إليه.

﴿الرِّبَا﴾: الربا: لغة هي الزيادة، وشرعاً ما يكون في القرض هو الزيادة عن رأس المال، وفي المعاملة زيادة تكون في أحد المثلين عن الآخر...

﴿أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾: الأضعاف: جمع ضعف، وضعف الشيء: مثله، وضعفاه: مثلاه، وأضعافه: أمثاله.

﴿تُفْلِحُونَ﴾: الفلاح: الظفر والفوز بالبغية.

﴿اتَّقُوا﴾: احترزوا.

﴿أُعِدَّتْ﴾: هيئت.

التفسير

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ الخطاب إلى المؤمنين وإن كان يعمُّ جميع الناس بعموم التكليف، وإنما كان موجهاً إلى هذه الفئة الخاصة من الناس لأنها الفئة المستفيدة من مضمونه..

وهذا الخطاب نهي صريح في حرمة التعامل بالربا، وإن التعبير بالأكل لأنه في النهاية سترجع كل غايات التصرف والتعامل بالربا لهذه الغاية...

وقوله: ﴿أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ خصّصه سبحانه بذلك لأنه هو الواقع المتحقق الذي كان يفعله أهل الجاهلية، حيث كان الرجل إذا حلّ له الدّين زاد فيه وأخّره إلى أجل آخر، ثم إذا حلّ زاد فيه أيضاً وأخّره، وهكذا. فكان يستغرق بالشيء الطفيف مال المديون فنهاهم سبحانه عن ذلك...

ومن المجمع عليه بين المسلمين حرمة أكل الربا سواء كان بمقدار درهم أو قنطار، فكل زيادة تحصل عن هذا الطريق، فأخذها حرام والتصرف فيها حرام ويجب ردُّها إلى صاحبها...

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في كل ما أمركم به أو نهي نهاكم عنه فاعملوا في الأول واتركوا الآخر، ومن تقوى الله أن تتركوا الربا ولا تأكلوه.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لكي تظفروا وتفوزوا برضى الله وما أعدّه للمفلحين الفائزين من نعيم وخير كثير...

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ تحذير للمؤمن أن يسير بسيرة الكافرين لئلا يدخل مدخلهم، ومدخلهم رهيب عظيم، ناراً هيأها الله لعذابهم.

وإذا أخذنا مضمون ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ يعجز التصور عن إدراك ذلك لعجزه عن حصر قدرة الله إلاّ فيما يملكه الإمكان البشري والله منزه عن ذلك...

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فيما أمر ونهى ولا تتخلفوا عن كل ما أراد وأحب.

﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فيما جاءكم به عن الله نهياً وأمراً، بعثاً وزجراً.. تشريعاً وحكماً.. آداباً وأخلاقاً وفي كل ما سنّ وشرّع...

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لكي تنالكم رحمة الله عندما تطيعوه وتطيعوا رسوله، وهذه بشارة عظيمة للمطيعين لربهم ولرسوله..

قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾.

اللغة

﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾: بادروا.

﴿مَغْفِرَةٍ﴾: المغفرة والغفران واحد: وهي من الله أن يصون العبد فلا يمسه بالعذاب، ومن العبد أن يطلب أسبابها ويعمل بها.

﴿عَرْضُهَا﴾: العرض: خلاف الطول وهو أقصر الامتدادين ويكنى به عن السعة.

﴿أُعِدَّتْ﴾: هيئت.

﴿يُنفِقُونَ﴾: يخرجون أموالهم ويملكونها للآخرين، أو يصرفونها عليهم.

﴿ٱلسَّرَّآءِ﴾: الرّخاء.

﴿ٱلضَّرَّآءِ﴾: الشدّة والضيق.

﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ﴾: من كظم القربة: إذا ملأها وشدّ رأسها، ويستعمل في ردّ الغضب إلى الجوف وضبطه وعدم ظهوره إلى الخارج.

﴿ٱلۡغَيۡظَ﴾: أشد الغضب.

﴿فَٰحِشَةً﴾: الفاحشة: ما تناهى في القبح، ومنه: غبن فاحش، وكثيراً ما ترد بمعنى الزنا.

﴿ذَكَرُواْ﴾: ذكر الله: التسبيح والتمجيد لله.

﴿لِذُنُوبِهِمۡ﴾: الذنب في الأصل: الأخذ بذنب الشيء ويستعمل في كل فعل يستوخم عقباه اعتباراً بذنب الشيء، والذنوب: المعاصي..

﴿يُصِرُّواْ﴾: أصل الصرّ: هو الشدّ، والإصرار: كل عزم شددت عليه، والإصرار: التعقّد في الذنب والتشدد فيه والامتناع من الإقلاع عنه.

﴿جَزَآؤُهُم﴾: من الجزاء: ما فيه الكفاية من المقابلة، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿تَجۡرِي﴾: أصل الجري: هو المرّ السريع كمرّ الماء، ولمّا يجري بجريه.

﴿نِعۡمَ﴾: فعل ماضٍ يستعمل للمدح.

﴿أَجۡرُ﴾: الأجر والأجرة: ما يعود من ثواب العمل دنيوياً كان أو أخروياً.

التفسير

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أمر إلهي إلى الناس أن يبادروا فوراً وبدون تأخير إلى القيام بأسباب المغفرة التي بها ينالون غفران الله لذنوبهم، وإذا غُفرت الذنوب تهيأ هذا الإنسان إلى رحمة الله وما أعدّه للمطيعين...

ولا بدّ من حمل المسارعة إلى المغفرة ـ على المسارعة إلى أسبابها وما

يتحقق بها ـ لأن المغفرة كفعل لا يملكها العبد، وإنما هي من مختصات الله وبيده هو سبحانه غفران الذنوب، نعم العبد بما أقدره الله عليه من أسباب فعلية أن يحقق هذه الأسباب، وإذا تحققت كما أراد الله وأحب وجاءت صحيحة تامة يتقبلها الله ويغفر الذنوب وكأن لم يكن هناك خلل في العمل أو سقط فيه. . .

ثم إن هناك عدة أقوالٍ في تفسير المراد من ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ﴾ حتى بلغ تعدادها في بعض التفاسير إلى تسعة أقوال وكلها جزئيات استحسنها أصحابها وهي تدخل تحت معنى عام، والصحيح: أنها المسارعة إلى كل فعل أمر الله به سواء كان الأمر على نحو الإيجاب أو الاستحباب، وكذلك المبادرة إلى ترك كل فعل نهى الله عنه سواء على نحو الحرمة أو الكراهة ـ وبعبارة مختصرة ـ هي فعل كل ما أمر الله به وترك كل ما نهى عنه. . . وهذا المعنى عام شامل جامع يدخل تحته كل تلك الأقوال. . .

﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾﴿وَجَنَّةٍ﴾ معطوفة على ﴿مَغۡفِرَةٖ﴾ أي وسارعوا إلى جنة. . بادروا إلى العمل الموصل إليها. .

ثم وصف الجنة بقوله: ﴿عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ وهنا أمَّا أن يُحمل هذا على المعنى الحقيقي ويكون عرضها كعرض السماوات والأرض وهي كقوله تعالى: ﴿عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾[1].

وإن قلت: إذا كانت الجنة هذه هي مساحتها! فأين تكون النار؟

أجاب النبي ﷺ عندما سئل عن ذلك، فقال: سبحان الله إذا جاء النهار فأين الليل؟. . .

وهذا الجواب منه ﷺ يدلّل على أن الله سبحانه الذي جعل الليل في مكان آخر من الكرة الأرضية عندما يأتي النهار وهو القادر على أن يخلق النار في موضع آخر لا يزاحم الجنة ولا يضيّق مساحتها. . .

---

(١) آل عمران/ ١٣٣.

وإما أن يكون قوله تعالى: ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ كناية عن غاية سعة الجنة وهو استعمال شائع، فيقال: بلاد عريضة: أي واسعة، وأن من أراد وصف شيء بالسُّعة عبّر عنه بالعرض ووصفه به. . .

وعبّر سبحانه بالعرض ليدلل على أن مَنْ كانت هذه عرضها. . . فلا بد وأن يكون طولها أكبر من عرضها وأوسع لأن الطول أكبر من العرض دائماً. . .

هذه الجنة هيئت للمتقين الذين خافوا الله وعملوا بما أمر وتركوا ما نهى عنه. . .

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ هذه بعض أوصاف المتقين ذكرها سبحانه ترغيباً للمؤمنين كي يتصفوا بها ويحاولوا أن يكونوا من أهلها. .

إن المتقين قوم يبذلون أموالهم في سبيل الله ولوجهه الكريم وفي جميع أحوالهم ولا ينقطعون عن العطاء في حال من أحوالهم في الشدة والرخاء وفي العسر واليسر بحسب حالهم يكون إنفاقهم. . .

والإنفاق وإن كان المتبادر منه المال، ولكن يمكن أن نتوسّع في مفهومه ليشمل الإنفاق من كل ما أعطاه الله لهذا الإنسان، ويكون الإنفاق بحسب ذلك المعطى. . فمن أعطاه الله جاهاً بذل من جاهه في سبيل قضاء حاجة الناس ومعونتهم، ومن أعطاه الله صحة وقوة وضع ذلك في سبيل الأخذ بيد المحتاج وإعانته ومساعدته، ومن أعطاه الله سلطاناً وحكماً حوّل ذلك إلى خدمة الناس وتحقيق مصالحهم، وهكذا دواليك. ويمكن استفادة هذا المعنى العام من حذف المتعلق حيث قال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ دون بيان هذا الإنفاق إلا أن يقال أن المتبادر منه إنفاق المال. . .

﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ وهذه صفة عالية يتمتع بها أهل الإيمان. . إنهم يحبسون غضبهم في أنفسهم ولا يظهر منهم حركة انتقامٍ أو ثأرٍ مع قدرتهم على فعل ذلك وتمكّنهم منه. . .

إن من يملك القدرة على الانتقام ويثأر إلى درجة عالية توجب الغضب

الشديد، ثم مع ذلك يردّ غضبه ويمتنع عن الجري وراءه وما يقتضيه، مثل هذا يمثل قيمة عظيمة في ضبط الأعصاب وقوة الإرادة والطاعة لله...

في الحديث عن علي بن الحسين عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله[1]: من أحب السبيل إلى الله عز وجل جرعتان: جرعة غيظ تردُّها بحلم، وجرعة مصيبة تردُّها بصبر.

وفي الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام يقول: من كظم[2] غيظاً وهو يقدر على إمضائه حشا الله قلبه أمناً وإيماناً يوم القيامة.

وفي حديث المناهي عن رسول الله صلى الله عليه وآله[3] قال: ومن كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه وحلم عنه أعطاه الله أجر شهيد.

﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ الذين يغفرون للذين يسيئون إليهم ويتجاوزون عما حدث منهم نحوهم ـ إذا لم يكن بذلك إخلال في الدين أو وهن لشريعة سيد المرسلين صلى الله عليه وآله ـ..

في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله: عليكم بالعفو، فإن العفو لا يزيد العبد إلاّ عزاً فتعافوا يعزُّكم الله. والعفوّ من أسماء الله تعالى مبالغة في العفو...

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ هذه صيغة عامة تشمل كل المحسنين وفي كل الميادين سواء كانوا محسنين في حديثهم أم في مواقفهم أم في عملهم أم في تصرّفهم. وحب الله لهؤلاء المحسنين إثابتهم على إحسانهم وإعطائهم الأجر...

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

وهذا أيضاً من صفات المتقين.

---

(١) أبواب أحكام العشرة، حديث/ ٤ ـ ٩ ـ ١٢.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.

إذا فعلوا سيئة قبيحة ومعصية عظيمة كالزنا أو القتل أو ما يعادل ذلك من الكبائر التي تتعدى شخص الفاعل إلى غيره من أفراد المجتمع. . . أو ظلموا أنفسهم ببعض السيئات والمعاصي الصغيرة مثل: النظر المحرم والحسد والبخل، مثل هؤلاء إذا فعلوا ذلك ثم تنبهوا لأنفسهم بعد ذلك.

﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي تذكروا عظمته وكبير عقابه، فرجعوا إلى أنفسهم وما اقترفت أيديهم ووقفوا على عظيم هذا الجرم وما يترتب عليه من العذاب والعقاب، فاستغفروا لذنوبهم، وتوجهوا نحو الله بالممحاة التي تأتي على كل ذنب فترفع أثره وتمحوه من الوجود. . .

﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾ توجهوا إلى الله بقلوب خالصة دون شفعاء أو وسطاء، بل يفتحون الخطوط بينهم وبين الله بوقفة اعتراف وندم وإقلاع عن الذنب وعودة إلى رحابه وهو سبحانه يقبل من العبد ذلك ويعود عليه بالتوبة فيمحو أثر الذنب وكل تبعاته. . .

ثم لتأكيد التوجه نحو الله قال سبحانه: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾: أي لا أحد يملك غفران الذنوب إلاّ هو سبحانه، فالقانون هو الذي سنّه ومخالفته تمرد عليه وعصيان له فالحق له وحده، فهو المالك للعفو عنه، كما أنه المالك لحق القصاص ممن تجاوزه واعتدى عليه. وفي الآية دعوة إلى العودة إلى الله وفيها من الأنس بتلك العودة ما فيها، كما أن الاستفهام يحمل معنى الإنكار على من يطلب الغفران من غيره من الأوثان وغيرها من الوسطاء وفي ورود الجملة بصيغة الإخبار فيه تأكيدٌ أن الغفران واقع منه وهو عام لذكر الغفران محلّى بالألف واللام الدال في مثل ذلك على العموم.

والاستغفار الحقيقي يكون بالإقلاع عن الذنب والعزم على ترك العود إليه أبداً، ولا يكون بالكلام وقول: أستغفر الله فحسب. فإن من يقول ذلك وهو مصرّ على المعصية ومقيم عليها يكون كالمستهزىء بالله كما في بعض الأخبار.

وكذلك من صفات هؤلاء الذين زلّت بهم القدم أنهم لم يستمروا على المعصية، أو يقيموا على فعلها وهم يعلمون أنها معصية. . .

وبعبارة أخرى: إنهم لم يقيموا على المعصية، إذا عرفوا أنها معصية عكس العصاة المتمردون الذين يفعلون المعصية مع معرفتهم أنها معصية ـ ويصرُّون على القيام بها ويستمرون عليها ـ والحال كذلك، فهؤلاء يفقدون روح التقوى ويتحدّون الله بجرأتهم على المعصية المعلومة بصفتها التمردية. . .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴿١٣٦﴾﴾. أولئك الذين فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا. . . الخ. . لهم مغفرة يتولاها الله فيمحو ذنوبهم من كل ملفاتهم، وبعد إسقاط الذنوب ومحوها أيضاً يوفر لهم الجنات التي تجري فيها الأنهار فتكتمل النعمة في الجنة بدخولها والخلود فيها ـ وهو البقاء الدائم ـ ونعم الثواب هذه الجنة ونعم الجزاء هذا الجزاء لكل عامل بأمر الله ومطيعٌ له.

قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿خَلَتْ﴾: مضت وانقضت.

﴿سُنَنٌ﴾: جمع سنة: وهي الطريقة التي يُقتدى بها، ومنها سنة النبي ﷺ والمراد بها هنا الوقائع التي حصلت للمكذبين.

﴿سِيرُوا﴾: السير: المضي في الأرض.

﴿فَانظُرُوا﴾: النظر: هو التأمل والفحص والتبصّر.

﴿عَاقِبَةُ﴾: عاقبة الشيء: آخره ونهايته.

﴿بَيَانٌ﴾: دلالة وحجة وموعظة والأصل في البيان: الكشف.

التفسير

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾. دعوة إلى النظر والتأمل في القوانين التي وضعها الله في الأمم السالفة، وكيف جرت الأمور وفق تلك القوانين والقواعد العامة...

لقد مضت أممٌ قبلكم حكمتها قواعدٌ عامة وضعها الله لمسيرتها وطريقة حياتها... إن للسقوط قانون يحكمه، وللصعود قانون يحكمه... للهزيمة ما يحكمها من سنن وقواعد، وللنصر قواعد وسنن تحكمه... حتى الأمم لها صعود وحكم وسلطان يحكمها وتجري هي وفقه ولسقوطها أيضاً ما يحكمه.

إنها السنن الإلهية لكل صعود ولكل هبوط ولكل تقدم ولكل تأخر... إن الحضارات التي بنتها الأمم المتقدمة لها قواعدها سارت بمقتضاها فتوصلت إلى القمة ثم تخلّت عنها فانحدرت إلى هوة السقوط..

إن الصراع بين أهل الحق وأهل الباطل يحكمه قانون عام وسُنَّة عامة يسقط في نهايتها الطغاة والظالمون والفراعنة ويرتفع في نهايتها الأنبياء والدعاة والمبشِّرون... وهكذا...

والقرآن يحث أهل الفكر أن يتأملوا في هذه الظاهرة العامة والسنن الموضوعة... أن يتأملوا في الآثار الباقية للأمم السالفة ويفكّروا في عوامل سقوطها وهبوطها ويأخذوا العبرة منها لتصحيح مسارهم ومستقبلهم...

إن وقفة متأملة إلى آثار عاد وثمود والفراعنة وغيرهم ممن كذّب الرسل تعود بهذا الإنسان إلى حقيقة ثابتة، مفادها أن التمرّد على الحق ورفضه ومحاربته يؤدي إلى الدمار والخراب والسقوط والهوان...

إن نظرة واحدة إلى مَنْ كذّب الرسل وأصحاب الحق تقود هذا الإنسان إلى الإيمان بأن الدمار سيحيق بهؤلاء المكذبين وسيدمّر الله عليهم بنيانهم ويأتي على كل حضاراتهم ومقومات وجودهم، ومنه يتوفر للعاقل رؤية واضحة تدعوه إلى السير وفق الأوامر الإلهية والبعد عن كل النواهي الإلهية...

من دراسة النتيجة وما وصل إليه الطغاة يكتشف العاقل خطأ مسيرتهم وما مشوا فيه، وهذا يدعوه إلى تنكب الطريق الذي ساروا عليه والبعد عنه إلى الطريق الآخر الذي عليه أهل الحق والصدق من الأنبياء والرسل والدعاة...

﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ وهو قوله: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ - أو راجع إلى القرآن - هذا فيه بيان شافٍ واضح يكشف الحقيقة للناس فيعتبروا بها ويتعظوا من خلالها...

وإن أول درجات الحقيقة هو أن تنكشف للناس وتتضح لهم فإذا ظهرت وانكشفت جاءت بعدها الهداية الموصلة إليها والموعظة التي ترقق القلب وتحمل المرء إلى الإيمان بها والعمل بمضمونها...

﴿هُدًى﴾ دلالة مرشدة إلى ذلك البيان المنكشف.

﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾ تحمل الإنسان إلى العمل بعد أن يلين قلبه وترق نفسه...

﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ خصّهم سبحانه بالذكر لأنهم المستفيدون من خطابه والمنتفعون من كلامه...

قـال تـعـالـى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿وَلَا تَهِنُوا﴾: الوهن: هو الضعف في خُلق أو خَلق.

﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾: الحزن: ضد الفرح، والحزن: خشونة في النفس لما يحصل فيه من الغمّ.

﴿الْأَعْلَوْنَ﴾: من العلو: وهو ضد السُّفل، والعلو: الارتفاع، والعليُّ: هو الرفيع القدر، والأعلى: هو الأشرف.

﴿يَمْسَسْكُمْ﴾: من المس: وهو اللمس، ويكنى به عما يصيب الإنسان من السوء والأذى، ويمسسكم: هنا بمعنى يصيبكم.

﴿قَرْحٌ﴾: بفتح القاف، قيل: إنه هو نفسه القُرح بالضم كالجهد بالضم والفتح، وقيل: بالفتح للجراحة بعينها، وبالضم ألم الجراحة، وقيل غير ذلك.

﴿نُدَاوِلُهَا﴾: المداولة: نقل الشيء من واحد إلى آخر، يقال: تداولته الأيدي: إذا تناقلته، وقولهم: «الدنيا دول» أي تنتقل من قوم لقوم.

﴿يَتَّخِذُ﴾: الأخذ: تناول الشيء واستحوازه، ولتكريم الشهداء عبّر سبحانه ﴿وَيَتَّخِذَ﴾.

﴿شُهَدَآءَ﴾: جمع شهيد: وهو المقتول في سبيل الله في معركة مشروعة.

﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾: المحص: التنقية والإزالة، ومحصته: إذا خلّصته من كل عيب.

﴿يَمْحَقَ﴾: المحق: هو النقصان، وقال بعضهم: هو أن يذهب الشيء كله حتى لا يرى منه شيء.

﴿حَسِبْتُمْ﴾: ظننتم.

﴿جَٰهَدُواْ﴾: قاتلوا في سبيل الله.

﴿تَمَنَّوْنَ﴾: تحبون وترغبون.

﴿تَلْقَوْهُ﴾: تشاهدوه وتروه، قال الراغب: اللقاء: مقابلة الشيء ومصادفته معاً، ويقال ذلك في الإدراك بالحس وبالبصر والبصيرة...

التفسير

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴿١٣٩﴾﴾. كانت معركة أُحد نكسة رهيبة سببتها مخالفة بعض المسلمين لأمر النبي ﷺ وكان من جرّاء ذلك أن نال المشركون من المسلمين قتلاً وجراحاً، وشعرت نفوس المؤمنين بالأسى والألم، وبعضهم استشعر بالهزيمة الداخلية التي أثرت على معنوياته وبالتالي على إيمانه، وبما أن معركة أُحد تركت هذه الآثار السيئة على النفوس جاءت هذه الآية لتربط على قلوبهم وتعيدهم إلى صوابهم وتردهم إلى الحقيقة المطلقة التي يؤمنون بها ومن خلالها يتحركون...

جاء النهي الإلهي عن الضعف ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ لا تتهاوى عزائمكم أو تفتر قوتكم وتضعف، وكذلك لا يصيبكم الحزن أو يسيطر عليكم بحيث يشل إرادتكم أو يمنعكم عن الحركة. . . لا تضعفوا عن الجهاد ولا تحزنوا على ما أصابكم من القتل وأنتم الأعلى منهم، فإن كانوا قد نالوا منكم يوم أُحد فقد نلتم منهم يوم بدر. . . والحال أنكم الأعلون في حروبكم والمنتصرون عليهم في نهاية المطاف.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فكأن ذلك بشرى يزفها الله إلى المؤمنين ويشدّ من خلالها عزائمهم وقوتهم.

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾. هذه سنّة إلهية وضعها الله للمجتمع البشري القائم فوق هذه الأرض والمتحرك عليها. . .

إن الصراع القائم سيستمر. . . حق يقابله باطل، وعدل يقابله ظلم، ونور في مواجهته ظلام، وهكذا دواليك. والله سبحانه وضع للنصر قوانينه وأساليبه وسبله، ووضع للهزيمة قواعدها وقوانينها وسبلها، فمتى سار الإنسان في قوانين النصر انتصر، ومتى سلك سبل الهزيمة وقواعدها انهزم، وهكذا في كل شُعب الحياة وسبلها. . .

ليس بالإيمان وحده ـ كعقيدة خالية من الأسباب ـ يكون الانتصار وإلا لتحول الناس إليه قهراً عنهم لأنه يحقق لهم أمنياتهم ولا يكلفهم أدنى تعب أو مشقة. والله سبحانه هنا يشدّ من عزائم المؤمنين ويدفعهم إلى إعادة النظر في واقعهم وواقع أعدائهم ويذكّرهم بأن ما أصابهم من قتل أو جراحة يوم أُحد فقد مسّ أعداءهم مثله في ذلك اليوم ـ أو في يوم بدر ـ فكما أصابكم قد أصابهم، ولكنهم شدوا عزائمهم واسترجعوا قوتهم وهبّوا لمواجهتكم. . . ما أصابهم لم يوهن قوتهم أو يضعفهم أو يشل حركتهم، بل مع كفرهم أعادوا الكرة عليكم ونالوا منكم، فكيف تضعفون أو تتكاسلون أو توهن قواكم وأنتم تملكون العقيدة

والإيمان التي على أساسها يملك المؤمن أعظم القوى التي تدفعه للحركة والمواجهة وعدم الضعف أو الكسل...

إن النصر ليس حتمي لفئة بعينها وعلى الدوام كما أن الهزيمة ليست دائمة أو حتمية لقوم آخرين... إن النصر والهزيمة يمران في حياة كل أمة فكما تشرب هذه الأمة نخب النصر في هذا اليوم قد تشرب كأس الهزيمة المر في يوم آخر تبعاً لاستعدادها وقوتها وما تملكه من عدة وعدد وتعيشه من تعبئة إيمانية بعدالة قضيتها ونبل هدفها...

إن النصر والهزيمة يتداولهما الناس كما تتداولهما الدول والشعوب والأمم، وكما قيل «دوام الحال من المحال» «والأيام دُوَل».

وصدق الله العظيم في قوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ فأيام نصر تعيشونها وأخرى أيام هزيمة، كنتم المنتصرون في بدر لأنكم اعتمدتم على الله وعلى أنفسكم وإيمانكم، وتوجهتم بكل قوة وعزيمة للدفاع عن وجودكم.. وانهزمتم في أُحد نتيجة خيانة شيخ النفاق ابن أبيّ وتمرد الرماة على أمر رسول الله ﷺ بتركهم الجبل ونزولهم لأخذ الغنائم من ساحة المعركة، مما جعل جيش المشركين يتحرك بقيادة خالد بن الوليد للانقضاض على من تبقَّى من الرماة وقتلهم وقلب موازين المعركة من هزيمة للمشركين إلى نصرٍ لهم...

إنها الأيام لا تستقر على حال ولا تبقى في مسيرة واحدة إلى اللانهاية...

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لتنكشف حقائق الأمور وخفاياها، فيظهر أهل الإيمان في مواطن الدفاع والجهاد والصبر والأناة على حقيقتهم، ويبرز الإيمان متجلياً في حركة واعية في ساحة القتال، وبهذا يتميزون عن أهل النفاق الذين تبرز حقائق دخائلهم وما يعيشونه من زيف وباطل في هزيمة وارتياب وشك وبالتالي فرار وهزيمة...

﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ وهذا من الكرامات العظمى للشهداء، حيث نسب الأخذ لنفسه، وأنه سبحانه هو الذي اتخذ ذلك، وتعبيراً منكم ليدلل على أن هذا

البعض كان موفقاً في هذه النتيجة وهذا الأخذ. . .

معنى أن يتخذ الله منهم شهداء أي يكرمهم بهذه الشهادة التي اختصهم بها ويرفع من شأنهم إلى مستوى أنه سبحانه هو الذي يتولى ذلك بنفسه. . .

وقيل إن قوله: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ أي يجعل منكم من يشهد على ما يجري في هذه الحياة ـ ومنها ما يجري في هذه المعركة ـ وهي معركة أُحد لينقلها للناس بحقيقتها وكما هي ويشهد على أن الأيام دول لا تستقر لقوم ولا تدوم على حال، ولكن المعنى الأول هو المتبادر وإليه ينسبق الذهن وعليه الفهم العرفي العام. . .

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي يبغضهم ولا يريد لهم النصر والغلبة، ولكن جرت أموره سبحانه بأسبابها، فعندما انخزل المسلمون وتهاونوا في القتال وكانت المخالفة منهم لأمر النبي ﷺ كانت الهزيمة لهم والنصر لأعدائهم عليهم. . . والمقصود بالظالمين إمّا ابن أبيّ ومن تابعه في طريق النفاق وإمّا الكفّار لشركهم، والشرك ظلم عظيم واللفظ ينطبق عليهما ويصح وقوعه بهما. . .

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ وهذا أيضاً من علل المداولة، فمن ادّعى الإيمان وصبر على مستلزماته من الجهاد والقتل والبلاء والتشريد والتغريب ثبت صدق ما يدّعي وبه يمتاز عمن ادّعى ذلك، ثم انهار لأول حدث وقع عليه فارتدّ إلى الكفر بعد ذلك أو ارتاب في الدين أو شك فيه. . .

فإذا كانت الجولة على المؤمنين من قبل الكافرين ظهر الإيمان وانكشفت حقيقة من ادّعاه ممن كذب فيه.

وإذا كانت الجولة على الكافرين من قبل المؤمنين كان في ذلك محو لآثار الكفر وأربابه.

فالمداولة على كل حال تعود منافعها لمصلحة المؤمنين سواء كانت عليهم أم لهم. . .

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴿١٤٢﴾﴾.

﴿أَمْ﴾ تسمى منقطعة وهي بمعنى «بل» والاستفهام للإنكار..

وهذا الخطاب موجّه إلى بعض المسلمين الذين كانوا يظنون أنهم يدخلون الجنة بدون جهاد وقتال وبدون صبر واحتساب. فردّ الله عليهم بأن ذلك لن يكون بل لا بد لدخول الجنة من جهاد في سبيل الله تُسفك فيه الدماء وتبذل الأموال ويتعرض المرء فيه لشتى الأخطار.. لا بدّ من الصبر على البلاء والضراء وكل امتحان واختيار...

فإذا وقع من المؤمنين الجهاد والصبر تحقق ما ترتب عليه وما كان نتيجة طبيعية له، ألا وهي الجنة التي يطلبها المؤمنون ويسعى إليها الساعون.

وقوله: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾ نفي للمعلوم بنفي العلم به، من حيث أن الله محيط بالأشياء يعلمها بتفاصيلها وجزئياتها ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[1]. فإذا نفى علمه بها فقد نفى وجودها رأساً، إلاّ أن يتحقق ذلك بالجهاد والصبر.

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴿١٤٣﴾﴾. هذه الآية تحكي رغبة قوم من المؤمنين الذين لم يخرجوا إلى معركة بدر وكيف تمنّوا أن يدركوا الشهادة لما وصلهم عن فضل من استشهد في تلك الغزوة، ثم لما لاحت لهم هربوا منها...

في الحديث عن أبي الجارود ـ كما في تفسير القمي ـ عن الباقر عليه السلام أن المؤمنين لما أخبرهم النبي بالذي فُعِل بشهدائهم يوم بدر ومنازلهم في الجنة رغبوا في ذلك، وقالوا: اللهم أرنا قتالاً نستشهد فيه: فأراهم الله إيّاه يوم أُحد فلم يثبتوا إلاّ من شاء الله منهم..

---

(١) يونس/ ٦١.

فالآية فيها عتاب لبعض المسلمين الذين كانوا يرغبون الشهادة في سبيل الله ويحبونها ويتمنون أن يصبحوا شهداء، فلما رأوها «من حيث سقط رفاق السلاح أمامهم» وكادت الشهادة أن تدركهم، فلما تراءت لهم انسحبوا من أمامها وانخذلوا عنها، وهم يرون ذلك بأم أعينهم حقيقة واضحة ناصعة...

والمقصود بتمني الموت هنا ـ هو الشهادة في سبيل الله ـ حيث بلغهم أجرها ومقام أربابها عند الله(عز وجل)...

وفي الآية بيان صغرى من صغريات التمحيص، كما أن فيها دلالة على أن الإنسان يجب أن يتفحص مقدار طاقته واستعداده على تحمل ما يتمناه، لا أن يطلق التمني دون أن يكون له القدرة على تحقيق ما يتمناه ويرغب فيه...

قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا ٱسْتَكَانُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿خَلَتْ﴾: مضت، انقضت.

﴿ٱنقَلَبْتُمْ﴾: انصرفتم ورجعتم.

﴿أَعْقَـٰبِكُمْ﴾: جمع عقب: وهو مؤخر الرجل، يقال: انقلب على عقبه: أي رجع إلى ما كان عليه.

﴿يَضُرَّ﴾: الضر: ضد النفع، لن يضر: لن يؤذي ويدخل الضرر.

﴿وَسَيَجْزِى﴾: سيثيب ويكافيء.

﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: إرادته ومشيئته.

﴿كِتَٰبًا﴾: مصدر ويراد به مسجّل ومثبت ومدوّن.

﴿مُّؤَجَّلًا﴾: محدوداً بحد لا يتقدم عليه أو يتأخر عنه.

﴿يُرِدْ﴾: أراد الشيء أحبه ورغب فيه.

﴿ثَوَابَ﴾: أجر.

﴿نُؤْتِهِۦ﴾: نعطه.

﴿وَكَأَيِّن﴾: بمعنى كم المفيدة للكثرة.

﴿رِبِّيُّونَ﴾: جمع ربي نسبة إلى الرب كالربانيين: وهم العلماء بالله، وقيل: نسبة إلى الربة التي هي الجماعة.

﴿وَهَنُوا۟﴾: الوهن: ضعف من حيث الخلق أو الخُلُق.

﴿أَصَابَهُمْ﴾: نالهم.

﴿ضَعُفُوا۟﴾: الضعف: خلاف القوة وقد يكون في النفس وفي البدن وفي الحال.

﴿ٱسْتَكَانُوا۟﴾: خضعوا وذلوا، وأصله من السكون: وهو ثبوت الشيء بعد تحركه.

﴿وَإِسْرَافَنَا﴾: السرف: تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان.

﴿وَثَبِّتْ﴾: الثبات: ضد الزوال والتحرك، وثبّتُه إذا قويتُه.

﴿أَقْدَامَنَا﴾: جمع قدم: وهو العضو المعروف المحدود في الرجل بين طرف إبهام الرجل وطرف العقب..

التفسير

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴿١٤٤﴾﴾.

هذه الآية نزلت في غزوة أُحد وذلك عندما انتشر خبر قتل رسول الله ﷺ وفشى ذلك بين الناس حتى وصل بهم الخوف إلى أن قال بعضهم: ليت عبد الله بن أُبيٍّ يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان، وقال قوم من المنافقين: لو كان نبياً لما قتل إرجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم.

فقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك: يا قوم! إن كان قد قُتل محمد فإن رب محمد حي لا يموت وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ؟ قاتلوا على ما مات عليه...

ثم قال: اللهم إني أعتذر إليك! مما يقول هؤلاء، ثم سلّ سيفه فقاتل حتى قتل رحمه الله تعالى.

ومرّ بعض المهاجرين بأنصاري يتشحط في دمه فقال: يا فلان! أشعرت أن محمداً قد قتل؟ فقال: إن كان قتل فقد بلّغ، قاتلوا على دينكم...

الرسول والرسالة

بدون شك أن الرسول مهمته عظيمة وكبيرة، فهو الناقل لكلام الله ومراده سواء كان وحياً منزلاً نصاً وروحاً أو معنى...

وبدون شك أن قوله وفعله وتقريره هو المعبر عنه بسنة النبي ﷺ حجة يجب على الناس جميعاً الالتزام بها والسير كما يريد، فتجب إطاعته ولا تجوز مخالفته وإلاّ لانتقض الغرض من الرسالة وبطلت النبوة...

وأيضاً نفس وجوده بركة وخير، ومن رآه وصحبه فقد نال شرفاً رفيعاً وكرامة

عظيمة، إن هو حفظ كرامة وشرف هذه الرؤية، بأن ثبت على الإيمان واستمر على التقى وإلاّ كانت الحجة عليه أعظم والمصيبة أكبر. . .

ولكن وجود الرسول لا يؤثر في الرسالة بحيث إذا مات أو قتل تعطلت الرسالة وبطل أثرها وجاز للناس أن يعودوا إلى ما كانوا عليه من الجاهلية والعقائد الوثنية. . .

إن موت الرسول أو قتله لا يُبطل مفعول العقيدة التي جاء بها وتحمّلها من قبل الله. . .

إنها عقائد قد وضعت في أفكار الناس ونفوسهم، وتشريعات تحركت في سلوكهم وحركة حياتهم. . .

إن ما جاء به النبي ﷺ قد أُفرغ في نصوص وتشريعات انتهى دور الرسول بعد آدائها وانتقاله إلى الرفيق الأعلى، وهذه سُنّة جارية حتى في القوانين الوضعية التي اجتهدت في استنباطها العقول البشرية، فليس بموت واضع القانون يموت القانون نفسه، بل يبقى ساري المفعول حتى يُعدّل أو يلغي بقانون أفضل منه وأحسن. . .

ومن هنا نطلُّ على الآية الكريمة لنفهم مدلولها بشكل واضح.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾. ليس محمد إلا رسول قد مضت الرسل قبله كموسى وزكريا ويحيى وعيسى فمنهم من مات ومنهم من قتل. .

وإذا كان حكمه حكمهم فيجب أن تكون رسالته كرسالتهم، فأولئك الأنبياء ماتوا أو قتلوا وبقي أتباعهم على دينهم ثابتين متمسكين لم يرتدّوا أو يرجعوا إلى الكفر، فكذلك يجب أن تكونوا أيها المؤمنون على تلك السيرة ثابتين بدينكم متمسكين به، ولا يجوز أن تخرجوا عن هذه القاعدة العامة أو تشذوا عنها.

﴿أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ تأنيب لهذه الطائفة التي ما إن

سمعت بقتل رسول الله ﷺ حتى ارتجفت أعصابها وعصف الشك في عقيدتها وراحت تلتمس من يؤمّن لها بقايا حياتها ولو على الكفر والإلحاد. . .

هل موت رسول الله ﷺ يلغي رسالته أو يسقطها؟!. . وهل قتله يؤثر على التمسك بها والعمل بمضمونها والمثابرة عليها؟!. . هل موت رسول الله أو قتله يجعلكم ترتدُّون على أعقابكم إلى الجاهلية والكفر والضلال والشرك؟!. . . إن كل ذلك يجب أن لا يكون. . يجب أن تكونوا ثابتين على عقيدتكم مطمئنين لصحتها عاملين بمضمونها. . إن مهمتكم تزداد وتقوى وتشتد في غياب الرسول ﷺ من حيث كان يتحمل عنكم تبليغها وإيصالها إلى الناس وحملهم عليها وإلزامهم بها ونشرها بين من لم تصل إليهم وهذا كله يتحوّل إليكم، فيجب أن تقوموا به وتتولّوه بأنفسكم. . .

وهذه الآية من الوضوح بمكان وهي تدل بصراحة أن هناك جماعة من الصحابة قد ارتدُّوا ورجعوا عن الإسلام وأخذوا يطلبون الأمان عند أبي سفيان متوسلين بشيخ النفاق عبد الله بن أُبيّ. .

وهذه الآية لسان صدق في أن من الصحابة من كان يعبد الله على حرف، وإن كان من عدّلهم جميعاً قد أخطأ فيما ذهب إليه، نعم إن القول الفصل فيهم هو: أن فيهم الصحابة العدول الأبرار الطيبون الأخيار الذين يُستسقى الغمام بهم، والذين تُنال الشفاعة بشفاعتهم، كما أن فيهم المنافقين الذين ارتدوا وكفروا وفيهم العصاة المتمردون وفيهم الفجرة المنحرفون. . .

إن قوله: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ﴾ استفهام يتضمن الإنكار عليهم أن يكون حالهم هو الارتداد والرجوع إلى الكفر، إن مات النبي أو قتل بعد أن عرفوا سيرة الرسل قبله ممن مضى حيث آتاهم الموت الذي يأتي الناس جميعاً. . .

﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ﴾. هذا بيان أن الضرر سيعود عليهم، لأن من ارتدَّ فلن يضرّ إلا نفسه، والله غني عنهم وعن إيمانهم، يدعوهم

إلى الإيمان به والإيمان برسله من أجل مصالحهم ومنافعهم، ويعود ذلك كله عليهم بالخير، فمن أبى ورفض كان عاقبته الخسران والبوار.

﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ من يرجع القهقري إلى ما كان عليه من الكفر ويرتدّ بعد الإيمان.

﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ بل لا يضر إلا نفسه، وهذا على حد قولك لولدك «إن ما تأتي به لن يضر زيداً أو عمراً» أي لا يضر إلاّ نفسك...

﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ سيثيب المطيعين الذين ثبتوا على الإيمان وثبتوا في ساحة الجهاد ولم يتولوا أو يهربوا من سيوف الأعداء.

وعبّر بالشاكرين عمن ثبت في ساحات المعركة، لأن شكر الإيمان أن يؤدي متطلباته، ومن متطلباته أن يثبت المرء ويصمد في ساحات الجهاد، فيكون ذلك شكراً لله من هذه الناحية.

فوائد

١ ـ إن محمداً ﷺ مثله مثل الأنبياء الذين تقدموه يتعرض لما تعرضوا إليه من البلاء والشدّة والحرب والقتال، منهم من مات حتف أنفه مثل موسى ومنهم من قتل مثل يحيى.

٢ ـ إن من الصحابة من تعرض لزلزال شديد في إيمانه فارتدّ بعد إيمان، وكفر بعد إسلام عندما أُشيع أن النبي ﷺ قد قتل في معركة أُحد كما أن هناك من ثبت على الإيمان، وقد عبّر عنهم بالشاكرين وجزاهم من عنده بقوله: وسيجزي الله الشاكرين.

٣ ـ إن الانقلاب على الأعقاب ـ أي الكفر بعد الإيمان ـ لا يضر إلاّ أصحابه، ولا يضر الله شيئاً، لأنه الغني المطلق.

٤ ـ يراد بقوله: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ﴾ يعني حتف أنفه، وكما هو مقدّر له.

ويراد بقوله ﴿أَوْ قُتِلَ﴾ أي استشهد، فالقتل هنا موت مع بيان سببه. . .

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾. وهـــذا درس مـــن دروس معركة أحد، بل حقيقة واقعية يجب أن يتنبه لها الإنسان المؤمن ويعتقد بها. . .

كان المشركون قد أرجفوا أن النبي ﷺ قد قتل وسَرَتْ الشائعة حتى وقع ما في أيدي الناس وساورهم الشك في الدين وبعضهم راح يتمنى لو عبد الله بن أُبيّ شيخ المنافقين يأخذ لهم الأمان من أبي سفيان.

فهنا يأتي الرّد بأنّ القعود عن الجهاد والقتال لا يمنع الموت، وكل نفس لها وقت مؤجل إلى أجل معين، إذا استوفته النفس وانتهى وقته عندها تموت. . .

إنها دعوة إلى الجهاد وعدم القعود والخمول، لأن من اعتقد أن له أجلاً معيناً إذا جاء سيموت، وإذا لم يأت فلن يموت قبله، مهما كانت المخاطر، فهو بهذه الرؤية يملك الجرأة والإقدام وخوض المعارك ومبارزة الأبطال والدفاع عن الدين والشريعة والحق، وكل القيم والمثل والشرائع بقلب ثابت قوي وأعصاب فولاذية متينة لا تؤثر فيها الدعايات المثبّطة للعزائم أو الحروب النفسية المسقطة للمحقوق. . .

إنّ من يعلم أن لموته وقتاً معيناً لا يتقدم عنه أو يتأخر سوف يقف في وجه الطغاة والمستبدين دون أن يهاب سيفهم وسوطهم، وسوف يواجههم بكل جرأة وشجاعة ويقف في وجوههم يردّهم عن ظلمهم ويمنعهم عن إسرافهم. . .

إنّ من يعلم أن لموته وقتاً معيناً لو اجتمعت عليه كل ظلمة الأرض وطواغيتها لن تؤثر في تقديمه لحظة واحدة، هذا يستدعيه أن يحطّم عروش الجبابرة ويُسقط تيجانها ويبقى ينشد نشيد الحرية الذي تعلّمه من الله وأراده منه ربه في كل حين. . .

بإرادة الله تموت النفوس في أوقاتها المحددة لها، فهو سبحانه الذي حدّد لها وقتاً لا تتعداه كما لا يصح لها أن تتقدمه. . .

الخلاصة: إنّ الموت بيد الله، هو الذي كتبه على عباده في وقته المحدّد له ـ وكما قدره وكما هو في علمه ـ ولا يستطيع أحد على تقديمه أو تأخيره، وعليه فلا داعي للجبن والخوف والقعود عن الجهاد في سبيل الله...

﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ من يعمل للدنيا ومغانمها سوف يحصل منها على بعض ما يريد ولا يتأتى له تحصيل كل ما يريد.

﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ أي من الدنيا فحسب دون الآخرة وهذا على حد قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾[1].

وقال بعضهم أن هذا اتهام لبعض المسلمين الذين تركوا وصية النبي ﷺ لهم بالمرابطة في ثغر جبل أُحد ثم نزلوا لأخذ الغنائم عندما انتصر المسلمون في بداية المعركة.

﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ وهذا أيضاً إشعار بأن من المسلمين من خرج يطلب بجهاده الآخرة وأجرها وثوابها، وهذا سيعطيه الله ما أراده وطلبه وسعى إليه بحسب نيته وصدق طويته...

﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ من أدى ما وجب عليه ووضع الأمور في مواضعها سيعطيه الله ما يستحق ويثيبه بما عمل، وهذا على حد قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾[2].

فمن صبر في ساحات الجهاد على مواجهة الأعداء كان على الله أن يعطيه أجر المجاهدين، ومن استشهد وهو مقبل غير مدبر على بصيرة من دينه ويقين من طريقه سوف يعطيه الله أجر الشهداء، وهكذا دواليك...

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟

(١) الإسراء/ ١٨.
(٢) الإسراء/ ١٩.

﴿وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴿١٤٦﴾﴾. بعد أن عاب سبحانه على المسلمين فرارهم عن نبيهم ﷺ وتخاذلهم عن نصرته ـ إلاّ القلة منهم ـ وبعد أن بيّن لهم أن العمر مقدّر بيد الله هو الذي وقّت له نهاية ينتهي عندها فيموت، بعد هذا أراد سبحانه أن يضرب لهم مثلاً بأمم الأنبياء، وكيف كانت سيرة المتألهين الذين يعيشون الرسالة بعمقها مع أنبيائهم...

إنّ في بيان حال الربيّين مع الأنبياء درس لمن كان من المسلمين في أُحد ودرس لنا ولكل أتباع الحق أن يكونوا أقوياء في عقيدتهم، لا تهزمهم جحافل الكفر نفسياً أو عسكرياً مهما كانت قوة الكفر وجبروته...

إنّ الربيّين قاتلوا مع الأنبياء فما وهنت قوتهم مهما كانت المصائب تنزل بهم ومهما كانت الصعاب تواجههم... تحمّلوا الضرب بالسيف والجراح والتشريد والسجن والقتل واحتسبوا كل ذلك في سبيل الله وهوّنوا على أنفسهم أنّ كل ما يلاقونه في عين الله ومن أجل تنفيذ أمره وامتثال إرادته...

إنّ صلابة مواقفهم وقوة دفاعهم عن عقيدتهم يجعلهم ذلك كله قدوة صالحة تستشرفها كل النفوس الصالحة الطيبة التي تعيش عمق قضاياها وحقائق عقيدتها وإيمانها...

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾.

﴿وَكَأَيِّن﴾ بمعنى كم، وهي تفيد الكثرة، فكثير من الأنبياء قاتل معهم كثيرون من العلماء المتألهون.

﴿رِبِّيُّونَ﴾ فكانت مواقفهم عظيمة جليلة لم تبلغوا أنتم ما بلغوه، ولم تصلوا أنتم إلى ما وصلوا إليه، وإن كان حقكم أن تبلغوا ما بلغوا وتصلوا إلى ما وصلوا، أنهم مع قتالهم وما نالهم من الشدائد والمحن والمصائب.

﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فما فتروا ولا جنبوا لما أصابهم من الجراح والقتل في سبيل الله.

﴿وَمَا ضَعُفُوا۟﴾ في أبدانهم عن جهاد عدوهم.

﴿وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾ وما ذلّوا وخنعوا ورضوا بالدون وتسلّط الأعداء عليهم، بل تحرّكوا باستمرار ولو من القليل وبالقليل وواجهوا أعداءهم بكل صلابة وقوة.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ومحبة الله للصابرين إثابته لهم وإعطاؤهم الأجر والفضل، وخير الصابرين في معركة أُحد وفي كل معارك المسلمين هو الإمام علي عليه السلام الذي ما فرّ من معركة ولا وهن في موقف ولا استكان أمام خصم، وفي معركة أُحد كان الصابر المحتسب الذي دافع عن النبي صلى الله عليه وآله حتى أضحى بدنه كتلة جراحات لم يضمد منها جرح إلا انفتح آخر حتى مدّ النبي صلى الله عليه وآله يده الشريفة إليها ومسحها فأخذت تلتئم وهو يقول له: «إن رجلاً لقي هذا في الله فقد أبلى وأُعذر»...

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴿١٤٧﴾﴾. هذه هي مقولة الوعاة للعلم الذين يعيشون حقائق الإيمان... إنهم المتألهون الربانيون الذين يعطون بمواقفهم وأعمالهم الدروس لمن بعدهم كما يعطونهم الدروس بأقوالهم...

المواقف صامدة والرؤوس مرتفعة والمعنويات في أعلى درجاتها لم يدخل إلى قلوبهم شك أو هزيمة ولم تحدّثهم أنفسهم بضعف أو وهن... وفي أقوالهم يمثلون القمّة الشامخة، ولذا ينقل الله أقوالهم كما هي:

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ هذا هو شعورهم بعظمة الله وعلوه، وأنهم أمامه أصحاب ذنوب وخطايا، وهو وحده القادر على محوها وإزالتها وإزالة وجودها من ملفاتهم...

﴿رَبَّنَا﴾ أنت خالقنا ومدبر أمورنا وحدك تملك مغفرة ذنوبنا فاغفرها لنا... وامح أثرها من كتب أعمالنا.

﴿وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾ إغفر لنا ما كنا قد تجاوزناه نحوك في مواقفنا وأقوالنا وما كلفتنا به وأردته منا، فإنا ضعفاء يحكمنا الفقر والحاجة فنعثر وتزلّ بنا القدم...

﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ أعطنا ما به نقوى على مواجهة الأعداء، فلا نفرُّ أو ننهزم لكثرة عدد العدوّ أو لكثرة عدته.

﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي أنزل علينا عونك حتى ننتصر على الكفار، وهذا انتصار للدين وللحق في مقابل الكفر والضلال.

﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ هذا جزاء هؤلاء الربيُّون الذين أخلصوا لله في مواقفهم وفي سلوكهم وفي أقوالهم وفي أنفسهم وفي ضمائرهم.. إنه جزاؤهم في الدنيا أن يعطيهم الله ما يكتسبونه من الغنائم ويعطيهم عزّ هذه الدنيا، فيحولهم إلى سادة وقادة وأولياء الأمور.. أعزّةً كراماً شرفاء... أصحاب سيادة في أرضهم يهابهم الأعداء ولا يجرؤون على قتالهم أو النيل منهم...

إنّ من يتمتع بما تمتع به الربيون من عقيدة ونظر وعمل وجهاد لا شك أنه يصبح عزيز الجانب مصوناً محترماً كريماً كبيراً في نظر الناس ونظر الأمم جميعاً...

﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ وأجر الآخرة الحسن، ووصف الثواب بالحسن دليل تميّزه عن ثواب الدنيا لأن ثواب الدنيا زائل وثواب الآخرة دائم باق.

وثواب الآخرة الحسن.. الجنة ونعيمها وما فيها من حور عين وولدان مخلّدين وروح وريحان ونعيم لا يخطر على قلب بشر، رزقنا الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة.

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ من أحسن في عمله فأتى به على وجهه الذي يحبه الله ويرضاه فالله يحبه، أي يجزيه عليه بالأجر والثواب.

وهذا ترغيب في الإحسان والعمل به بشكل عام، ويدخل فيه أولئك الربيون الذين أحسنوا في سلوكهم وفي أقوالهم وفي أحوالهم، كما يدخل فيه الذين أحسنوا في صبرهم مع النبي ﷺ يوم أُحد ودافعوا عنه ودفعوا العدو عن ساحته وعلى رأسهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام الذي كان المُجلّي في ذلك اليوم...

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿تُطِيعُواْ﴾: تنقادوا، وأطاعه: إذا انقاد له.

﴿يَرُدُّوكُمۡ﴾: يرجعوكم.

﴿أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾: جمع عقب: وهو مؤخر الرجل، يقال: انقلب على عقبه: أي رجع إلى ما كان عليه.

﴿فَتَنقَلِبُواْ﴾: تنصرفوا وترجعوا.

﴿خَٰسِرِينَ﴾: الخسران: انتقاص رأس المال، وهنا يراد به الهلاك.

﴿مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾: ناصركم.

﴿سَنُلۡقِي﴾: الإلقاء: طرح الشيء حيث تلقاه، أي تراه، ثم صار في التعارف اسماً لكل طرح.

﴿ٱلرُّعۡبَ﴾: الخوف والفزع.

﴿سُلْطَانًا﴾: السلطان أصله القوة، وهنا يراد به الحجة والبرهان.

﴿مَأْوَاهُمْ﴾: المأوى مصدر أوى يأوي آوياً ومأوى، تقول: أوى إلى كذا: إذا انضم إليه، ومأواه جهنم: اسم للمكان الذي يأوي إليه، أي يرجع.

﴿مَثْوَى﴾: يقال: ثوى في المكان: إذا أقام فيه، والمثوى: المكان الذي يكون مقر الإنسان ومأواه.

التفسير

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾. بعد أن تقدم الحديث عن إتباع الأنبياء وما أمرنا الله بالاقتداء بهم، حذّرنا هنا من طاعة الكافرين...

الخطاب موجّه إلى المؤمنين لأنهم المنتفعون منه المستفيدون من مضمونه.

قالوا: إن سبب نزول هذه الآية أن المنافقين قالوا للمؤمنين يوم أُحد بعد الهزيمة: إرجعوا إلى إخوانكم وارجعوا إلى دينكم.

وقيل: نزلت في اليهود والنصارى الذين أخذوا يشككون المسلمين بنبيّهم ودينهم.

وقيل غير ذلك ـ وعلى كل حال ـ فخصوص المورد لا يخصص الوارد، فيبقى النص عاماً يشمل الجميع، وما ذكر من الأسباب فهي مصاديق لذلك العام تدخل تحته وتنضوي ضمنه...

طاعة الذين كفروا

الذين كفروا يحملون تصوراً خاصاً وعقيدة خاصة ولهم أهداف معينة مرسومة يعملون لها ومن أجلها، وقد كان الكفار في مواجهة شديدة مع المؤمنين، ابتدأت الحرب في بدر وثنيت في أُحد وستستمر إلى أن ينتهي الكفر...

ومن المعلوم أن هذه الحرب هي حرب على الأفكار الجاهلية والمعتقدات الباطلة والعادات الظالمة، وقد جهد أئمة الكفر ومن ورائهم كل أتباعهم على محاربة النبي ﷺ وأصحابه، ولو قدروا على إبادتهم والقضاء عليهم ما ونَوا ولا قصّروا، وقد حاولوا ذلك أكثر من مرة وفي أكثر من موقع، وعلى كل المستويات، ولكن كل جهودهم كانت تذهب سدى وتتبدد أمام صمود النبي ﷺ والمسلمين وتفشل كل خططهم وما يبيّتون. . .

وإذا كانت هذه هي حالة الكفار. . . بُغض وحقد على المؤمنين، وحرب وقتل وإثارة كل الإمكانيات وتحشيدها ضد المسلمين! إذا كانت هذه سيرة الكفار مع المسلمين! فهل تتصور من كافر يبيح دمك ويشن الحرب ضدك ويؤلّب القبائل لمحاربتك؟ وقد فعل كل ذلك في بدر وفي أُحد أولى الوقعات الإسلامية، هل تتصور بعد ذلك أن يأمرك بخير يعود عليك أو نفع يرجع إليك؟!. . هل تتصوّر أن في طاعتك له فيما يأمر أو ينهى يريد خيرك وخير دينك وسعادتك وسعادة دينك. ؟

بالطبع إنه لا يأمر إلاّ بما فيه تقوية لدينه ـ إن سُمِّي ما يعتقده ديناً ـ ومعتقده وما يرجع إليه وعليه بالفائدة والخير. . .

من هنا جاء التحذير للمؤمنين أن يرفضوا طاعة الكفار ـ يهود ـ ونصارى ـ ومنافقين ـ ولا يطيعوا إلا من يؤتمن على عقيدتهم ودينهم وأنفسهم وأموالهم وأعراضهم وممتلكاتهم وما في أيديهم وما هم عليه. . .

إن في طاعة الكفار رِدّة عن الدين الحق إلى الكفر وإلى ما عليه أهل الجاهلية من الانحراف والضلال.

﴿إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فإنهم لا يأمروكم إلاّ بالكفر، ومن هنا طاعتهم تؤدي بكم إلى الارتداد عن الإسلام والعودة بكم إلى الكفر وإلى ما كنتم عليه من الإلحاد، وتعودون بالخسران في الدنيا وفي الآخرة، ففي الدنيا يحكم عليكم بالقتل وفي الآخرة مصيركم إلى النار. . .

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴿١٥٠﴾﴾. ثم بعد أن حذّر المؤمنين من إطاعة الكافرين أرشدهم إلى من تجب طاعته ومن به يكون الفوز والفلاح... فالله وحده هو الناصر والمعين، وإذا انحصرت الإعانة والنصر فيه وحده سقط غيره من أركان الكفر ودعائم الضلال...

﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ﴾.

هذا وعد قطعه الله على نفسه أن يبقى الذين كفروا في حالة هلع وخوف من العقيدة الإلهية الإسلامية الصحيحة، ولئن كانت قد نزلت الآية زمن رسول الله ﷺ وعاش الكفر يومها حالة من الرعب والخوف على نفسه وعلى أتباعه، فإنها اليوم أيضاً تتجلى فيما يصرّح به فراعنة هذا الزمن وطواغيته من أن القوة الإسلامية المتنامية تهدّد كيانها حاضراً ومستقبلاً، وتنشغل دوائره الأمنية والسياسية في البحث عن كيفية مواجهة الإسلام والمسلمين والوقوف في وجه هذه الصحوة الإسلامية التي تهدّد مصير الكفر والإلحاد...

في زمن النبي ﷺ سرى الرعب في قلوب الكفار وأخذت حصونهم تتداعى وتتساقط واحدة بعد أخرى، وجاء هذا الوعد الإلهي محققاً واقعاً لا محيد عنه، فعند نزول هذه الآية لم يكن الرعب والخوف قد دخل قلوب الذين كفروا، ولكن بعد ذلك سرى في نفوسهم وسقطت كل قِلاعهم...

فُتحت مكة وفُتحت حصون خيبر والسلالم والوطيخ وكل حصون اليهود وجحورهم وقواعد الشرك وأهل الكفر...

إن الكفر وسيلة خراب، ومن أشرك بالله فقد سقطت حجته وبالتالي سقط بنفسه تبعاً لسقوطها...

إن حجة المشركين فيما يذهبون إليه واهية متداعية، فهي بمنزلة عدم الحجة، بل هي عين العدم ولا حجة لهم على شركهم، ومن هنا يسري الرعب في كيانهم

ويتهددهم باستمرار من حيث مطاردة المؤمنين لباطلهم وزحفهم نحوهم على الدوام لإبطال ما ذهبوا إليه من ضلال وانحراف. . .

﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ منزلهم الذي يأوون إليه ويرجعون إليه هو نار جهنم.

﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بئس المنزل والمقام جهنم التي يأوي إليها الظالمون. . .

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٥٢)﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿صَدَقَكُمُ﴾: أي وفى لكم وحقق ما وعدكم.

﴿وَعْدَهُۥٓ﴾: يقال: وعده الأمر وبالأمر، قال له: أنه يجريه له أو ينيله إيّاه.

﴿تَحُسُّونَهُم﴾: تقتلونهم، والحس: القتل الذريع.

﴿بِإِذْنِهِۦ﴾: بأمره ودعوته.

﴿فَشِلْتُمْ﴾: الفشل ضعف مع جبن.

﴿تَنَٰزَعْتُمْ﴾: التنازع والمنازعة: المجاذبة ويعبّر بهما عن المخاصمة والمجادلة.

﴿وَعَصَيْتُم﴾: العصيان: هو الخروج عن الطاعة، وأصله أن يتمنع بعصاه.

﴿صَرَفَكُمْ﴾: الصرف: رد الشيء من حالة إلى حالة أو إبداله بغيره.

﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾: ليختبركم ويمتحنكم.

﴿عَفَا﴾: أصل العفو ـ كما في مفردات الراغب ـ هو القصد إلى تناول الشيء، والعفو: هو محو الذنب وعدم المحاسبة عليه.

التفسير

وَعَدَ الله المؤمنين النصر إن اتقوا وصبروا، وهذا الوعد ساري المفعول باستمرار إذا تحقق الشرط، فإذا تخلّف هذا الشرط تخلّف ما ترتّب عليه من نتيجة. . .

وفي أُحد تمّ وعد الله واستطاع المسلمون في ابتداء المعركة أن يحققوا النصر في أعلى درجاته حتى انهزم الكفار وأخذ المسلمون في جمع الغنائم. .

ولكن هذا النصر لم يكتمل! فقد خالف الرماة الذين وضعهم النبي ﷺ في ثغر جبل أُحد أمره وتنازعوا فيما بينهم لما رأوا المسلمين يجمعون الغنائم، فذهب بعضهم إلى انتهاء المعركة لصالح المسلمين، وعليه أجاز لنفسه أن ينزل ليغنم معهم، وقد كان هذا رأي الغالبية من الرماة بحيث لم يبق منهم مع الأمير عبد الله بن جبير إلاّ قلة قليلة لا تكفي لصدّ هجمات المشركين إن أتت من ذلك المكان. . .

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ وفى الله لكم بما قطعه على نفسه أن ينصركم إن اتقيتم وصبرتم، وهذا مصداق الوعد حيث ترون النصر قد تحقق وسيوفكم تلاحقهم وتحصدهم من كل جهة وهم يفرّون منها، بمشيئة الله وإرادته كان هذا النصر في ابتداء المعركة واستمر.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾.

فالنصر بقي بأيديكم إلى أن ضعف رأيكم في الصمود وسقطت عزيمتكم للبقاء بأماكنكم في ثغر الجبل حتى تخاصمتم واختلفتم في البقاء، فذهبت

غالبيتكم إلى إنهاء المعركة لصالحكم فتركوا مواقعهم ونزلوا لأخذ الغنائم، ومنكم من ثبت مع الأمير عبد الله بن جبير في مكانه، ولكنهم قلة لا تقدر على مواجهة العدو إن قدم مهاجماً. . .

إنّ هذه «المخالفة» المعصية للأمر النبوي وللأمير ابن جبير هي التي قلبت لكم الأمور وعكست رياح المعركة، فبعد أن أراكم الله ما تحبون من النصر لكم والهزيمة لعدوكم انعكست القضية لصالح المشركين. . .

إنّ أردتم النصر على عدوكم فعليكم بالطاعة والالتزام والتقوى والصبر، وإن أردتم الهزيمة فعليكم أن تسقطوا بعض هذه الشروط ليمتنع النصر لكم. . .

إنّ أشد المرارات أن يلوح لك النصر في موقف أو معركة وتكاد تحصد ثمرة هذا الجهاد والصبر نصراً مؤزّراً تطاله بيدك ثم باختيارك تفوّت هذا النصر حيث تترك بعض أسبابه أو تتخلى عنه. . .

وهكذا وقع للمسلمين في واقعة أُحد، لا أقول ـ كادوا أن يبلغوا النصر ـ بل بلغوه وأدركوه وأخذوا يجمعون الغنائم، ولكن مخالفة أمر النبي ﷺ المؤدي إلى المعصية أوقع المسلمين في هزيمة ذهبت بسبعين منهم شهداء وعلى رأسهم عم النبي ﷺ الحمزة أسد الله وأسد رسوله ﷺ. . .

إنه درس لهذه الأمة استفاد منه المسلمون في عهد النبوة كثيراً حتى عدّ بعضهم هذه الهزيمة أقوى أثراً من الانتصار لو تحقق، لأنها أعطت المسلمين انضباطاً وطاعة والتزاماً. كما برهنت لهم أنهم أمة يتحقق لها النصر بطاعتها لربها ولرسوله ﷺ. ثم إنه سبحانه بيّن حال الرماة وأسباب اختلافهم ولماذا تركوا الجبل. . .

﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ وهذه علة العلل وأساس الهزيمة، فإذا انقسم المسلمون بين الدنيا والآخرة كانت الكارثة الكبرى. . .

﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ منكم من يريد الغنائم والمغانم والمناصب

والجاه والسلطان فيسقط في وحول الدنيا وبالتالي يجرّ عليه وعلى أمته الهزيمة والقتل والذل والخنوع.

﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ وهؤلاء إن كانوا الغالبية أمكن أن يحققوا إرادة الله، وإلا فمن الصعوبة بمكان أن يرمموا ما أفسده أهل الدنيا وطلابها، ومن الصعب جداً أن يقدروا على تحقيق مرادهم وبينهم طابور خامس لا يمتد نظره إلى ما ينظرون ولا يكون هدفه ما يهدفون...

وعلى كل حال، ففي أُحد انقسم الرماة إلى قسمين:

قسم يريد الدنيا.. المغانم، ومنهم من يريد الآخرة.. طاعة النبي والتزام أمره وعدم مغادرة ثغر الجبل تطبيقاً للأمر النبوي وامتثالاً له ولأمر الأمير عبد الله بن جبير...

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ بعد النصر ردكم إلى الهزيمة بأيديكم وسوء اختياركم - ليختبر إيمانكم ومدى صبركم، وهل تواجهون هذه المحنة بما تواجه به المحن عادة من الرجوع إلى الله والندم على التقصير والاستعانة به لما يأتي من شدائد الأيام ومصاعبها...

ومن هنا «رُبَّ هزيمة كانت أكثر ثمرة من نصر» وهذه حقيقة تجسّدت في هزيمة أُحد التي كانت الدرس الأنفع والأكثر فائدة من كل نصر لو تحقق يومها...

﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ كانت زلّة قدم وسقطت لقد وقعتم فيها، ولكن الله بعد أن علم صدق توبتكم وحسن نيتكم عفا عنكم وصفح عن تجاوزكم.

﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فالله صاحب المنن والنعم ومن فضله العفو عنكم والتجاوز عن سيئاتكم، كما أن فضله عام في كل الأحوال سواء كان النصر لكم أو الهزيمة.. لأن في النصر فضل ظاهر وفي الهزيمة درس نافع...

قال تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿تُصْعِدُونَ﴾: الإصعاد: الذهاب والإبعاد في الأرض المستوية. وأما الصعود فيكون فيما ارتفع من الأرض كالجبال ونحوها.

﴿وَلَا تَلْوُۥنَ﴾: لا تلتفتون، وهذه حالة المنهزم وأصله من ليّ العنق للالتفات.

﴿يَدْعُوكُمْ﴾: يناديكم.

﴿أُخْرَىٰكُمْ﴾: آخركم.

﴿فَأَثَٰبَكُمْ﴾: جازاكم وكافأكم، ومادة ثواب تدل على رجوع الشيء إلى حالته الأولى، وسُمّي الثواب ثواباً لأنه بمنزلة رجوع العمل إلى عامله.

﴿غَمًّۢا﴾: الغم في الأصل: ستر الشيء، وهنا الحزن والكرب.

﴿فَاتَكُمْ﴾: الفَوْت: بُعْدِ الشيء عن الإنسان بحيث يتعذر إدراكه.

﴿خَبِيرًا﴾: الخبير: هو العليم بدقائق الأمور، وهو من أسماء الله الحسنى.

التفسير

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾.

اذكروا أيها المؤمنون تلك الحالة الصعبة التي مرّت عليكم في معركة أُحد، فقد بلغت بكم الهزيمة إذ خرجتم من ساحة المعركة وأنتم هاربون في الأرض لا تلتفتون إلى النبي ﷺ وأوامره، وهو (صلوات الله عليه) يدعو بصوته الكريم آخركم ومن تبقّى منكم «إليّ عباد الله أنا رسول الله من يكرّ فله الجنة».

وقوله تعالى: ﴿يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ فبعد أن فروا أصبح الرسول في آخرهم وهو يدعوهم إليه وإلى الوقوف معه ونصره ونصر دينه، وقد كان الإمام علي عليه السلام هو المجيب لصوت النبي ﷺ والملبي له، وقد كشف بسيفه الغمّةَ عن وجه رسول الله ودفع الله به عنه.

تدل الآية بصراحة مدى الهزيمة التي لحقت بالمسلمين، بحيث أدّت إلى فقدان صوابهم إلى درجة لم يعودوا يستمعون نداء النبي ﷺ لهم بالعودة إليه...

﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمَّۢا بِغَمٍّ﴾ فجزاكم غماً ـ حزناً وأسى ـ حيث أصبتم بالهزيمة والفشل، نعم كان قد أصاب المشركين في ابتداء المعركة، ويكون مفسراً بقوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ فيكون غم المسلمين نعيم الكافرين... أو جزاكم غماً فوق غم، غم مخالفة النبي ﷺ وغم الهزيمة التي أصابتكم... أو يكون تأكيداً للغم...

﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾. وهذا بيان للحكمة من الغم بالغم، وهو أن يتمرّسوا على تقبل الشدائد والمحن فلا ينهاروا أو يسقطوا ويتداعوا.. فلا يؤثر عليهم ما فاتهم من الغنائم أو ما أصابهم من الهزائم والقتل والجراح...

هذا الغم كان وسيلة لتخليص نفوسهم من الدنيا وما يُعرض لها، ويصبح همهم طاعة الله والتزام أمره وما جاء به وأراده...

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ فهو سبحانه يعلم خفايا الأمور وما تكنُّه الضمائر، فمن نوى خيراً وعمل صالحاً جزاه بما يستحق، ومن نوى سوءاً وعمل شراً جزاه أيضاً بما يستحق...

وفي هذا ترغيب للمحسن وترهيب للمسيء، لأن من يعلم النوايا والخفايا ويثيب عليها خيراً أو شراً، أجراً أو عقاباً هذا يستدعي من العامل أن يحسّن نيته وعمله، كما يستدعي أن يرتدع أهل الباطل وأصحاب النيات السيئة وعمّا هم عليه وما ينوون...

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾.

اللغة

﴿ٱلْغَمِّ﴾: في الأصل: ستر الشيء وهنا الحزن والكرب.

﴿أَمَنَةً﴾: أمناً.

﴿نُّعَاسًا﴾: النعاس: فتور يقارب النوم.

﴿يَغْشَىٰ﴾: يستر ويغطي.

﴿طَآئِفَةٌ﴾: جماعة، فئة.

﴿أَهَمَّتْهُمْ﴾: شغلتهم أنفسهم، وأهمّ الأمر فلان: أهمّه وأحزنه.

﴿ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾: حالة الجهل، فترة ما قبل الإسلام بما فيها من عقائد وشرائع فاسدة.

﴿يُخْفُونَ﴾: يسترون.

﴿لَا يُبْدُونَ﴾: لا يكشفون ولا يُظهرون.

﴿لَبَرَزَ﴾: خرج، وأصله من الظهور.

﴿كُتِبَ﴾: فُرض.

﴿مَضَاجِعِهِمْ﴾: مصارعهم، وأصل المضجع: مكان الاضطجاع، المرقد...

﴿وَلِيَبْتَلِيَ﴾: ليمتحن ويختبر.

﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾: التمحيص: التنقية وتخليص الشيء مما فيه من عيب.

﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾: خفايا الصدور وأسرارها.

التفسير

هذه الآية تتحدث عما جرى بعد انتهاء معركة أُحد.. عن الحالة التي يعيشها جيش انهزم في نهاية المعركة بعد أن انتصر في أولها، وهذه الهزيمة لم تكن إلاَّ لمعصية ارتكبتها فئة خالفت أمر القيادة المعصومة...

إنها ساعات قليلة بعد المعركة التي راح ضحيتها سبعون شهيداً من خيرة الشهداء.. لا تزال الأيدي على مقابض السيوف ولا يزال احتمال عودة العدو إلى استئصال شأفة المسلمين محتمل... الأجواء ملبَّدة بالغيوم والهموم ولم تنكشف الغمة إلاَّ بمقدار يسير ـ يقدَّر بخروج العدو عن المدينة بمسافة قصيرة....

إنّ الفئة المؤمنة بالله التي وقعت في نكسة خطيرة تحتاج إلى عناية إلهية تعيد إليها الثقة بالله وبنفسها وبدينها وما تدافع من أجله، فمن هنا كانت ظاهرة النعاس التي عاشتها الفئة المؤمنة التي تدلّل على مدى ما تطمئن إليه من وعد الله لها بالنصر، إنَّ من اجتمع تحت لواء النبي لم يكونوا كلهم بنفس الإيمان والتوجه والنية.

منهم المؤمنون حقاً الذين لم يخرجوا إلاَّ طاعةً لله ولرسوله، وهؤلاء لا تهمهم المغانم والمكاسب وحتى الانتصارات عندما تأتي لا تعنيهم إلاَّ بمقدار ما يتحقق بها طاعة الله ورسوله.

ومن هنا كانت هذه الفئة على يقينها بالله ويقينها برسول الله ويقينها بصحة إيمانها وما تجاهد من أجله، وهذه الفئة بعد أن توقفت المعركة وخرج الكفار من المدينة إلى مسافة قصيرة ووصلت الأنباء عن احتمال عودتهم للحرب من جديد، بل لإكمال الانتصار بإنهاء النبي ودعوته، والمسلمين هؤلاء المؤمنون أنزل الله عليهم أماناً في قلوبهم فناموا بهدوء واطمئنان لأنهم على ثقة من وعد الله بنصرهم في نهاية المطاف. وهذا مفاد الآية:

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ﴾ الذي أصابكم لهزيمتكم وقتل من قتل منكم.

﴿أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ فدبّ الأمان وتمثل في نوم، أظلّ جماعة منكم.. وهي الجماعة المؤمنة التي عرفت أنها على الحق في إيمانها وسلوكها وكل حركاتها...

إن من يكون في معركة وينام فهذا منه دليل ثقة بالله واطمئنان للانتصار الذي ينتظره.

قال الألوسي في روح المعاني «وهذه عادة الله تعالى مع المؤمنين، جعل النعاس في الحرب علامة للظفر، وقد وقع كذلك لعلي (كرم الله تعالى وجهه) في صفين وهو من الواردات الرحمانية والسكينة الإلهية.

وهناك فئة أخرى كانت مع النبي ـ فئة منافقة ـ خرجت من أجل المغانم والمكاسب، وهذه تفقد كل هدف شريف إلاَّ هذا الهدف التي خرجت من أجله...

إنها فئة تنشد بعيراً أو شاة أو فرساً أو ما أشبه ذلك، وهذه الفئة تعيش على أعصابها.. إنها في حالة استنفار دائم وخصوصاً في هذه المعركة التي انتصر فيها

المشركون وألحقت هزيمة بجيش المسلمين... لقد برزت حقيقة هذه الفئة وانكشفت نفسيتها...

لقد انكشفت عملاً من خلال حيرتها واضطرابها، ولخوفها الشديد لم يغمض لها جفن ولم تنم لحظة واحدة.. ففي حين كان المؤمنون يغطون في نوم هانىء كانت هذه الفئة تعيش السهر والقلق والخوف والفزع ولم تطمئن إلى ما وصلت إليه المعركة بل لخوفها من رجوع العدو امتنعت أجفانها عن النوم...

إنها بهذا انكشفت حقيقتها وكذلك انكشفت حقيقتها بأقوالها وما صدر عنها من تصريحات...

قال تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ عاشوا هموم أنفسهم وكيف يوفرون لها النجاة والبقاء من هذه المعركة.. فهمّهم أن يحفظوا أنفسهم من الموت، وليس لهم همّ في حفظ النبي ودعوته أو الانتصار في المعركة وتحقيق أمر الله...

﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾. وهذه نيّات أهل النفاق الذين لم يخرجوا إلاً للغنائم والمكاسب.. إنهم يظنون بالله غير الحق.. يندفعون في ظنهم ليتلاقوا مع ظن أهل الجاهلية التي هي أقبح الظنون...

وإذا كانت الظنون كثيرة فأقبحها ما كان يحمله أهل الجاهلية نحو الله، حيث يظنون أن الله لا ينصر محمداً ولا يؤيده، وهؤلاء حملوا نفس الظنون وراحوا في ظنونهم نحو هذا الاتجاه، ثم ترجموه قولاً معبراً في قولهم.

﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ هذا استفهام معناه الجحد وإنه ليس لهم من أمر الخروج إلى المعركة شيئاً. وهذا القول من شيخ النفاق عبد الله بن أُبيٍّ ومن هو على رأيه، فإن النبي لما شاور المسلمين كان قد رأى أهل النفاق وعلى رأسهم شيخهم هذا.. أن لا يخرج النبي والمسلمون من المدينة بل يبقون فيها ويقاتلون منها، ولكن لمّا كان الرأي الغالب والأكثرية الساحقة تريد الخروج فعزَ

ذلك على المنافقين، فلما أصيب المسلمون وكثر القتل في الخزرج قيل لعبد الله بن أبيّ كثر القتل فينا، قال: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾ أي ليس لنا أمر فيطاع فهو إنكار...

وقيل: إن قولهم: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾ هل لنا من النصر من شيء؟ وأنه لا نصر لنا في الحرب كما وعدنا النبي وهو إنكار أيضاً وتشكيك في قول النبي ﷺ وبالتالي تشكيك في نبوته، وهذا ما تذهب إليه ظنون المشركين وأهل الجاهلية...

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ وهذه كلية من الكليات الإسلامية في العقيدة يلقّنها الله لنبيه كي يقولها لهؤلاء ولمن يكون على رأيهم..

﴿ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ تعبير مختصر عن إرجاع الأمور إلى الله، فهو الذي ينصر أولياءه، وهو الذي يهزم أعداءه.. هو الذي يصيب أولياءه بنكسة من أجل مصلحتهم وما فيه منفعتهم ويجعل للآخرين دولة ولو لوقت معين لحكمة اقتضت ذلك، فهو سبحانه يملك كل شيء ويدبّر كل شيء وإليه يرجع كل شيء وكل أفعاله على مقتضى الحكمة التي توجبها المصلحة العامة التي تعطيها قوانينه التي وضعها في هذا العالم...

﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾. يكتمون في أنفسهم ما لا يظهرون لك، وقد يكون ما يكتمون في أنفسهم هو الشك في صدق النبي فيما يقوله لهم أو يعدُهم به، وقد يكون الشك في أصل نبوته المستتبع للشك فيما جاء فيه.

وقد يراد من قوله: ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ أي يخفون فيما بينهم بأن كانوا يُسرون لبعضهم البعض ما لا يبيحون به أمام النبي ﷺ...

﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾. هذه مقولة هذه الفئة المشككة المرتابة، إنها تجهر هنا لتنقل ما في نفسها من حقد... لو كان لنا أمر ونهي في هذه الحرب ومقدماتها لامتنعنا عن الخروج من المدينة وبالتالي لم نُقتل هنا كما قتلنا، ولكن باعتبار عدم قبول قولنا والاستماع لرأينا كان الخروج وكان

هذا القتل فينا هنا... أو كانوا يقولون لو كان لنا من أمر الحق شيء، وكنا على الهدى وما جاء به محمد ﷺ صحيحاً ما أصبنا بنكسة، ولا وقع فينا هذا القتل.

﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾. الله سبحانه وتعالى يأمر نبيه أن ينقل إليهم حقيقة قد غفلوا عنها، أو لم يصلوا إليها أو تغافلوا عنها.. إنها حقيقة العمر ومحدوديته بحدود معينة ينتهي عندها بحيث لو لم يكن هذا السبب الذي أودى بحياة هذا الإنسان لكان غيره من الأسباب قد حلّت محلّه وتولت شأنه وأخذت دوره.

قل لهم يا محمد! لو كنتم لا تزالون في منازلكم ومحل استقراركم، وكان الموت قتلاً قد كتب على بعضكم، لخرج الذين كتب عليهم القتل إلى مقاتلهم... قضاء الله لا مفرّ منه، وهذه الثُلّة التي كتب الله عليها القتل لو كانت في بيوتها لجاءها القتل ولو بدخول المشركين علينا أو غير ذلك من الأسباب الموجبة لقتلهم...

﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ ليختبر الله إيمانكم ومدى استقرار هذا الإيمان من النفاق الذي يمكن أن يعيش فيكم، فهذه المعركة تكشف حقائق الإيمان، فمن كان مؤمناً تقبّل حكم الله فيه وأرجع الأمر إليه وعرف أن الربح والخسارة لا تشكلان عنده زلزلة لإيمانه أو شكاً، فيما يعتقده أو يذهب بهذا الإيمان... بينما المنافق تنكشف حقيقته ويروح في تردد وشك وتساؤلات واستفهامات وغير ذلك من الأقوال، وربما الأعمال الباطلة التي تكشف عن النفاق وعدم الإيمان.

﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ ينقّي ما في قلوبكم من تردد وشكوك وأوهام يمكن أن يخطر منها شيء في البال أو تتحدث به النفس...

إنّ عملية تطهير القلوب وتخليصها من درن الشكوك، إنما يكون عند الشدائد والمصاعب والمتاعب، فالمؤمن الذي يعيش بعض هذه الهواجس عندما يتعرض للشدائد تنتفي هذه من خاطره ولا يبقى أمامه إلاّ الله الذي يؤمن به ويلتجىء إليه

ويعتقد أنه الوحيد الذي يملك رفع ما حلّ به من الشدائد أو دفعها عنه، وبهذا يتخلص القلب من أدرانه وأوهامه. . .

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ والله عليم بخفايا النفوس وأسرارها من خير أو شر، ولا يحتاج إلى أن يمتحن الإنسان أو يختبره، وإنما يفعل ذلك ليظهر ما في النفوس ويُسقط الحجج والأعذار ويرى الإنسان بنفسه سوء عمله فيحكم عليها ويدينها ولا يعتذر عنها بـ«لو أو لعل». . .

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾.

اللغة

﴿تَوَلَّوْاْ﴾: انهزموا وهربوا.

﴿ٱلْتَقَى﴾: من لقي، واللقاء: مقابلة الشيء ومصادفته.

﴿ٱلْجَمْعَانِ﴾: جمع المسلمين وجمع المشركين.

﴿ٱسْتَزَلَّهُمُ﴾: أوقعهم في الزلل، وهي الخطيئة.

﴿مَا كَسَبُواْۖ﴾: ما فعلوا من سيئات.

﴿عَفَا﴾: أصل العفو - كما يقول الراغب في مفرداته - هو القصد إلى تناول الشيء، وكأن الله يقصد ذنب الإنسان فيأخذه منه ولا يحاسبه عليه.

﴿غَفُورٌ﴾: من غفر: إذا ستر فكان الله يستر الذنب على صاحبه وعن غيره.

﴿حَلِيمٌ﴾: الحلم: أصله الأناة، وعدم الاستعجال في الأمور.

التفسير

عندما التقى الجمعان، جمع المسلمين بقيادة النبي ﷺ، وجمع المشركين بقيادة أبي سفيان، انهزم المسلمون ـ إلاّ قلة منهم ـ وهربوا عن النبي ﷺ مخلّفينه وعلي بن أبي طالب وبعض الصحابة يقابلون الموت في ساحة الجهاد...

الله يذكّرهم بهذه السيئة القبيحة التي حملهم عليها الشيطان فاستجابوا له ولبّوا دعوته في الفرار من ساحة المعركة تاركين نبيّهم يواجه الأعداء مع قلة ممن أخلصوا أيمانهم لله...

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ﴾ خطاب عام يشمل الرماة الذين تركوا أمر النبي في المرابطة على ثغر الجبل مع أميرهم عبد الله بن جبير ونزلوا لأخذ الغنيمة، كما يشمل أولئك الذين انهزموا عن النبي وفرّوا من المعركة عند احتدام إوارها وكانت الغلبة للمشركين على المسلمين...

إن هذا الفرار من زلأت الشيطان الذي دعاكم إليها فاستجبتم له فيها لذنوب ارتكبتموها وسيئات فعلتموها...

ولعلّ فعل الرماة بتركهم الجبل انعكست على نفوس الناس فزلزلت يقينهم بصواب ما هم فيه، فاستغل الشيطان هذه الثغرة فدعاهم إلى الفرار فاستجابوا له وأطاعوه...

﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ﴾ لم يؤاخذهم بما كسبوا ولم يعاقبهم على فرارهم وهروبهم... إنه تطميع لهم في العودة إلى الله والتزام أمر النبي ﷺ حيث أمامهم شوط طويل من الجهاد ينتظرهم وهم مسؤولون عنه...

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ فالله يغفر الذنوب مهما كانت كبيرة وعظيمة ولا يعجل بأخذ المذنبين، بل يمهلهم حتى إذا تابوا تاب عليهم «وإنما يعجل من يخاف الفوت» ـ كما في الدعاء ـ والله قادر مطلق يقدر على عبده متى شاء، فلو تأخر لا يفلت هذا العبد من عقاب الله...

محمد(ص) وعلي وجبرائيل(ع)

لا شك أنه لم يبق مع النبي إلا ثلّةٌ قليلة في يوم أُحد وقد فرّ الباقون خوفاً وفزعاً، بل بعضهم تمنى لو يكون له شفعاء ليتوسطوا لهم عند أبي سفيان كي يعفو عنهم. . .

ومن الثابت أن عثمان قد فرّ بإجماع المؤرخين وأهل السِّير وكل من تعرض لمعركة أُحد، وأنقل كلام ابن الأثير في تاريخه بلفظه ونصه[1] حيث يقول:

«وانتهت الهزيمة بجماعة المسلمين، فيهم عثمان بن عفان وغيره إلى الأعوص، فأقاموا به ثلاثاً - ثلاثة أيام - ثم أتوا النبي ﷺ فقال لهم حين رآهم: لقد ذهبتم فيها عريضة. . .

وأمّا عمر بن الخطاب فقد نقل الرازي في تفسيره عن[2] القفّال ما نصّه «ومن المنهزمين عمر إلاّ أنه لم يكن في أوائل المنهزمين ولم يبعد، بل ثبت على الجبل إلى أن صعد النبي ﷺ ومنهم أيضاً عثمان إنهزم مع رجلين من الأنصار يقال لهما سعد وعقبة إنهزموا حتى بلغوا موضعاً بعيداً، ثم رجعوا بعد ثلاثة أيام، فقال لهم النبي ﷺ «لقد ذهبتم فيها عريضة».

أما سيدنا أمير المؤمنين علي عليه السلام فبإجماع أهل التاريخ والسِّير وأهل الحديث، أنه ثبت مع النبي ﷺ ودافع عنه وحمل لواءه، ولا أريد إلاّ أن أنقل ما ذكره ابن الأثير بنصه، «وكان الذي قتل أصحاب اللواء علي عليه السلام قاله أبو رافع وقال: فلما قتلهم أبصر النبيّ ﷺ جماعة من المشركين، فقال لعلي: إحمل عليهم! ففرقهم وقتل منهم، ثم أبصر جماعة أخرى فقال له: إحمل عليهم! فحمل عليهم وفرّقهم وقتل فيهم.

---

(١) تاريخ ابن الأثير، ج٢، ص١٥٨.
(٢) تفسير الرازي، ج٩، ص٥٠.

فقال جبرائيل عليه السلام: يا رسول الله هذه المواساة!..

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنه مني وأنا منه، فقال جبرائيل عليه السلام: وأنا منكما، قال: فسمعوا صوتاً يقول: لا سيف إلاّ ذو الفقار، ولا فتى إلاّ علي[١]...

(١) تاريخ ابن الأثير، ج٢، ص١٥٤.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

اللغة

﴿ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ : ساروا فيها لتجارة ونحوها.

﴿غُزًّى﴾: جمع غاز، ويجمع غازٍ على غزاة أيضاً: وهو الخارج في سبيل الله لقتال العدو.

﴿حَسْرَةً﴾: الحسرة: الغم على ما فاته والندم عليه.

﴿مَغْفِرَةٌ﴾: من غفر: إذا ستر، وغفران الذنب: ستره ومحوه وعدم الأخذ به.

﴿يَجْمَعُونَ﴾: الجمع ضمّ الشيء بتقريب بعضه من بعض.

﴿تُحْشَرُونَ﴾: تجمعون، والحشر إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم عنه إلى حرب ونحوها، وسمي يوم القيامة يوم الحشر لأن الله يجمع الخلق كلهم ويأتي بهم إلى الموقف للحساب...

التفسير

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ﴾. نهى الله المؤمنين أن يُتشبُّهوا بالكافرين من جهة ما كان يقوله هؤلاء الكافرون...

إن ما يقوله الكافرون لا ينسجم والعقيدة التي يؤمن بها المسلم، ما يقوله الكافرون في حق إخوانهم الذين آمنوا ـ أو إخوانهم الكافرين ـ وخرجوا بعيداً في الأرض يطلبون أمراً مباحاً، أو أرادوا غزواً ثم يموتون في سياحتهم أو تجارتهم أو في غزوهم، يقولون لو كان هؤلاء معنا في بلادنا ولم يخرجوا في وجههم هذا لم يكونوا ليموتوا أو يُقتلوا...

هذا القول منهم كانوا يقصدون به الإساءة إلى روح الجهاد والتضحية التي يتمتع بها جند الإسلام، يريدون تثبيط العزائم وقتل الروح المعنوية المتوفرة عندهم...

إنهم يقولون لو لم يخرج من قُتل في معركة أُحد لم يقتل، فكأن خروجهم كان السبب المؤدي لشهادتهم وهذا يؤثر في نفوس الناس ويفتّ في عضدهم.

فالله سبحانه ينهي المؤمنين أن يتشبهوا بهؤلاء الكافرين، فلا يقولون لإخوانهم الذين ماتوا في أُحد ما يقوله هؤلاء الكفار في حقهم. وهذا النهي نتيجته الحسرة في قلوب الكافرين لأنهم عندما يرون المؤمنين يمتنعون عن التشبه بهم ويرفضون الاقتداء بهم يحزنون ويتأثرون وتأكل الحسرة قلوبهم...

أو لا تقولوا بمقالة الكافرين لإخوانهم الذين ﴿ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى﴾ فيصيبكم ما أصابهم من الحسرة في قلوبكم؟ كما أصابتهم الحسرة في قلوبهم فإن الكافرين كانوا يتحسرون على إخوانهم الذين قتلوا ـ وكلما تذكروهم أكلت الحسرة قلوبهم فلا تكونوا أيها المؤمنون مثلهم تأكل الحسرة قلوبكم على إخوانكم...

﴿وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ﴾ هذا ردٌ على أقوال الكافرين، وإن الله هو الذي يحيي ويميت بيده الأمور فلا الضرب في الأرض أو الغزو يقرب الأجل ولا الإقامة في الوطن تمنع الموت والقدر ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾[١] سفراً أم حضراً، ليلاً أو نهاراً، في السماء أم في الأرض، في البحر أم في البر.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ تهديد لمن يتشبه بالكافرين، وإنه سبحانه يراهم ويرى أعمالهم وسوف يحاسبهم عليها ويجازيهم بها. . .

﴿وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ هذا بيان رجحان الجهاد والضرب في الأرض، وأن المؤمن إذا أدركه الموت وهو على واحدة منهما خير له من حطام الدنيا وما يجمعه منها، لأن في الشهادة والموت وهو ضارب في الأرض في سبيل الله وسبيل عائلته فيه مغفرة من الله، بحيث تسقط عنه كل الذنوب، وكذلك رحمة منه يدخله بها الجنة مقيم فيها باستمرار نعيم لا ينغصه شيء من منغصات الدنيا، وهذا خير من حطام الدنيا الذي يجمعونه وهو إلى زوال وفناء، والمقارنة ليس لتعادلهما في الحقيقة بقدر ما هي مفاضلة بين حقيقة حقيقية وهي المغفرة والرحمة وحقيقة صورية يدّعيها أهل الدنيا. . .

قدّم سبحانه القتل في سبيل الله على الموت ﴿وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ﴾ لأن القتل في سبيل الله أقرب الطرق إلى مغفرة الله، وقدّمه أيضاً ترغيباً فيه ورداً على الكافرين الذين كانوا يثبطون عزائم المجاهدين ويخوفونهم بالقتل. . .

﴿وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾. وهذه عاقبة حميدة ونتيجة عظيمة، لئن متم وأنتم تضربون في الأرض أو قتلتم في سبيل الله فإنكم إلى الله تحشرون، وهو سبحانه يجازيكم بأعمالكم وما كنتم تفعلون إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وقدّم هنا الموت على القتل ﴿وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ﴾ ـ عكس الآية التي قبلها ـ لأن الموت هنا هو العام والغالب، فجرى الأمر على مقتضى الطبيعة والعادة الجارية. . .

---

(١) النساء/ ٧٨.

قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾.

اللغة

﴿ٱلرَّحْمَةُ﴾: رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وإذا وُصف بها الباري فهي تعني الإحسان المجرد دون الرقة...

﴿لِنتَ﴾: اللين: الرفق والسهولة في المعاملة.

﴿فَظًّا﴾: الغليظ الجانب، السيء الخلق.

﴿غَلِيظَ﴾ القلب الذي لا يتأثر أو يرق.

﴿لَٱنفَضُّوا۟﴾: لتفرقوا.

﴿حَوْلِكَ﴾: لانفضوا من حولك: لتفرقوا عنك وتركوك وحدك، وقال الراغب: حَوْلَ الشيء: جَانِبُهُ.. الذي يمكنه أن يحوّل إليه.

﴿فَٱعْفُ﴾: أصفح.

﴿وَشَاوِرْهُمْ﴾: المشاورة تكون بتتبع الآراء لأخذ أفضلها، وتقول العرب: شرتُ الدابة: إذا علمتُ خيرها بجري وغيره، وقد يكون من شرت العسل: إذا أخذته من موضعه.

﴿عَزَمْتَ﴾: العزم والعزيمة: عقد القلب على إمضاء الأمر، يقال: عزمت الأمر وعزمت عليه واعتزمت.

﴿فَتَوَكَّلْ﴾: توكلت عليه: أي اعتمدت عليه.

التفسير

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾. هذه الآية الكريمة تثني على النبي ﷺ وتمتدحه بما اختصه الله به وأفاضه عليه من الرحمة وحسن العشرة وطيب المعاملة، كما تأمره بعدة أمور من أجل الصالح العام الذي يجعل الصحابة يلتفّون حوله ولا يتفرقون عنه، كما يسن للأمة سنّة طيبة بعده.

إن الله ميّز رسوله محمداً ﷺ بالرحمة العظيمة العامة الشاملة التي أودعها فيه، فهذه الرحمة أثمرت الثمرات الطيبة التي انعكست على نفسه الشريفة، فظهرت من عالم النفس الطيبة قولاً وخُلقاً ومنطقاً وسلوكاً...

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾. قالوا إن «ما» من ﴿فَبِمَا﴾ زائدة جاءت للتأكيد كما هي عادة العرب في استعمالاتهم المشابهة لهذا الكلام عند التأكيد...

ولكن هذا القول لم يرتضه المحققون، وقالوا: إنه ليس بشيء من الحروف جاء في القرآن إلاّ لمعنى مفيد...

وقالوا: إن «ما» هنا بمعنى: أي ومعناها تفخيم قدر الرحمة التي لان بها لهم وتكون كقولهم: «أي رجل هذا» يعني التعجب منه لغرض التفخيم.

وعلى كل حال.. بهذه الرحمة التي سكبها الله في قلب محمد ﷺ انعكست آثارها في سهولة تعامله مع أصحابه ولينه لهم وعطفه عليهم ورحمته بهم.

إن معركة أُحد مع ما مرّ فيها وخلالها من شوائب وأحداث وعظيم ما تعرض له النبي ﷺ من الخطر وما أصابه من الجراحات، وكيف فرّ أكثر الصحابة عنه

فزعاً ورُعباً حتى غاب بعضهم ثلاثة أيام خوفاً وهلعاً ولم يعد إلى النبي إلاّ بعدها فلم يزد النبي ﷺ إن قال لهم: «لقد ذهبتم بها عريضة».

إن كل ذلك قابله النبي بالرحمة والعطف، فلم يؤنبهم ولم يعنّفهم ولم يشتم أحداً أو يعيبه، بل كان عنوانه الرحمة واللِّين والعطف...

إن النبي كان الطبيب الحاذق الذي عرف النفس البشرية وما يصلحها، فدخل إلى عمقها وعالجها بما أثمرت وحدة إسلامية متفانية في سبيل الدين والشريعة وإن نظرة سريعة إلى أخلاق النبي ﷺ وتعامله مع أصحابه يكشف صدق ذلك ومصداقيته الحقيقية...

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾. هذه ثمرة من ثمرات اللّين وحُسن العشرة التي كانت وليدة الرحمة التي أودعها الله قلب نبيه ﷺ.

لو كنت يا محمد ﴿فَظًّا﴾ غليظاً ـ سيء الخلق ـ ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ ـ قاسي القلب ـ لا تحمل رحمة أو عطفاً على أصحابك ومن معك ﴿لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ لتفرقوا عنك وذهب كل وشأنه وبالتالي لم يتوفر للدعوة رجالاتها وللحق أنصار وأعوان، ولكن لرحمتك بهم وعطفك عليهم وأخلاقك العظيمة جعلتهم يلتفون حولك ويحملون فكرك ورسالتك ويبذلون في سبيل الله أنفسهم وأولادهم وأموالهم وكل ما ملكته أيديهم...

﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾ أمره سبحانه أن يعفو عنهم ويصفح لما وقع منهم نحوه حينما انهزموا من المعركة وفرّوا مخلّفين رسول الله ﷺ ومن معه يدافعون العدو ويقاتلونه بمفردهم... وجاء هذا الأمر بالعفو بعد أن عفا الله عنهم سابقاً في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ ليكتمل العفو من الرسول مع عفو الله فتتم النعمة عليهم...

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ وهذا من رحمة الله بنبيه وبهم حيث أمر الله نبيه أن يستغفر لهم الله زيادة في الاهتمام بهم وإيقاظاً لقلوبهم على مدى محبته لهم.. إنه يريدهم في طهر دائم استعداداً لما يأتي من وقائع وما يجيء من أحداث...

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾. هذا أمر من الله لنبيه أن يشاور أصحابه، وهنا مسائل:

الأولى: هل الأمر للوجوب؟ ذهب الشافعي إلى عدم ذلك، وقال: باستحباب ذلك للنبي تطييباً لقلوب أصحابه فحسب.

الثانية: بماذا يشاورهم؟ وهنا اختلفت الآراء بعد القطع واليقين، أن المشورة لا تشمل ما يوحى به إليه وما يكون من أمر الدين والرسالة.

ذهب بعضهم إلى مشاورتهم في مكائد الحرب وحملوا «الألف واللام» في قوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ على المعهود وهو الحرب، وذهب بعضهم إلى أمور الدنيا كتأبير النخل مثلاً.

الثالثة: لماذا كانت المشاورة من النبي لأصحابه؟.

قالوا: إن الله أمر نبيه بمشاورة أصحابه لأمور أوصلها الرازي إلى ثمانية اكتفي منها بنقل أهمها:

أ - إن مشاورته لهم معناه علوّ شأنهم وجلالة قدرهم، وفيه تطييب لخاطرهم فينضوون تحت لوائه ويقبلون كلامه وإن كان قد أغناه الله بوحيه عن رأيهم.

ب - لم تكن مشاورة النبي لهم لحاجته إليهم، ولكن ليعلمهم ما في المشاورة من الفضل فيقتدون به من بعده.

ج - إن مشاورته لهم ليعرف مقدار عقولهم ونصحهم من غشهم...

الرابعة: من يستشار من الصحابة؟!..

ذهب بعضهم إلى أنهم كلهم يتشاورون لأنهم كلهم أهل اجتهاد وعلم ومعرفة.

ولكن يرد ذلك إلى إجماع الأمة على أنهم مختلفون في قوة الذكاء والمعرفة والفطنة، فبعضهم في أعلى درجات الوعي والفهم والإدراك، ولا يمكن لأحد من الأمة أن يدركهم، كما أن فيهم أغبياء لا يملكون علماً ومعرفة مع حفظ مقاماتهم في الإيمان والصحبة والتقوى...

وقد فنّد الألوسي هذه المقولة بقوله: «بل[1] المراد أن يشاور أهل الآراء منهم والمتدربين فيهم وكون الصحابة كذلك ـ بأنهم كلهم أهل اجتهاد ـ أوّل المُدّعي ودون إثباته وقعة (الجمل) وحرب (صفين)».

الخامسة: نحن من نستشير؟

قال الإمام الصادق عليه السلام: ما يمنع أحدكم إذا ورد عليه ما لا قِبَلَ له به أن يستشير رجلاً عاقلاً له دين وورع، ثم قال: أما أنه إذا فعل ذلك لم يخذله الله، بل يرفعه الله ورماه بخير الأمور وأقربها إلى الله.

فالاستشارة تكون ممن يمتلك عقلاً ووعياً ويكون متديناً ملتزماً ويكون من أهل العلم والخبرة فيما يستشار فيه..

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾. فإذا تمت الاستشارة وعقدت القلب على تنفيذ ما أردت مما أراك الله ووفقك إليه فانقطع إلى الله وتوكّل عليه.. أي اجعل الأمر إليه واتكل عليه واجعله في حضرته وتحت نظره وعينه وحوّل كل ما وفرته من أسباب ومقدمات مطلوبة منك بحكم العدم أمام إرادة الله ونفاذ مشيئته...

والتوكل ليس معناه أن يتوقف الإنسان عن الأسباب والعلل التي وضعها الله للأمور، فإن هذا مما لا يتفق وأمر الله ويكون مخالفاً للتوكل يقيناً وللسنن الطبيعية الكونية التي وضعها الله...

إن التوكل يعني تهيئة الأسباب والعلل وكل الأمور التي يتوقف عليها إنجاح العمل، ثم بعد ذلك ينقطع إلى الله أن يتولى هو سبحانه الأمر باعتبار أن أمره ومشيئته هي علة العلل وهو القادر على إنفاذ هذا الأمر وعلى عدم إنفاذه، فيسأل الله إنجاح العمل وإنفاذه...

ومن قوله: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ﴾ بأن الأمر يرجع إلى النبي فهو وحده صاحب القرار الذي يملك تنفيذ ما يريد، وما الاستشارة إلاّ لتطييب الخواطر وإشعار

(١) تفسير روح المعاني، ج٤، ص١٠٧.

المسلمين أنهم تحت نظره ولهم احترامهم وكرامتهم ولهم حق الاستشارة دون أن يكون لهم القرار النهائي الحاكم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ ترغيب في التوكل على الله والانقطاع إليه في كل الأمور وأن لا يتكلوا على أنفسهم وقوتهم وقدرتهم...

وحبه للمتوكلين عليه إثابته لهم وإعطاؤهم الأجر والفضل...

قال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

اللغة

﴿يَنصُرْكُمُ﴾: النصر: العون.

﴿غَالِبَ﴾: الغلبة: القهر.

﴿يَخْذُلْكُمْ﴾: الخذلان: ترك العون ممن يظن به ذلك.

التفسير

هذا التوكل ترغيب في الطاعة وتبعيد عن المعصية باعتبار ما يترتب عليهما من نصر الله للمطيع وخذلانه للعاصي.

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ إن أراد الله نصركم فلا يقدر أن يهزمكم أحد ولا يستطيع أحد أن يغلبكم لأن بيده الأمور ولا يستطيع مخلوق ضعيف أن يمنع إرادة خالق قادر.

وعلى العكس من ذلك ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ إن أراد أن يهزمكم ويمنع نصره عنكم فلا أحد يقدر على نصركم من بعد خذلانه، لأنه

سبحانه إذا منع عونه سقطت كل المعونات الأخرى ولم تنفع أو تفيد. . .

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ على الله وحده يجب أن يعتمد المؤمنون وعليه لا على سواه يجب أن يتوكلوا طبعاً، هذا بعد أن يوفروا كل الأسباب المطلوبة منهم، فإن من التوكل توفير الأسباب التي يتوقف عليها نجاح العمل.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿يَغُلَّ﴾: يخون، والغلول: أخذ الشيء من المغنم خفية.

﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: يوم الحساب ونيل الجزاء والقيامة أصلها ما يكون من الإنسان من القيام دفعة واحدة، أدخل فيها الهاء تنبيهاً على وقوعها دُفعة.

﴿تُوَفَّىٰ﴾: توفية الشيء: بذله وافياً، واستيفاؤه: تناوله وافياً أي كاملاً غير منقوص.

﴿نَفْسٍ﴾: نفس الإنسان: شخصه.

﴿مَّا كَسَبَتْ﴾: ما عملت وجنت، والكسب: ما يتحراه الإنسان مما فيه اجتلاب نفع وتحصيل حظ ككسب المال إذا تحراه وربحه.

التفسير

هذه الآية تنفي الخيانة عن كل نبي، فلا تجتمع النبوة مع الخيانة..

﴿وَمَا كَانَ﴾ أبلغ من نفي الفعل لأن المراد أنه لا يصح ولا يتأتى لنبي أن يغل..

قيل في سبب نزولها: إن الرماة حينما تركوا مراكزهم يوم أُحد طلباً للغنيمة، قالوا: نخشى أن يقول النبي ﷺ: من أخذ شيئاً فهو له وأن لا يقسّم الغنائم كما لم يقسمه يوم بدر.

فقال صلوات الله عليه «ظننتم أنّا نغل فلا نقسم لكم؟ فنزلت الآية...

وقيل: نزلت في قطيفة حمراء فُقدت من المغنم يوم بدر وظنّ يومها أن رسول الله ﷺ قد أخذها.

وعلى كل حال صح شيء من أسباب النزول أم لم يصح فالآية تنزّه مقام النبوة عن كل خيانة سواء كانت صغيرة أو كبيرة في أمر الدين، أم في أمر الدنيا مع نفسه أو مع غيره، لأن النبي مؤتمن على وحي السماء وبثقة الناس وإيمانهم فيه وبنبوته أخذوا قوله واعتمدوا عليه، وإن من يؤتمن على الوحي يكون على غيره أكثر أمانة لأن غيره حقير في جنب وحي السماء الذي يدّعيه النبي ويصدّقه الناس فيه...

﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾. من يخون فيما إئتمن عليه يأتي حاملاً له يوم القيامة، فمن خان بعيراً حمل هذا البعير يوم القيامة، ومن خان في شاة جاء حاملاً لها، ومن خان في ثوب جاء حاملاً له، وهكذا حتى يعرفه أهل المحشر بهذه العلامة الفارقة الدالة على خيانته.

﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ثم تعطى كل نفس جزاء ما عملت، تُعطى جزاءها وافياً كاملاً غير منقوص، فمن عمل خيراً وصل إليه جزاؤه وأجره كاملاً تاماً دون نقصان، ومن عمل سوءاً ينال جزاءه وعقابه كاملاً أيضاً دون زيادة أو نقيصة.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فلا يزاد في عقاب المجرم ولا يُنقص من ثواب المطيع، بل يكون العقاب والثواب بقدر المعصية والطاعة جزاءً وفاقاً...

قال تعالى: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾.

اللغة

﴿ٱتَّبَعَ﴾: تبعه واتبعه: قفا أثره.

﴿رِضْوَٰنَ﴾: هو الرضا الكثير، ولذا يوصف به الله.

﴿بَآءَ﴾: رجع.

﴿بِسَخَطٍ﴾: السخط: هو الغضب الشديد.

﴿وَمَأْوَىٰهُ﴾: المأوى: مصدر أوى يأوي أوياً ومأوى، تقول: أوى إلى كذا: إذا انضم إليه، ومأواه جهنم: مكانه الذي ينزل فيه ويأوي إليه.

﴿ٱلْمَصِيرُ﴾: المرجع من صار إلى كذا: إذا انتهى إليه.

﴿دَرَجَٰتٌ﴾: منازل، ولكن الدرجة تعتبر بالصعود دون الامتداد كدرجة السطح والسلم.

التفسير

الاستفهام يراد به الإنكار للتسوية المفترضة بين من اتبع رضوان الله مع من رجع بغضب الله. . .

﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾﴾. لا يستوي من تتبّع مواقع رضا الله المتمثلة بالقيام بكل أمرٍ أمرَ به الله من صلاة وصيام وحج وجهاد وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر وغيرها من الأمور.

وكذلك من تتبّع نواهي الله فانتهى عنها، فالله نهى عن الظلم والغيبة والنميمة واحتقار الناس والكذب وأكل مال الناس بالباطل، فكان هذا العبد مجتنبا لكل ذلك مبتعداً عنه منزهاً عن فعله يسير وفق إرادة الله أمراً بالامتثال لها ونهياً بتركها كلها. . .

لا يستوي هذا أو يتساوى مع من رجع بمعصية الله ممن ارتكب الحرام، ولم يفعل الواجب وعاد بغضب من الله واستقر في جهنم وبئس المصير.

وعدم المساواة بين من تتبّع أوامر الله فعمل بها، ومن رجع بسخط الله وعذابه، إن عدم المساواة واضحة بيّنة. . ثم لا يخفى أنَّ رضوان الله معنى واسع يشمل كل ما يُسخط الله هو كل المناهي التي نهى عنها الله. . .

﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ من اتبع رضوان الله ومن باء بسخط من الله كل منهما درجات لأن المطيعين يتفاوتون في الطاعات والقربات، فالأنبياء ثم الأوصياء ثم الأولياء ثم الناس بعدهم درجات، كما أن الأشقياء درجات، منهم من كفر وأعرق في الكفر، ومنهم من قتل الأنبياء ومنهم من جحد الرسالات ومنهم مستضعف وهكذا، ومنهم مَنْ أرجع ضمير ـ هم ـ إلى خصوص من اتبع رضوان الله.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي عليم بما يفعلون لا تخفى عليه أعمالهم وسيحاسبهم بها ويجازيهم عليها. . .

صغرى لهذه الكبرى:

من أظهر مصاديق الذين اتبعوا رضوان الله هم الأنبياء ثم الأئمة عليهم السلام، ومن هنا وردت بعض الروايات تؤكد هذا المطلب.

في تفسير العياشي عن عمار بن مروان، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قـــــــول الله ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢)﴾.

فقال: هم والله يا عمار! درجات المؤمنين عند الله وبموالاتهم وبمعرفتهم إيّانا يضاعف الله للمؤمنين حسناتهم ويرفع لهم الدرجات العلى، وأما قوله يا عمار! ﴿كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿الْمَصِيرُ﴾ فهم والله الذين جحدوا حق علي بن أبي طالب وحق الأئمة عليهم السلام منّا أهل البيت فباؤوا بذلك بسخط من الله.

ومن المؤكد أن معرفة الأئمة وموالاتهم من أهم الواجبات، ومن غصب حقهم يكون من العصاة المتمردين...

قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿مَنَّ﴾: أنعم وأحسن.

﴿بَعَثَ﴾: أرسل.

﴿يَتْلُوا۟﴾: يقرأ.

﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾: آيات الله: كلماته المنزلة على نبيه.

﴿يُزَكِّيهِمْ﴾: يطهرهم.

﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾: قال الراغب: الحكمة: إصابة الحق بالعلم والعقل، والحكمة من الإنسان: معرفة الموجودات وفعل الخيرات.

﴿ضَلَٰلٍ﴾: الضلال: العدول عن الطريق المستقيم، ويضاده الهداية.

﴿مُّبِينٍ﴾: ظاهر واضح.

التفسير

نزّه الله سبحانه فيما تقدّم ساحة كل نبي عن الخيانة التي اتهمه بها بعض ضعفاء الإيمان، وهنا أراد سبحانه أن يرفع من قدر النبي ويذكّر الناس أن بعثته من أعظم النعم عليهم، حيث ببركته تطهروا وتزكوا عقيدة وعملاً. إنه ذكر لأفضل من اتبع رضوان الله، وأن سبيله أفضل السبل الموصلة إلى ذلك الرضوان...

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ والله لقد أكرم الله المؤمنين وأحسن إليهم.

وخصّ المؤمنين بالذكر لأنهم المستفيدون من هذا الحدث المنتفعون من وجوده.

﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا﴾ هذا هو الممنون به، إنها بعثة رسول الله نبياً إلى هؤلاء الناس...

﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ من العرب أو من البشر، فإذا كان من العرب فهو شرف عريض لهم به يطالون الجوزاء ويدركون السماء... إنهم يعرفونه ويعرفون تاريخه.. يعرفون سلوكه وسيرته قبل نبوته ويعرفون صدقه وأمانته وعدله وصفاته الكريمة، فحقٌّ لهم أن ينزّهوه عن كل عيب وأن يرفعوا شأنه عن كل شبهة.

وإن كان ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ من البشر فلأنه مثلهم - والشيء إلى شبهه منجذب - والاطمئنان إليه أقوى وأدعى.

فإنه لو كان مَلَكاً لأنكر الناس وجوده أو أنكروا ما جاء به...

ثم إنه سبحانه بيّن أسباب البعثة وأهدافها ضمن ثلاثة أمور:

الأول: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ فهو ﷺ يتلقى الوحي من الله ثم يقرأه عليهم ويؤدبهم بآدابه ويعلمهم أهدافه ومقاصده...

وإن آيات الله صنعت هذه الآية وغيّرت مجرى حياتها وقلبت أهدافها وحوّلتها خير أمة أخرجت للناس. . .

لقد صنعت آيات الله هذه الأمة التي حملت الإسلام وقاتلت من أجل كلمة الله، وحققت في وقت قصير معجزة تحتاج إلى قرون. . .

الثاني: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يطهّرهم من الأمراض التي كانت تفتك بنفوسهم وتقضي على نفوذهم. . . لقد طهّرهم من دنس الشرك وأخرجهم من ظلماته.

ومن لوثات الجاهلية وعاداتها. . عادت نفوسهم تحمل عُلُوَّ الهمَّة بعد السقوط والضعة وترتفع عن الصغائر والسفاسف إلى معالي الأمور وكبيرها، وراحت تبحث عمّا يرضي الله بعد أن كانت تعيش الفساد والانحراف. . .

إن بركة الإسلام حوّلت تلك العقائد الفاسدة والأفكار الضالة والعادات الجائرة إلى عقائد صحيحة سليمة وأفكار معتدلة مستقيمة وعادات عقلانية شريفة. . .

إن من تزكية النفس وتطهيرها. . أن تعيش هموم الرسالة وأهدافها وتعيش مع هذا الإنسان في همومه وأهدافه، وترى اللذة في سعادة الآخرين كما ترى أن الكرامة لنفسها من كرامة الآخرين، وهكذا دواليك. . .

الثالث: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ يفهّمهم كتاب الله وسنة رسوله أو يفهمهم كتاب الله والأسرار المودعة في كلامه بحيث تحملهم على تزكية النفس وتطهيرها والارتفاع بها إلى المقامات العالية الكريمة. . .

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ بيان لحالهم وما كانوا عليه قبل البعثة من ضلال واضح ظاهر مكشوف للعيان. . .

ومن أراد أن يعرف ضلال العرب الظاهر فليرجع إلى عقائدهم وعاداتهم وتقاليدهم فيكتشف الحقيقة ظاهرة واضحة.

فمن حيث العقائد كانوا يعبدون أصناماً ينحتونها بأيديهم ثم يتوجهون إليها بالعبادة، وهل من عاقل يعبد ما تصنعه يداه، ثم إذا احتاجه أثافيَّ لقدره استعمله؟

وإذا كان من تمر التهمه إذا جاع، وهكذا دواليك. ظلمات بعضها فوق بعض وضلال يجره ضلال وهذه واحدة وعليها قس ما سواها...

وأمّا العادات.. فالثأر والغزو والسلب والنهب والاعتداء، ورُبّ ناقة أشعلت حرباً دامت عقوداً، وهكذا...

ومن عاداتهم وأدِ البنات واحتقار المرأة، وهكذا دواليك...

فوائد

١ ـ المنّة هي العطية العظيمة، ومن صفات الله ـ المنّان ـ لكثرة عطاياه ونعمه.

٢ ـ بعثة رسول الله من أهم المنن على الناس، لأن النبي ﷺ هو المنقذ لهذا الإنسان من النار، وعلى يديه تتم سعادته في الدنيا والآخرة، وبدونه يضل ويشقى ويعيش العذاب والسوء في الدنيا والآخرة...

٣ ـ نستفيد من الآية المباركة وجوب تعليم الناس وتزكيتهم على كل داعية إلى الله، وأنّ على العلماء أن يقوموا بهذا الواجب الذي كان يقوم به النبي وبعده الإمام من بعده...

قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿أَصَٰبَتۡكُم﴾: نالتكم.

﴿مُّصِيبَةٞ﴾: المصيبة: هي النائبة، وهنا يراد بها ما أصاب المسلمين يوم أُحد من جراح وشهداء...

﴿مِّثۡلَيۡهَا﴾: ضعفيها.

﴿أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾: من أين هذا؟ وهذا للتعجب.

﴿تَعَالَوۡاْ﴾: هلمّوا.

﴿ٱدۡفَعُواْۖ﴾: الدفع: إذا عدي بإلى، اقتضى معنى الإنالة نحو قوله تعالى: ﴿فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ وإذا عدي بعن اقتضى معنى الحماية والثاني هو المراد هنا.

﴿يَكۡتُمُونَ﴾: يسترون.

﴿وَقَعَدُواْ﴾: القعود: يقابل به القيام، ويعبّر عن المتكاسل في الشيء: قاعد.

﴿أَطَاعُونَا﴾: امتثلوا أمرنا، وانقادوا لنا.

﴿فَٱدۡرَءُواْ﴾: فادفعوا، ودرأت عنه: دفعت عن جانبه.

التفسير

عاش بعض المسلمين بعد معركة أُحد حالة من الارتباك والضياع وأخذوا يفكرون! لماذا كانت هزيمتهم وهم أهل الحق يحملون دين الله ويدافعون عنه وفيهم نبي الله وكتابه؟ كيف يمكن أن تحل هزيمة فيهم أو يتعرضوا لنكسة وخصوصاً بمستوى هزيمة أُحد التي أخذت الشهداء الكبار كحمزة ومصعب وغيرهما؟!...

﴿أَوَ لَمَّآ﴾ استفهام تقرير ﴿أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ﴾ يوم أحد فسقط منكم سبعون شهيداً.

﴿قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾ يوم بدر حيث انتصرتم على المشركين وقتلتم منهم سبعين وأسرتم سبعين.

﴿قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾ قلتم من أين أصابتنا الهزيمة؟ وكيف نقتل ونحن المسلمون حملة الرسالة والدين..؟!

إنهم يسألون عن أسباب الهزيمة مع أنهم في بدر قد أصابوا من المشركين مثلي ما أصاب المشركون منهم في أُحد...

إنهم لم يتصوروا الهزيمة لأنفسهم، وكأن الإيمان يدرأُ عنهم هذه الهزيمة ويمنعهم من السقوط، ولذا كان سؤالهم واستفهامهم عن أسباب هزيمتهم...

ويأتيهم الجواب أوضح من الشمس.. بأن السبب منهم، وبأيديهم كانت الهزيمة..

﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ قل لهم يا محمد! إن ما أصابكم من مصيبة أحد كان من عند أنفسكم وبأيديكم! أنتم الذين رسمتم طريق الخسارة والهزيمة، ومن عندكم كانت بدايتها، فإنكم لم تطيعوا الرسول وتبقوا في ثغر الجبل تنضحون خيل الأعداء بنبالكم، بل بمجرد أن لاحت أعلام النصر تركتم مواقعكم وخالفتم أمر النبي ﷺ.

كما أنكم لم تثبتوا في المعركة وتدافعوا بإيمانٍ ثابتٍ وعقيدة راسخة،، بل فررتم وانهزمتم ولم تصمدوا.

وهكذا غيرهما من المخالفات التي ارتكبتموها فسبّبت المصيبة والهزيمة والانكسار. . .

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقدر سبحانه على نصركم - إن أطعتم أمره وعملتم بما أراد، كما أنه يقدر على خذلانكم وهزيمتكم إن خالفتم أمره وعصيتم إرادته. . . ينصر لمصلحة ويهزم لمصلحة طبقاً لحكمة يعلمها ويقدّرها ويريدها. . .

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الهزيمة في أُحد هزت أعماق المسلمين وإيمانهم وجعلتهم أمام هذا التحدي يعيدون النظر في سلوكهم وعملهم والتزامهم. . كما أنها أحدثت صدمة قوية في فصولها التي تداخلت، فظهرت في الأقوال كما ظهرت في سلوك المنافقين وطريقة تعاملهم مع الصف الإسلامي وكيف رجعوا عن الطريق وما أحدثه ذلك من شرخ كبير، ثم كيف خالف الرماة أمر النبي؟ وبعده كيف انهزموا في المعركة وانصرفوا هاربين تاركين نبيّهم وقلة قليلة معه؟.

هذه الأحداث كلها أثّرت في نفوسهم، ولكنها أعطتهم من الدروس ما نفعهم في مسيرتهم الجهادية وما استطاعوا به أن يكسبوا خبرة تؤهلهم للسيطرة على العدو في جميع المعارك اللاحقة. وهنا يتلطف بهم الله ويرفق بهم بإرجاع ما وقع إلى الله، وأن المصلحة قد اقتضت ذلك، وما وقع لهم من هزيمة وقتل في

أُحد يوم التقى جمعهم وجمع المشركين فكان بعلم الله الذي قدَّره، كما وقع ليتخذ منكم شهداء ويعطيكم دروساً مفيدة في مستقبل الدعوة والحياة وكذلك من فوائد ما حدث.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾ أي يتميز كل من المؤمنين الصابرين الذين لا يترددون في مواقفهم أو يشككون في إيمانهم، وبين أولئك الذين يعيشون النفاق والشك، فواقعة أُحد كشفت كلاً من الفريقين على حقيقته وأظهرت ما كان يعلمه الله عن كل منهما حتى لا يكون لأحد حجة يحتج بها عندما يثيب هذا أو يعاقب ذاك...

﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾. وهذه حالة عاشها المسلمون مع أهل النفاق، إنهم باستمرار يتحركون حركات ضبابية قاتمة لا تستطيع أن تستكشف منها الحقيقة، وإن كانت الحقيقة معلومة على وجه اليقين...

إن ابن أُبيّ وجماعته من أهل النفاق تحركوا مع المسلمين من المدينة إلى خارجها نحو جبل أُحد، ولم يكن هذا الرجل ممن أحبَّ الخروج، بل كان رأيه البقاء فيها والقتال منها، ولكن النبي ﷺ بعد أن رأى أن الرأي الغالب هو الخروج قرّر ذلك، فاغتاظ ابن أُبيّ وكتمها في نفسه على مضض.

وبعد تحرك جند الإسلام بقيادة النبي ﷺ وإذا بابن أُبيّ ومن معه من المنافقين يقررون العودة إلى المدينة... إنها ساعات صعبة... فالعدو من الخارج يجيّش الجيوش ويتحرك لضرب المسلمين، وأهل النفاق يتحركون من الداخل تخذيلاً وإلقاءً للرعب في القلوب، وبالتالي قراراً للعودة وعدم إكمال الطريق مع المسلمين...

قرّر المنافقون العودة، وهنا تحرك المؤمنون نحوهم وعرفوا مقصدهم، فقالوا لهم: ﴿تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إنها معركة لله وفي سبيله قد توفّرت لكم فتوفروا لها وقاتلوا معنا في سبيل الله أعداءَ الله...

وإذا لم يكن لكم إيمان بالقتال في سبيل الله ولم ترجوا الحساب والأجر والثواب فعلى الأقل ﴿ٱدۡفَعُواْۖ﴾ الآية: ﴿ٱدۡفَعُواْۖ﴾ قاتلوا العدو دفاعاً عن كرامتكم وعزكم وحريمكم وأرضكم وشرفكم...

إن لم يكن لكم دين فكونوا من أهل الكرامة وادفعوا الأعداء عنكم ولا تمكنوهم من رقابكم...

ويستمع المنافقون هذا الطلب ولكن القرار بالعودة قد اتخذ وبداية الرجوع قد بدأت، ولكن كما هي العادة لن يكون الرفض صريحاً فاقعاً ولن يسترجعوا مقدمات الحوار، كما أنهم لن يبحثوا عن عمق نفوسهم وما يكتمون، بل ستكون الإجابة في الظاهر معلّلة وبأسبابها المعقولة لمن لا يعرف أساليب المنافقين وطرقهم في التعامل مع الناس وبالخصوص مع المسلمين لأنهم محسوبون عليهم...

إنهم أجابوا ﴿لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ﴾ إنهم يعلّلون عدم إكمال ما بدأوه من الخروج مع المسلمين، إلاّ أنهم لا يعلمون بوقوع المعركة وحدوث القتال بين المسلمين والمهاجمين...

عدم العلم بوقوع المعركة يكفي في نظرهم للرجوع وعدم متابعة المسلمين في الخروج...

لقد أغمضوا أعينهم عن خروج المشركين من مكة ووصولهم إلى ديار المسلمين بكل عددهم وعدتهم وهم يتلمظون حقداً للانتقام منهم وردّ اعتبارهم الذي فقدوه في معركة بدر.

لقد نسوا ما توعّد به أبو سفيان من حرب المسلمين! وكيف اقترب من المدينة وكاد أن يدخلها..

لقد نسوا كل المحاورات التي جرت بين المسلمين في كيفية مواجهة العدو، وكأن المعركة واقعة لا محالة، وإنما الخلاف في الأرض التي تجري عليها وتقع على ثراها...

نسي المنافقون كل ذلك وأنكروه ﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ يريدون بذلك الرجوع وفتّ عضد المسلمين وزلزلة إيمانهم وعقيدتهم بالنبي وقيادته...

وهنا يكشف الله هويتهم وانتمائهم الحقيقي بقوله:

﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾. إذا كانت صورة المنافقين لم تظهر على حقيقتها قبل مقالتهم المتقدمة وكانوا يعيشون بين الإيمان والكفر، ولم يكن من المصلحة أن تكشف للناس هويتهم بوضوح، فإنهم بمقالتهم هذه: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ ظهرت هويتهم جليّة، فهم للكفر أقرب منهم للإيمان... إن مقالتهم هذه وموقفهم العملي يكشفان أنهما كفار قولاً وسلوكاً.. لأن مقالتهم توهن أهل الإيمان وتقوي شوكة الشرك، وهي دعاية تصبّ في مصلحة الكفر، وبالتالي تكشف عن نفوس مريضة كافرة لا تعيش الإيمان ولا تنعم بلذة وجوده في نفوسهم...

﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ لأنه إذا قيست العقيدة بالأقوال والأفعال والسلوك فإن ما أصدر منهم يضعهم في خانة الكفار ويقطع علاقتهم بالمؤمنين والإيمان...

﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ فهم يبطنون الكفر ويظهرون الإيمان، يقولون بأفواههم ما يقوله المسلمون ويشهدون كما يشهدون، ولكن في قلوبهم خلاف ذلك، فلا يؤمنون به ولا يصدّقون بمضمونه...

وقوله: ﴿بِأَفْوَاهِهِم﴾ تأكيدٌ على أن مقولتهم بألسنتهم تخالف ما في قلوبهم...

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ فأنتم تعلمون بعض الظواهر التي تكشف عن نفاقهم وكفرهم، والله سبحانه يعلم تفاصيل ذلك ودقائقه وكل شعور يعيشونه في هذا العالم الملحد الظالم المنافق...

﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ وهذه مقولة أخرى للمنافقين تستثير الأعصاب وتهز الوجدان وتجعل المرء يأسف على العقلية التي تعيش في هذا الصنف من الناس...

لم يكتف المنافقون بالقعود والتخلف عن الجهاد، بل لم يكتفوا بمقولاتهم المعبرة عن حقدهم ونفاقهم ورجوعهم من منتصف الطريق إلى المدينة تاركين المسلمين يواجهون الكفر. . .

لم يكتف المنافقون بذلك بل عمدوا إلى إخوانهم في النسب والقرابة أو الوطن الذين عادوا بعد واقعة أُحد ليقولوا لهم: لو أطاعونا ولم يخرجوا كما لم نخرج ما قتلوا في أُحُد ولا أصابهم الموت. . .

إنهم بمقولتهم هذه يجرحون عواطف الحاضرين من المسلمين كما يسيئون إلى عقيدة الناس من حيث يجعلون الأسباب الظاهرة هي التي تحكم حياة الإنسان بالموت والحياة. . .

إنهم يجعلون الخروج إلى الجهاد هو السبب للموت، فلو لم يخرجوا لم يموتوا، غافلين عن حقائق تجري أمام أعينهم وفي محضرهم، فكم من مجاهد أبليَ بلاءً حسناً وتعرض للمخاطر ثم عاد سليماً لم يُقتل، وكم من جبان خانع تخلّف عن الجهاد مات حتف أنفه. . .

ثم إن الله يرد عليهم مقالتهم بقوله لرسوله ﷺ ﴿قل﴾ لهم يا محمد!

﴿فَٱدۡرَءُوا۟ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَـٰدِقِينَ﴾ فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين في قولكم، إن من قعد عن الجهاد لا يموت. .

إن الموت يدرك المقيم كما يدرك المجاهد ويدرك المغامر كما يدرك الجبان لأن الأعمار بيد الله، هو الذي قدّرها فمن جاء أجله جاءه الموت ولو كان في منزله وعلى فراشه، أو كان محصّناً بالقلاع والبروج المشيدة، ومن تأخر أجله لم يمت ولو كان في ملتقى السيوف ومواقع السهام والرماح. . .

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾.

اللغة

﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾: لا تظنّن.

﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: كل ما يوصل إلى رضاه، وهنا يقصد به الجهاد.

﴿يُرْزَقُونَ﴾: قال الراغب: الرزق: يقال للعطاء الجاري، ورزق الآخرة: ما يفيضه الله من النعم الأخروية.

﴿فَرِحِينَ﴾: مسرورين.

﴿ءَاتَىٰهُمُ﴾: أعطاهم.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾: يفرحون، وأصله من البشرة لأن الإنسان إذا فرح ظهر أثر ذلك على بشرته.

﴿لَمْ يَلْحَقُوا۟﴾: يقال: لحقته ولحقت به: أي أدركته.

﴿خَلْفِهِمْ﴾: وراءهم.

﴿ٱلۡخَوۡفُ﴾: يضاده الأمن، والخوف: توقع مكروه.

﴿يَحۡزَنُونَ﴾: الحزن: ضد الفرح، والحُزن: خشونة في النفس لما يحصل فيه من الغم..

﴿لَا يُضِيعُ﴾: ضاع وضياعاً: فُقد وهلك وتلف وصار مهملاً.

﴿أَجۡرَ﴾: ثواب.

التفسير

تأسّف المسلمون وتحسّروا على الشهداء الذين سقطوا في بدر وفي أُحد وتمنّوا لو بقوا على قيد الحياة معهم يتلذذون ويتنعمون ويتمتعون بخيرات الدنيا وطيباتها...

كما أن المنافقين جعلوا من خروج المسلمين إلى أُحد ووقوع الشهداء مستمسكاً بأيديهم يعظّمون هذا الأمر ويقولون ﴿لَوۡ أَطَاعُونَا﴾ - في عدم الخروج - ﴿مَا قُتِلُواْۗ﴾ فكانت الشهادة بأعين الجميع موضوع إثارة وكلام وحديث وحوار، وكأن الشهداء قد ماتوا وفنوا وحرموا ملذات الدنيا وطيباتها.

فجاء هذا النص القرآني لينفي هذه الخواطر التي تسيء إلى الحقيقة قبل أن تسيء إلى الشهداء.

فقال تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ﴾ لا تأخذكم الظنون والخيالات والأوهام إلى أن الذين قتلوا في سبيل الله دفاعاً عن الدين وعن العقيدة أمواتاً...

إنه سبحانه ينفي أولاً عنهم الموت... إنهم لم يموتوا كما يتراءى لكم أو كما تتخيلون...

﴿بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾ ويثبت لهم الحياة ثانياً تأكيداً على أنهم لم

يموتوا. . . إنهم ذهبوا إلى أن الشهادة تقضي على الحياة، ولكنهم غفلوا عن معنى الحياة ومداها وسعتها وامتدادها. . . إن الشهادة ليست موتاً بل حاجزاً ينتقل الإنسان الشهيد منه إلى عالم إلهي أفضل وأحسن وأكرم. . . إن الشهداء يعبرون بشهادتهم من حياة إلى حياة، وما يعبرون إليه أعظم وأسمى مما يعبرون عنه، وإن كانت كلها حياة وعيش دائم مستمر، كالإنسان يعبر من طفولته وضعفه إلى شبابه وقوته، وكما يعبر من جهله إلى علمه، وهكذا.

فالوجود واحد. . ولكن تغيرت أطواره وأحواله وهكذا الشهداء. هم أحياء في كرامة الله والزلفى لديه يرزقون كما نرزق مع فارق طهر وصفاء وطيب ما يتناولون وبدون منغّصات أو مكدِّرات كما يصيبنا من رزق الدنيا. .

ثم لا يخفى أن العندية في قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ هي عندية كرامة لا عندية قرب ومسافة ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ إنهم يعيشون الفرحة والسرور بما أعطاهم الله من الخير والنعيم وما أغدق عليهم من وجوه البرّ والكرم لجهادهم وفوزهم بشرف الشهادة وبلوغهم درجتها. . .

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ فكما فرحوا لأنفسهم بما وصلوا إليه من الشهادة وما بلغوه من كرامة الله وفضله، فإنهم أيضاً يلتفتون إلى من خلفهم ومَن ورائهم ممن كان معهم من المجاهدين الذين بعدُ لم يلحقوا بهم في ركب الشهادة. . إنهم يتطلعون إلى الخلف إلى رفاق الجهاد وأخوة السلاح. . .

إنهم إخوانهم يحبون لهم ما يحبون لأنفسهم ولذا يفرحون لهم ويترقبون بلوغهم درجتهم ووصولهم إلى ما وصلوا هم إليه. . .

إنهم يفرحون بالذين لم يصلوا بعدُ إليهم من المجاهدين، يفرحون لهم بما سيصلون إليه وما ينتظرهم من الفضل والخير ولذا ينتظرون قدومهم ويترقبون في كل لحظة وصولهم حتى ينعموا كما نعموا ويسعدوا كما سعدوا. . .

﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ هذه من مقولة الشهداء لإخوانهم الذين لم يلحقوا بهم. . . إنهم يزفون إليهم البشرى بأن في دار الشهادة ينتفي الخوف

والفزع الذي يحمله الإنسان من نوائب الدنيا وهمومها ومخاطرها وأحداثها.

كما أن الحزن أيضاً يرتفع لأنه ليس هناك ما يحزن له الإنسان، لأن السعادة المطلقة قد تحققت والنعيم العظيم قد بلغوه وكل ما أمّلوه قد وصلوا إليه.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ وهذا أيضاً مما يحمله الشهداء نحو كل المؤمنين.. إنهم يفرحون لهم من حيث طاعتهم لله ولرسول الله ومن حيث التزامهم بما أمر وتركهم لما نهى..

إنهم يفرحون بنعمة الله التي يسديها لهم جزاء التزامهم وطاعتهم ويثيبهم زيادة على ذلك من فضله وإحسانه وجوده وكرمه.. أو تكون الثانية «الفضل» هو نفسه «النعمة» تأكيداً وبياناً وليس لاختلافهما معنى..

وعلى كل حال.. فالشهداء كما امتازوا في الدنيا بالشهادة امتازوا بنظرهم إلى رفاق السلاح من المجاهدين كما امتازوا بالنظر إلى رفاق الإيمان من سائر المؤمنين...

وفي النهاية ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ لا يذهب عمل المؤمنين هدراً وبدون ثواب بل من عجز عن حمل السلاح والنزول إلى ساحات الجهاد وكان يحمل إيماناً صادقاً وعملاً صالحاً فالله سبحانه يتولى إعطاؤه الأجر والثواب. والله سبحانه يقول: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾(١).
ولا يخفى أن تنكير: بنعمةٍ: للتعظيم والتفخيم.

(١) آل عمران/ ١٩٥.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾.

اللغة

﴿ٱسۡتَجَابُواْ﴾: الاستجابة: هي الإجابة ومعناهما واحد كما قيل، وهي أن تسأل شيئاً فتجاب بالقبول.

﴿أَصَابَهُمُ﴾: نالهم.

﴿ٱلۡقَرۡحُ﴾: بفتح القاف الجرح وبالضم ألمه.

﴿أَحۡسَنُواْ﴾: عملوا عملاً حسناً ونووا نية حسنة.

﴿أَجۡرٌ﴾: ثواب.

التفسير

﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُ﴾

انتصر المشركون في معركة أُحد وكرّوا راجعين نحو مكة حتى وصلوا إلى الروحاء وهناك أعادوا النظر في محمد وأصحابه، وفكروا أن يرجعوا إليهم فيستأصلوهم عن بكرة أبيهم، وبذلك يتم لهم ما أرادوا على وجه الحقيقة وتكون الفيصل وخاتمة الحروب...

ويسمع النبي ﷺ هذا الخبر وبحكمته الصائبة ومعرفته في تدبير الأمور ومعالجة الصعاب والمشكلات يأمر مناديه أن ينادي بخروج المسلمين ولا يخرج منهم إلاّ من به جراحة.

خرج المسلمون بقيادة النبي ﷺ إلى (حمراء الأسد) التي تبعد عن المدينة ثمانية أميال وأقاموا فيها.

ويمرّ رجل بالمسلمين ثم يكمل السير حتى يصل إلى أبي سفيان والمشركين فيسألونه الخبر، فيقول لهم: تركتُ محمداً وأصحابه (بحمراء الأسد) في جيش عظيم وقد اجتمع له من كان تخلّف عنه، وهم قد تحرّقوا عليكم فالنجاء النجاء فثنّى ذلك أبا سفيان ومَنْ معه وقذف الله في قلوبهم الرعب ورجعوا إلى مكة خائفين مسرعين ورجع النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة...

فالله سبحانه.. أثنى هذا الثناء العظيم وأعطى هذا الأجر والفضل الجليل لمن أطاع الله والرسول فيما انتدباه إليه من الخروج إلى ملاحقة المشركين مع ما بهم من الجراح والآلام.

فإن من خرج طاعة لله ولرسوله واستجابة لهما مع ما به من الجراح فهو في غاية الطاعة والالتزام، ويستحق إذا كان فعله خالصاً لوجه الله أن يعطيه سبحانه الأجر العظيم...

وقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَوْاْ﴾ قد يكون إشارة إلى أن بعضهم لم يكن خروجه مع الإحسان والتقى، فلا يستحق هذا الأجر العظيم...

وذهب بعضهم إلى أن قوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ ليس المقصود بها التبعيض، وإنما هي للبيان فيكون الجميع ممن خرج قد نالهم ذلك وكانوا متصفين بهاتين الصفتين...

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ
إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ
سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾.

اللغة

﴿جَمَعُوا۟﴾: من جمع، والجمع: ضم الشيء بتقريب بعضه من بعض، وهنا جمعوا جنودهم.

﴿فَٱخْشَوْهُمْ﴾: الخشية: الخوف.

﴿زَادَهُمْ﴾: من زاد، والزيادة: أن ينضم إلى ما عليه الشيء في نفسه شيء آخر.

﴿حَسْبُنَا﴾: كافينا، والإحساب: هو الكفاية، يقال: أحسبني الشيء: أي كفاني.

﴿ٱلْوَكِيلُ﴾: الذي يتولى القيام بشؤون غيره وأموره.

﴿ٱنقَلَبُوا۟﴾: انصرفوا ورجعوا.

﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ﴾: المس: كاللمس، والمس يقال: في كل ما ينال الإنسان من أذى.

﴿سُوٓءٌ﴾: السوء: كل ما يغمّ الإنسان من الأمور الدنيوية والأخروية البدنية والنفسية..

﴿رِضۡوَٰنَ﴾: هو الرضا الكثير يوصف به الله.

التفسير

عندما وصلت إلى أبي سفيان أنباء استنفار النبي ﷺ وأصحابه وملاحقته له وللمشركين، وأنهم قد أصبحوا في (حمراء الأسد) خاف أبو سفيان وارتعب وخصوصاً بعد أن أخبره بعضهم أن محمداً في جيش عظيم وقد اجتمع له من تخلّف عنه وهم قد تحرّقوا عليكم...

كان هذا الخوف هو الدافع وراء تكليف نعيم بن مسعود الأشجعي الذي كان يقصد المدينة ليمتار لأهله طعاماً ـ أن يمر (بحمراء الأسد) ويلتقي بأصحاب رسول الله ﷺ ويخوفهم من أبي سفيان والمشركين ومَنْ وراءهم حتى يرجعوا عنهم ولا يطاردوهم أو يلاحقوهم على أن يدفع له أبو سفيان مقابل ذلك ـ إذا رجع المسلمون عنه ـ عشرة قلائص يملأها تمراً وزبيباً...

ويتحرك نعيم بن مسعود إعلامياً مأجوراً لأبي سفيان حتى إذا وافى أصحاب رسول الله ﷺ في (حمراء الأسد) ابتدأهم بالسؤال، وكأنه جاهل لا يعرف وجهة مسيرهم، فسألهم أين تريدون؟

قالوا: قريشاً.

قال: ارجعوا إن قريشاً قد اجتمعت عليهم حلفاؤهم ومن كان تخلف عنهم وما أظن إلاّ أوائل خيلهم يطّلعون عليكم الساعة...

إنها محاولة تخويف رهيبة ظَنَّ من خلالها أنهم سيتساقطون أو يخافون أو يفرون.

ولكنهم بعقيدة المؤمنين الصادقين قالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل وما نبالي...

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ عبّر بالناس عن نعيم بن مسعود الأشجعي لأنه من جنسهم ـ كما تقول فلان يركب الخيل ـ وإن لم يكن عنده إلاّ فرس واحد يركبها. . أو كما في (مجمع البيان): لأنه انضم إليه ناس من المدينة وأذاعوا كلامه.

﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ يراد بالناس هنا أبو سفيان ومن معه من المشركين قد جمعوا لكم جنوداً وجيوشاً لمحاربتكم فخافوا على أنفسكم واحفظوها بالرجوع والفرار.

ولكن أصحاب الحق كانوا أشد إصراراً وثباتاً ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ بقضيتهم وحقهم وما هم عليه من محاربة الأعداء ومواجهتهم.

وقوله: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ بيان أن الإيمان يزداد بزيادة الحجج والبراهين والأدلة والبينات، وقد ينقص بالشبهات والشكوك والإفتراءات.

﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ وهذا انقطاع لله، وأنه وحده الذي يكفيهم ويدفع عنهم أخطار هذه المواجهة مع المشركين. . .

﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ نِعمَ من يتولى شؤوننا ويديرها ويدبّر أمورنا ويقوم بها. .

﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ رجعوا من (حمراء الأسد) إلى وطنهم بنعمة السلامة وفضل الأجر والثواب لم يصابوا بأذى في أبدانهم وأبشارهم أو أموالهم وأرزاقهم. . .

وتنوين «نعمةٍ» للتفخيم. . .

﴿وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ كانوا في طاعة الله عندما خرجوا لملاحقة العدو وكسر شوكته فنالوا رضاه.

﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ ومن فضله وإحسانه وامتنانه وكرمه أنه سبحانه ثبّت أقدامهم وزادهم إيماناً وجرأة على مواجهة الأخطار وكفراً بالشيطان وأقواله وأوامره وما يريد، ومن نعمه العظيمة عليهم أنهم رجعوا إلى بلادهم وديارهم لم يصابوا بشيءٍ يسوءهم أو يؤذيهم ويضر بهم.

يبقى أن نشير إلى أن بعض الروايات وكثير من المفسرين ذكروا سبباً آخر - غير الأول - لنزول هذه الآية يرتبط أيضاً بواقعة أُحد ومفاده: أن أبا سفيان عندما أراد أن ينصرف قال: يا محمد! موعدنا معك في بدر العام المقبل إن شئت.

فأجابه رسول الله ﷺ ذلك بيننا وبينك إن شاء الله.

فلما كان العام المقبل خرج أبو سفيان إلى منتصف الطريق ووقع الخوف في قلبه فبدا له الرجوع، فلقي نعيم بن مسعود الأشجعي قاصداً المدينة فأغراه أبو سفيان أن يلقى رسول الله ﷺ ويخوفه ويرجعه على أن يعطيه جعلاً معيناً، وعاد أبو سفيان وقام نعيم بالمهمة ولكنه لم يفلح فقد خرج النبي ﷺ إلى بدر وتحدى أبا سفيان وباع واشترى هو وأصحابه ورجع بفضل الله ونعمته لم يمسسهم سوء هذا موجز جداً عن السبب الثاني للنزول. . .

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿أَوْلِيَاءَهُ﴾: أتباعه وأنصاره.

التفسير

أراد سبحانه تقوية عزائم المؤمنين وتوهين كيد الكافرين فاستصغر تسويلات نعيم بن مسعود واحتقرها وحوّله إلى شيطان يوسوس إلى المؤمنين ويقول لهم تخويفاً ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ لأن من يعمل بعمل الشياطين فهو شيطان صغير...

إن الشيطان يوسوس لأوليائه فيطيعونه ويخافون مما يقول... أما أنتم أيها المؤمنون فلا تخافوا الناس ـ لأن الكفار لا يملكون من الضرر والأذى ما يقدرون إلحاقه بكم، ولكن خافوني إن كنتم مؤمنين، لأن الله هو الذي بيده كل شيء والقادر على كل شيء، فإذا كنتم مؤمنين بالله وقدرته وسطوته وإنه المالك لكل شيء فيجب أن تخافوه هو فحسب دون سواه...

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾.

اللغة

﴿يُسَٰرِعُونَ﴾: يبادرون.

﴿يَضُرُّوا﴾: الضر: الأذى.

﴿حَظًّا﴾: نصيباً.

التفسير

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ﴾.

تسلية لرسول الله لِمَا كان يعانيه من أهل الكفر والنفاق، وكيف كانوا يجدّون في إطفاء نور الله والقضاء على الدعوة والدين، فكان الرسول يؤذيه ذلك ويشعر بضيق من هؤلاء القوم ويحس ببؤسهم وتعاستهم...

فبدل أن يبادروا إلى الاستجابة له ويؤمنوا بما جاء به خالفوا ذلك فكفروا وجدّوا في الكفر بمحاربته ومحاربة دعوته ومن كان معه من أصحابه ومن كان على رأيه...

﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ كفرهم لن يؤثر على الله، لأنه الغني المطلق الذي لا تضره معصية العاصي مهما كانت كبيرة ولو بمستوى الكفر، أو مهما تكن صغيرة كأدنى الصغائر... ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾ إن الله سبحانه يخلي بينهم وبين اختيارهم، ويتركهم وشأنهم ولا يضطرهم إلى الإيمان أو يمنعهم بالقوة عن الكفر، وبذلك يفقدون نصيبهم من نعيم الآخرة وما أعدّه الله لأوليائه المؤمنين فيها...

إنهم قوم اختاروا الكفر وجدّوا في السعي لإطفاء نور الله، وهذا يمنعهم من ألطاف الله ويحرمهم كل موقع لهم في جنته...

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ دلّ ما تقدم على أن الله حرم الذين يسارعون في الكفر من كل حظ لهم في الآخرة، فهم ممنوعون عن دخول الجنة وليس لهم منها حظ أو نصيب، وهنا بعد الحرمان من ذلك النعيم، لهم عذاب عظيم حيث يدخلهم الله ناراً أعدّها للكافرين العصاة، وهي نار تتعدد فيها وسائل التعذيب وتختلف من كافر لآخر بحسب جرمه واشتداد كفره وفسقه...

إن العذاب بنفسه يُرعب القلوب، فكيف إذا أضيف إليه أو وُصف ـ بأنه عظيم ـ ويكبر التصور لهذا العذاب إذا أخذ في مفهومه أنه من الله، بل يمتنع على التصور أن يحيط بمثل هذا العذاب ـ أجارنا الله منه ـ..

قيل إن قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يختص العذاب بالآخرة، بل ربما شملهم في الدنيا، وقرينة ذلك أن ما قبله قيّده بالآخرة، فقال: «يريد الله أن لا يجعل لهم حظاً في الآخرة» بينما أطلق العذاب العظيم، وهذا يشمل الدنيا والآخرة، وهذا فهم لا بأس به لولا سياق الآية التي تتحدث عن الآخرة...

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾.

❁ ❁ ❁

التفسير

تأكيداً لمعنى الآية المتقدمة، وأنهم باختيارهم اختاروا كفرهم حيث اتضحت الأدلة والبراهين على وجود الله، وعلى رسالة نبيه ودعوته وصحة ما جاء به، ومع ذلك باختيارهم أعرضوا عنها وأصرُّوا على كفرهم وعقدوا العزم على الاستمرار فيه، فهم كتاجر عرف موارد الربح وأسبابه وكل ما يوصل إليه ولكن مع ذلك تركها كلها وأقدم على مورد يخسر فيه على وجه اليقين، فهؤلاء باختيارهم تركوا الإيمان وأصرُّوا على البقاء كفّاراً. . .

ولكن هذا الاختيار للكفر والبقاء عليه ـ والشراء له ـ لن يضر الله شيئاً مهما كان هذا الضرر صغيراً أو كبيراً لأنه الغني المطلق الذي لا يتأثر بالعوارض والأفعال التي تجري في الكون كله، فضلاً عن فعل هذا الإنسان وحركاته وما يقوم به، وشيئاً يفيد نفي الضرر مطلقاً لوقوعه في حيّز النفي فيفيد العموم.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي عذاب مؤلم موجع ولم يجعله عظيماً كما في الآية المتقدمة، لأنهم هناك يسارعون ويجدُّون فاستحقوا العذاب العظيم الذي يناسب المسارعة، وهنا مجرد استبدال «بيع وشراء»، فكان لأولئك عذاب عظيم ولهؤلاء عذاب أليم.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾.

اللغة

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾: لا يظنن.

﴿نُمْلِي﴾: نمهل، والإملاء: الإمهال، والتملية بين الإنسان وشأنه، يفعل ما يشاء مأخوذ من قولهم أملى لفرسه: إذا أرخى لها الحبل لترعى ما تشاء، فالإملاء رفع للقيد.

﴿إِثْمًا﴾: معصية وذنباً.

﴿مُّهِينٌ﴾: مذلّ.

التفسير

يعيش الكافر في عمر طويل ومال كثير وأولاد وحشم وخدم وعنده ما يتمتع به من زينة الدنيا وزخرفها. فيظن أن ذلك كله خير له ولصالحه ومنافعه غافلاً عمّا يراد به من وراء هذا العطاء...

إن الله سبحانه وتعالى ينسف ظنون الذين كفروا ويرفع الغشاوة ويكشف

الحقيقة الكامنة وراء طول عمر الكافر ووراء إمهاله وتركه في بحبوحة من العيش وفي كل ميادين الحياة. . .

إنه سبحانه يتركه وشأنه حتى إذا أفاق لنفسه ورجع إليها اهتدى وآمن ووظف كل نفسه وما عنده في سبيل الله، وإذا بقي الخبث والطغيان والعمى وكل الشرور مسيطرة عليه وعلى قلبه ونفسه تمادى في غيِّه واسترسل في ضلاله وازداد إثماً. . .

إن إمهال الله للكافر وعطائه له لم يكن لحبه له أو رضاه عنه، إنما يعطيه ويزيد له في عمره ويغدق عليه من نعمه حتى يطغى ويزداد عتواً وعلواً، وتكون عاقبته النار وبئس القرار. . .

إن إمهال الله للكافرين عاقبته زيادة إثمهم وكثرة رصيدهم من السيئات، وهذا لينالهم العذاب الكبير والمهين. . .

وليعلم أن الله لا يعطيه ولا يمهله لكي يزداد إثماً ويدخل النار ـ حاشا لله أن يكون كذلك ـ وإنما يعطيه كما يعطي جميع الناس لكي يطيعه ويلتزم أمره ويؤدي شكر هذه النعم. ولكن الكافر بما أنه لا يأخذ هذا الحظ وإنما يستغل ذلك في الإثم والكفر فكانت عاقبة هذا العمل وطول هذا العمر وصرف هذا المال في الحرام كلها كانت عاقبتها الإثم والمعصية. .

فالعطاء والإمهال والإملاء كانت عاقبتها الإثم وزيادته وباختيار الكافر وإرادته. ولذا استحق العذاب المهين في النار. . .

لا يخفى أن اللام في قوله تعالى: ﴿لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ﴾ هي لام العاقبة يعني عاقبة هذا العطاء ونهايته توصل إلى هذا المعنى. . .

كما لا يخفى أيضاً أن العذاب هنا كان مهيناً لأنهم كانوا متعززين بما أعطاهم الله في دار الدنيا، فكانت عاقبتهم في الآخرة العذاب المهين. . .

قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿لِيَذَرَ﴾: ليترك.

﴿يَمِيزَ﴾: يقال: ماز وميّز: أي فصل الشيء من الشيء.

﴿الخَبِيثَ﴾: ما يكره رداءة وخساسة محسوساً كان أو معقولاً ويطلق على العمل الفاسد وعلى الكافر وعلى غيرهما..

﴿ٱلطَّيِّبِ﴾: أصل الطيب ما تستلذه الحواس وما تستلذه النفس ويطلق على الحلال وعلى الإنسان إذا تعرى من نجاسة الجهل والكفر...

﴿لِيُطْلِعَكُمْ﴾: ليعرّفهم ويعلمهم.

﴿يَجْتَبِى﴾: يختار ويصطفي.

﴿أَجْرٌ﴾: ثواب.

التفسير

هذا وعد من الله لنبيه أن لا يترك الأمور مختلطة غير واضحة بين المؤمنين الطيبين والمنافقين الخبيثين. .

إن عملية عدم الفرز بين المؤمنين والمنافقين يسيء إلى الدعوة ويؤثر في مسيرتها بل قد يشلّ حركتها ويصيبها بنكسة مريعة كما وقع يوم أُحد وعليه لا بدّ من إجراء عملية الفرز التي تكشف المؤمن من المنافق. . .

ولذا قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ فما أنتم عليه هو عدم تميز المؤمن من المنافق، فالأوراق مختلطة والصور لم تتكشف على حقيقتها وكل ينسب إلى الدين ولا يقبل أن يشار إليه إشارة غمز أو لمز، بل قد يظهر في أعلى درجات الحماس والدفاع عمّا أنتم عليه. . هذا هو ما كانوا عليه. . .

وهنا يريد الله أن يكشف الحقيقة ويميز المؤمن من المنافق. . . والمؤمن هو الطيب والمنافق هو الخبيث. وتميزهما بالابتلاء بالتكاليف الشاقة ببذل الأموال والجهاد وخوض غمرات القتال، وهكذا. . فالمؤمن يتحمّل كل ذلك برضى وسرور ولا يظهر عليه ما يسيء إلى عقيدته ودينه وما هو عليه.

وأما المنافق فلن يكمل طريق الجهاد بل سيرجع من منتصف الطريق ويقوم بعملية تخذيل يمنع الناس عن الالتفاف حول النبي ﷺ والرسالة، كما وقع لعبد الله بن أبيّ في غزوة أُحد وأنه أيضاً سيمتنع عن بذل المال في سبيل الله وسيرفض ويتمرد لكل أمر لا يرغب فيه أو لا يلتقي مع هواه. . .

إنها أمور عملية تكشف بوضوح هويّات المؤمنين وتميزهم عن هويّات المنافقين. . ولا بدّ منها ولا بدّ من ممارستها حتى يدرأ المؤمنون عنهم وعن دينهم خطر عدو يعيش بينهم ويلبس ثوبهم ويقول ظاهراً بقولهم. . .

هذا هو الطريق الأول لتميز المؤمنين من غيرهم. إنه طريق الاختبار والابتلاء التي به تكشف الحقائق. . .

وهناك طريق آخر لتميز المؤمن من المنافق، أنه الوحي الإلهي يوحي به الله إلى أنبيائه ورسله. . .

إنه طريق مختص بالرسل فلا يُعطى للعامة لما في ذلك من الأخطار المترتبة عليه، والإضرار التي تلحق به حتى بالدعوة نفسها والرسالة ذاتها ولذا يجب أن يختص بالرسل الأمناء الذين يعرفون كيف يعالجون هذا الواقع على ضوء معرفتهم بكل منافق وبكل مؤمن. . .

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ ما كان لله أن يعطيكم علم الغيب الذي به تعرفون قلوب الناس وتميزون به بين المؤمن والكافر، بل جعل التمييز رهن بالابتلاء والاختبار ـ لأن علم الغيب يحتاج إلى رفع الحجب عن النفس، وهذا لم يتأت إلاّ إلى الرسل الذين اجتباهم الله واختارهم لحمل رسالته، ومن أهم علم الغيب النبوة التي تأتي إلى البشر تحمل إليهم كلام الله ومراداته، وليس هذا العلم إلاّ من مختصات هذه الطبقة الكريمة على الله من الأنبياء والرسل.

نعم أعطى الله علم الغيب للرسل فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ هو سبحانه يختار لرسالته من يشاء من الرسل، فيلقي إليه بعلم الغيب الذي يعرف من خلاله المؤمن من المنافق، والطيب من الخبيث.

ولا يخفى أن ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ﴾ إنها تبيين وليست تبعيض، لأن الرسل كلهم مجتبون. . .

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ دعوة إلى الإيمان الصحيح الذي به تُقبل الأعمال وترفع الدرجات ويُحصّن الإنسان عن الدخول في النار.

الإيمان بالله مادة الحياة الآخرة والأساس الذي يؤهل الإنسان لدخول الجنة، وأما الإيمان برسل الله فهو متفرع عن الإيمان بالله ـ وينبغي الإيمان بكل الرسل ـ لا نفرّق بين أحد من رسله كما هو قول المؤمنين، ومن فرّق بينهما فآمن ببعض

وكفر بالبعض الآخر فكأنه لم يؤمن بأحدٍ منهم، وإنكار واحدٍ على مستوى إنكار الجميع.

﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ فالثواب العظيم الذي لا يعلمه إلاّ الله مرهون بإيمانكم بما دعيتم إليه، والإتقاء من كل معصية، فلا يخرج هذا الإنسان عن إرادة الله في صغيرة أو كبيرة.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾.

اللغة

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾: ولا يظنّن.

﴿يَبْخَلُونَ﴾: من البُخل، وعرّفه الراغب في مفرداته بقوله: هو إمساك المقتنيات عمّا لا يحق حبسها عنه ويقابله الجود...

﴿ءَاتَىٰهُمُ﴾: أعطاهم.

﴿فَضْلِهِۦ﴾: فضل الله: عطاياه وإحسانه.

﴿خَيْرًا﴾: الخير: هو ما يرغب فيه الكل، الشيء النافع.

﴿شَرًّا﴾: الشر: ما يرغب عنه الكل، الشيء الضار.

﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾: من الطوق: وهو القلادة.

﴿مِيرَٰثُ﴾: من ورث، والإرث: انتقال للمال من الميت إلى ورثته.. أي أقربائه، ووصف الله نفسه بأنه الوارث من حيث أن الأشياء كلها صائرة إليه.

﴿خَبِيرٌ﴾: الخبير: العليم ببواطن الأمور.

التفسير

البخل

تقدم الحضّ على بذل النفس في سبيل الله وقد كانت الآيات صارخة في هذا المعنى إذ تدفع المتثاقل وتنهض بالكسلان والمتهاون.. وهنا في هذه الآيات حضٌّ على بذل المال، وتحريضٌ على الإنفاق ووعيدٌ شديدٌ لمن يبخل بما أعطاه الله من فضله...

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ﴾.

لا تذهب الظنون بالبخلاء الذين يبخلون بما أعطاهم الله من فضله من المال والخيرات، إنه خير لهم ويستطيعون من خلال هذا المنع والشح والبخل أن يجنوا ثمرات طيبة أو عوائد نافعة لهم...

إن ما يتصوره البخيل الشحيح يكشف عن نفسية مريضة في الاعتقاد، من حيث يذهب إلى أن البذل والعطاء وإخراج الحقوق الواجبة عليه يُنقص رأس ماله ويُنزل من رقمه الذي تعب كثيراً من أجل الوصول إليه...

إنه يتصور ملكيته الدائمة لهذا المال، كما يتصور أنه بجدّه وكدّه وتعبه قد حصل عليه ووصل إليه وينقطع عن الله وعن كون أصل وجوده وكل موجوده منه سبحانه وتعالى، وبهذا الخلل في التفكير والاعتقاد تنبعث هذه التصورات وغيرها ويبادر إلى رفض فكرة إخراج الحقوق من أمواله، بل يبخل بها وينسى حاجته وإمكانه وفقره، وأنه سيتخلى عن كل ما يملك ويرحل عنه ليحاسب بعد ذلك عليه ويعاقب على بخله وشحّه..

إن الله يرفض فكر البخيل وما يذهب إليه من أن منعه للحق الشرعي هو خير له ـ من حيث يبقى ماله بعينه عنده دون نقصان أو أنه يحفظه ولا يخرج منه الحق تحسباً لعدوان الزمان وغدره ـ إن هذا التوجه والسلوك خطأ ليس فيه خير.

﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ لما في ذلك من المعصية لله ورذيلة الشح والبخل وسوء الظن وما يجرّه ذلك عليه من العقاب وحرمان الثواب والقساوة وانتزاع الرحمة من قلبه وعدم مدّ يد العون إلى الفقير والمحتاج..

وينبغي أن نذكّر هنا أن قوله: ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ وإن كان عاماً يشمل العطاء الواجب والمستحب ولكن السنة الشريفة خصّصت ذلك بالواجب من الحقوق الشرعية زكاةً أو خمساً، فقد وردت الرواية الصحيحة عن الصادق عن آبائه عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا وجُعل في عنقه شجاع[1] يوم القيامة وتلا الآية ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾.

وبهذا المعنى جاء عن أهل السنة أيضاً كما في صحيح البخاري نصه «من أتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مُثّل له يوم القيامة شجاع أقرع له زبيبتان فيؤخذ بلهزمتيه ـ يعني شدقيه ـ ثم يقول: أنا.. أنا مالك أنا كنزك ثم تلا ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ الآية...

لا يخفى أن الآية يمكن أن تعمّم فتشمل كل ما أعطاه الله لهذا الإنسان من علم وجاه وسلطة وغيرها مما يمكن أن ينفع فيه الناس ويفيدهم ثم يبخل به...

﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾. إمّا أن يحمل ذلك على الحقيقة وأن الله سبحانه بقدرته يحوّل ما يبخل به هذا الإنسان من مال واجب الإنفاق يحوّله إلى طوق ـ قلادة ـ تطوق عنق هذا الإنسان يوم القيامة فيعذب بها..

وقد ورد عن أبي جعفر الباقر عليه السلام[2] أنه قال: «ما من عبد منع من زكاة

---

(١) شجاع: حية كبيرة عظيمة.

(٢) وسائل الشيعة، كتاب الزكاة، باب ٣ من أبواب ما تجب فيه الزكاة، حديث ٣.

ماله شيئاً إلاً جعل الله في ذلك يوم القيامة ثعباناً من نار مطوقاً في عنقه ينهش من لحمه حتى يفرغ من الحساب. وهو قول الله عز وجل: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يعني ما بخلوا به من الزكاة..

ومثل هذا الحديث كثير في معناه وفي مضمونه.

وأما أن تكون بمعنى الإلزام لهذا البخيل كما يلزم الطوق عنق الإنسان، والعرب إذا أرادت تأكيد معنى من المعاني، تقول: «قلدتك هذا الأمر وهو أمانة في عنقك وإذا كان في عنقه لا بد وأن يعذب به..

﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لله ملك السماوات والأرض وما فيهما، فلماذا يبخل هذا الإنسان بمال الله ولا ينفقه في سبيل الله؟!..

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ الله سبحانه وتعالى يعلم من يُنفق أمواله في سبيل الله ويخرج زكاته، كما أمر الله، كما يعلم سبحانه من يمنع ذلك ويبخل به فيجازي كل واحد بما عمل...

وقيل: إنه العالم ببواطن أموركم ومنطلقاتها... والآيات فيها وعيد وتهديد وإظهار اسم الجلالة (الله) لزيادة التهديد...

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾.

اللغة

﴿فَقِيرٌ﴾: الفقر: الحاجة الضرورية وهي لازمة لكل موجود، والفقر أيضاً: عدم وجود شيء عند الإنسان.

﴿أَغْنِيَاءُ﴾: من الغنى: وهو كثرة المقتنيات.

﴿سَنَكْتُبُ﴾: ندوّن ونسجّل.

﴿ذُوقُوا﴾: الذوق: وجود الطعم بالفم، وأصله فيما يقل تناوله دون ما يكثر، وقد استعمل في القرآن للكثير فخصّه بالذكر ليعمّ الأمرين.

﴿الْحَرِيقِ﴾: النار ذات اللهب.

﴿قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾: فعلته أيديكم وعملته أيديكم.

﴿لِّلْعَبِيدِ﴾: للناس، وسمّاهم عبيداً لإيجاده لهم.

سبب النزول

لما أنزل الله سبحانه وتعالى قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً﴾(١).

قالت اليهود: نرى إله محمد يستقرض منّا، فنحن إذن أغنياء وهو فقير وهو ينهانا عن الربا ثم يعطينا الربا، وأرادوا قوله: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً﴾.

التفسير

﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُ﴾ أقسم سبحانه أنه قد سمع مقالة اليهود وهذا السماع ليس سماع قبول، بل سماع تهديد ووعيد كما لو قلت لولدك المشاغب «إنني أسمعك» تهدّده بذلك وتتوعّده... ومقولتهم الظالمة تتضمن نسبة الفقر إلى الله والغنى لأنفسهم، فلأن الله يريد من الناس أن يتواصلوا ويتراحموا ويعطف بعضهم على بعض ويساعد بعضهم البعض ويُخرج كل غني بعضاً مما عنده إلى المحتاجين والفقراء لهذا نسبوا إلى الله الحاجة والفقر، وذهبت بهم أفكارهم الضالة ومعتقداتهم الفاسدة إلى أنهم هم الأغنياء والله هو الفقير، متغافلين عن أن الله هو الغني المطلق الذي خلقهم وخلق العالم وما فيه، وهو المالك لهم ولكل ما بأيديهم وما يزعمون أنه مملوك لهم...

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُ﴾ كلمة تعادل قتال الأنبياء وقتلهم، لأنها معكوسة المعنى تسلب الله صفة من أهم صفاته وتجرده عن خصوصية من أهم خصوصياته، بل إن قائلها لا يعرف الله على حقيقته، وإنما يجدّف على الذات الإلهية ويستهين بها، وهذه عادة اليهود وطريقتهم في الجرأة على الله وعلى أنبيائه..

---

(١) البقرة/ ٢٤٥.

﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

﴿سَنَكْتُبُ﴾ إمّا يحمل على أن قولهم سيكتب في صحيفة أعمالهم حتى يقرؤوه بأنفسهم ويقرّوا به.

وإمّا يحمل على أنه سبحانه سيحفظه بعلمه فلا يُنسى وسيحاسبهم عليه...

والتعبير بالكتابة لعله لجهة أن ما كتب لا ينسى بعكس ما يحفظ ـ بالنسبة إلى الإنسان ـ حيث يتعرض للنسيان...

وقوله: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ معطوف على قوله: ﴿سَنَكْتُبُ﴾ وكتابته عليهم أنهم قتلوا الأنبياء لأنهم رضوا بفعل آبائهم قتل الأنبياء، ومن رضي بفعل قوم شاركهم فيه، فالله سبحانه حمّل الحاضرين من اليهود زمن رسول الله دماء الأنبياء، لأنهم صحّحوا فعل أسلافهم ورضوا فيه ووافقوا عليه..

ثم إن الله سبحانه قرن قتلهم الأنبياء بقولهم الظالم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ تدليلاً على عظم هذا الجرم وبيان كبر المعصية، وإن أقوالهم الظالمة مقترنة بأفعالهم الظالمة.. والسين في قوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ﴾ للتأكيد.

﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ وهذا في الآخرة حين يلقون في النار، يقال لهم: ذوقوا العذاب المحرق..

والتعبير بـ﴿ذُوقُوا۟﴾ دون كلوا تحقيراً لهم واستهزاءاً بهم، لأن هذه الأطعمة لكراهتها وعدم إمكان استصاغتها يقال لهم: استهزاء بهم! ﴿ذُوقُوا۟﴾...

وأيضاً التعبير ﴿ذُوقُوا۟﴾ وإن كان معروفاً، وهو معرفة الطعام بطرف اللسان ويكون للقليل، ولكنه اتسع للكثير فيقال: ذاق الأمرّين إذا وقع في الشدائد وكابد آلامها ومشقاتها.

وربما كان التعبير بالذوق ليدلل على أن عذاب الحريق جزءٌ يسير من عذاب الله الأكبر المعدّ لهذا الكافر المعاند...

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي ذلك العذاب المحرق بسبب أعمالكم الفاسدة،

وما جنته أنفسكم الظالمة، وبسبب المخالفة والمعاصي التي تقدمت منكم وجرت في أعمالكم.

وتعبيره سبحانه بالأيدي لجهة أنها أكثر الأعضاء التي تجري الأعمال بها وإن كان المراد بها ـ ما جنته أنفسهم ـ الباء في قوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ﴾ للسببية.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ ينفي سبحانه عن ساحته الظلم، وأنه لا يظلم أحداً من خلقه، فإذا عاقب هؤلاء اليهود ومن على شاكلتهم فلارتكابهم المعاصي وخوضهم في الخطايا، فهم ظلموا أنفسهم وحاشا لله أن يظلم أحداً من خلقه . . .

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾.

اللغة

﴿عَهِدَ إِلَيْنَا﴾: أوصانا.

﴿يَأْتِيَنَا﴾: يجيئنا.

﴿بِقُرْبَانٍ﴾: القربان: ما يذبح من الأنعام تقرباً إلى الله تعالى.

﴿الْبَيِّنَاتِ﴾: الآيات الواضحات، ويراد بها هنا المعجزات.

التفسير

جاء النبي ﷺ يحمل رسالة الله إلى الناس، وجاءت معه معاجزه التي تثبت صحة نبوته، وقد أقامها للناس وبيّنها لهم ولم يعد أمام العقلاء إلا أن يؤمنوا به ويعتقدوا بصحة ما جاء به من عند الله...

ولما رأى اليهود ذلك واضحاً بيّناً، وقرروا أن لا يؤمنوا به كما قرروا رفضهم للإسلام من أول يوم أعلن النبي دعوته، أخذوا بإلقاء الشبهات تارة والافتراءات

تارة أخرى، وراحوا ثالثة يطلبون معجزات يقترحونها بأنفسهم، ومن هذا الصنف الأخير ما طلبوه من النبي ﷺ حيث قالوا له: إن الله أوصانا وأخذ علينا عهداً أن لا نؤمن لمن ادعى النبوة أن نصدّقه في دعواه إلاّ إذا قرّب قرباناً ـ كما كانت بدعواهم ـ عادة الأنبياء حيث يذبحون فداءً ثم يضعونه ويدعون الله فتأتي نار تسقط عليه فتحرقه، فإذا جرت هذه العملية بمرأى ومشهد منهم ثبتت عندهم نبوة من يدّعي النبوة.

طلبوا ذلك من النبي ﷺ ولم يكن طلبهم صادقاً لأنهم لم يكونوا يطلبون الحقيقة من ورائه ولا يريدون إثبات صحة نبوة النبي ﷺ حتى يؤمنوا به، إنما كانت تعجيزاً واستهزاءً يريدون تشكيك البسطاء وزرع الشك في قلوبهم، ولو أن النبي جاءهم بما طلبوا لأعادوا الطلب بأمر جديد ومعجزة جديدة فكأن الله رهن إشارتهم يلبّي كل طلب يصدر منهم ويأمرون به. . .

إن ما يثبت صحة نبوة أي نبي لا يخضع لأمزجة الناس واقتراحاتهم وما يذهبون إليه ويريدونه، بل نبوة أي نبي تثبت بالمعجزة التي يقدّمها ويثبت من خلالها صدق ما جاء به، فإذا عجز البشر عن الإتيان بمثلها يجب أن يقرّوا بنبوته ويعترفوا بصدق ما يدّعيه.

وقد جاء النبي بذلك وقدّم المعجزات ورآها اليهود وكل العرب والناس فآمن من آمن وأنكر من أنكر، وكان اليهود من أشد الناس عداوة للنبي ولدعوته، ولذا جاءوا بالافتراءات واقترحوا المعجزات ومنها ما طلبوه منه بأن يأتي بقربان تأكله النار. . .

وقد ردّ الله عليهم وعلّم نبيه هذا الردّ المفحم: ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾. قل لهم يا محمد! قد جاءكم رسلي من قِبَلي كيحيى وزكريا وعيسى جاؤوكم بالمعجزات: وما يثبت صحة نبوتهم، وكذلك جاؤوكم بما قلتم من تقديم القرابين، فإنكم لم تؤمنوا بهم ولم تصدقوهم فيما جاءوا به من النبوة بل كذبتموهم ثم قتلتموهم، فلماذا

قتلتموهم إن كنتم صادقين فيما ادعيتم من إنكم تؤمنون بهم إن جاؤوكم بما اقترحتم وأردتم. . .

إنه سبحانه يثبت كذبهم فيما طلبوه وأن هذا الطلب من النبي محمدﷺ أن يأتي بقربان تأكله النار لم يكن لإثبات نبوته وتصديقه والإيمان به، بل كان مجرد افتراء يراد من ورائه التمويه والتشكيك وزرع الفتنة والبلبلة بين الناس. . .

قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: المعجزات، وأصلها الآيات الواضحات.

﴿ٱلزُّبُرِ﴾: جمع زبور وهو الكتاب، والزبور: بمعنى المزبور وهو المكتوب والأصل في معنى الزبور الفصل والقطع...

﴿ٱلْمُنِيرِ﴾: المضيء، والكتاب المنير: هو الكتاب الذي يحمل الشرائع والأحكام.

التفسير

هذه الآية تسلية لرسول الله ﷺ حيث واجه تكذيب أهل الكتاب له وتشكيكهم فيما جاء به...

إنها تحكي قصة الأنبياء مع أسلاف هؤلاء الحاضرين زمن النبي ﷺ وكيف واجه أسلافهم أنبياء زمانهم؟

كذبوهم ورفضوا دعوتهم بل وحاربوهم...

وهؤلاء الخلف على سيرة السلف لم يخرجوا عن قواعد أجدادهم التي مارسوها في وجه الرسل وواجهوهم بها. . .

فإذا كانت سيرة الكافرين واحدة مع الأنبياء فأنت يا رسول الله! لم تخرج عن دائرة المواجهة فأنت واحد من الرسل لا بدّ وأن تتعرّض لكل ما تعرض له الرسل، لقد تعرّضوا للتكذيب وأنت اليوم تتعرض لما تعرضوا إليه، فيجب أن تواجه هذا الواقع وتقف في وجهه وتصمد لهذا التكذيب. . .

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ يا محمد! بما جئت به ويرفضوا دعوتك ورسالتك.

﴿فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ كلوط وهود وشعيب وموسى وزكريا ويحيى وهؤلاء ﴿جَآءُو﴾ أقوامهم ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات الدالة على صدق ما يدّعون وصحة ما يحملون، ولكنهم قوبلوا بالتكذيب والرفض، بل بإعلان الحرب عليهم وقتالهم بل قتلهم. . .

جاؤوهم بالبينات ﴿وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ والزبر: هي الكتب الإلهية المنزلة. وخُصّ الكتاب المنير بالذكر: لعظيم شرفه، وإن كان داخلاً تحت لفظة (الزبر). . .

وهناك من حمل الزبر على أنها الكتب المشتملة على الحكم والمواعظ، ومنها سمّي كتاب داود زبوراً لما فيه من المواعظ والحكم.

وحملوا الكتاب المنير على الكتاب الذي ينير الدرب لما فيه من شرائع وحكم ومعارف. . .

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾.

اللغة

﴿نَفْسٌ﴾: يراد بالنفس هنا شخص الإنسان وذاته.

﴿ذَآئِقَةُ﴾: قال الراغب: الذوق: وجود الطعم بالفم ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ أي كل نفس ستموت.

﴿تُوَفَّوْنَ﴾: توفية الشيء: بذله وافياً، واستيفاؤه: تناوله وافياً.

﴿أُجُورَكُمْ﴾: الأجر: ما يعود من ثواب العمل دنيوياً كان أو أخروياً، وهو جزاء العمل من الثواب أو العقاب.

﴿زُحْزِحَ﴾: الزحزحة: التنحية والإبعاد.

﴿فَازَۗ﴾: ظفر ونجا، وأصل الفوز الظفر بالبغية.

﴿ٱلدُّنْيَآ﴾: مؤنث الأدنى، والحياة الدنيا: هي الحياة التي نعيشها يقابلها الحياة الأخرى.

﴿مَتَـٰعُ﴾: المتاع: ما يتمتع به ـ يتلذذ ـ وينتفع به ثم يزول.

﴿ٱلْغُرُورِ﴾: مصدر غرّه يغره غروراً: أي خدعه.

التفسير

وهذه الآية أيضاً تؤكد الآية السابقة في تسلية النبي ﷺ عما يلاقيه من الكفار والمشركين.. إن نهاية الجميع الموت ثم يكون الحساب، ويؤتى كل واحد حسابه كاملاً غير منقوص، فليستعد هؤلاء للجزاء العادل الوافي الكامل، وليتحملوا نتيجة أعمالهم وسوء اختيارهم يوم القيامة..

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ حقيقة كتبها الله على كل نفس في هذا الوجود وسيصل إليها كل واحد من أبناء آدم... قد تغيَّب عن فكر الإنسان في بعض الأوقات، ولكنها لا تلبث أن تعود في شعور أقوى وأعظم في موت عزيز أو فَقْدِ حبيب أو مرض زائر أو مقيم، وهكذا...

حقيقة صادقة يؤمن بها كل فرد... المؤمن والكافر، الغني والفقير، الرجل والمرأة.. السليم والمريض، وكيف ينكرها أحد من البشر وقوافل الأموات يتبع بعضها بعضاً من الأجداد المتقدمين إلى الأجداد القريبين إلى الآباء، وهكذا...

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ حقيقة تعيش في عمق وجدان هذا الإنسان وشعوره، فربما نغّصت عليه حياته وسعادته، وربما دفعته لأحسن الأعمال وأفضلها، وربما وجَّهته ليكون قدوة صالحة تنظر إلى الحياة على أنها مرحلة لا بدّ وأن يعقبها حياة أخرى لا موت فيها، وهكذا دواليك...

بعد هذه الحياة موت... وإذا كان الموت يتربص بالجميع فلا بدّ من نهاية لكل منا ولا بد من وصول إلى هذا المخوف العظيم...

المؤمن العامل الصالح الطيب يموت... والكافر الظالم الخبيث يموت... الأنبياء يموتون، والكافرون يموتون، الصالحون يموتون، والمعاندون والطالحون يموتون، الجميع سيموت وتنتهي الحياة في دار الدنيا...

ثم تأتي الآخرة وتحمل معها ثمرة عمل ما قبل الموت ونتيجته..

﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ ستحصلون على ثواب أعمالكم كاملة في يوم القيامة. . .

في دار الدنيا كنتم تؤمنون بالله أو تكفرون به!، كنتم تؤمنون بالأنبياء أو كنتم تكفرون بهم!. . كنتم تعملون الخيرات أو كنتم تعملون السيئات!. . الجميع سيعطى أجر إيمانه وعمله أو يعطى جزاء كفره وعمله السيء. . .

وفاء الأجور كاملة لا يكون في دار الدنيا، بل سيكون يوم القيامة. . .

ثم أنه سبحانه بيّن طريق السعادة وما به يتحقق الفوز والظفر.

﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾. وهذه قمة السعادة وعندها تتوقف الأعمال. . . مَن استطاع أن يتحرك ولو قليلاً عن السقوط في النار ثم إذا تزحزح دخل الجنة فقد ظفر وانتصر وفاز وأفلح. . .

العمدة أن تتحرك قُدماً ـ هذا الإنسان ـ عن النار ليدخل الجنة ومن بلغ تلك الدرجة ووصل إلى ذلك المقام فقد فاز. . . والفوز بالجنة هو الفوز الأعظم وبه يصل الإنسان إلى منتهى السعادة. . .

وفي المقابل مَنْ تثاقلت خطاه وعجز عن الحركة ولم يقدر أن يتزحزح عن النار فقد سقط فيها وهوى، ويا لهول المنقلب ويا لهول السقوط. . . إنه الشقاء والتعاسة ومنتهى البلاء. . .

فالنهاية إمّا الجنة وإمّا النار وكل فرد سيصل إلى واحدةٍ منهما. وهو الذي يرسم الدرب الموصل إليها فإن آمن بالله ورسله وبما جاءوا به من عند الله وعمل بكل أوامر الله وانتهى عن نواهيه فقد سلك طريق الجنة وسيصل إليها بمقتضى صحة العقيدة وصحة العمل والسلوك. .

وإن كفر بالله ورسله وجحد بما جاءوا به من عند الله ولم يمتثل أوامر الله ولم ينته عن نواهيه فلا شك أنه سلك مسالك النار. ولا بدّ وأنه سيصل إليها بمقتضى كفره وفساد عمله. . .

ولا يفصل هذا الإنسان عن أحدهما ـ الجنة أو النار ـ إلاّ الموت.. فالحاجز عن الوصول إلى كل منهما هو أن ينزل بهذا الإنسان الموت فينتقل إلى الجنة أو إلى النار...

ثم بيّن سبحانه مخاطر الدنيا وما يمكن أن تجنيه على من ركن إليها واطمأن إلى زخرفها.. بقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ باعتبار أن هذه الحياة الدنيا حقيرة وقليلة، فهي لا تستحق أن يبيع الإنسان نفسه بملذاتها الفانية ومُتعها الزائلة... إنها الدنيا التي تتزيّن لطلابها وتروق في أعينهم ويعجبهم منها زبرجها وزخارفها فيروحون ينظرون إليها وكأنها الغاية القصوى... إنها تغرّهم وتضرّهم وتدفعهم إلى الشرور من أجل الوصول إليها والحصول عليها...

إن الله سبحانه وتعالى لا يريد لنا أن نحصر نظرنا إليها وفيها ونقطع نظرنا عمّا وراءها من موت ودار آخرة...

إن الدنيا دار تغرّ وتخدع وتشدّ هذا الإنسان إلى مُتعها وملذاتها ومشتهياتها وما نعيشه من صور حية للطواغيت والفراعنة والحكّام الفجرة والمنحرفين من الناس إلاّ وحب الدنيا وراء تلك الدوافع التي دفعتهم إلى هذا السلوك الطائش اللامسؤول...

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ كل ما فيها إذا خلا عن طاعة الله يغرّ هذا الإنسان ويخدعه عن الغاية العظمى.. وهي الجنة وما فيها، ولذا السعيد من لم يبع آخرته بدنياه والشقي من باع آخرته بدنياه...

قال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾.

اللغة

﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾: من الابتلاء: وهو الاختبار والامتحان.

﴿أَمْوَٰلِكُمْ﴾: الأموال: هي ما يملكه الإنسان من نقد أو أعيان أو غيرها.

﴿أَنفُسِكُمْ﴾: نفس الإنسان: ذاته وشخصه.

﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾: أعطوا الكتاب: وهم اليهود والنصارى.

﴿أَشْرَكُوٓا۟﴾: من الشرك: وهو أن يجعل مع الله إلهاً.

﴿أَذًى﴾: ضرر.

﴿عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾: العزم: ثبات الرأي على الشيء: وهنا يراد صواب التدبير والرأي.

التفسير

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ أقسم سبحانه أن الاختبار والامتحان سيقع على المؤمنين وسيكون في أموالهم وأنفسهم. . .

والابتلاء والامتحان ليس لأن الله يريد معرفة الإنسان وقدرته على تحمّل الصعاب، كيف وهو الذي خلق الإنسان ويعلم الأشياء قبل وقوعها؟! وإنما يقع الاختيار على هذا الإنسان من أجل أن تظهر حقيقته وينكشف واقعه فيتميز الصادق في إيمانه من المدّعي ذلك، وأيضاً تنقطع حجة المقصّرين «بلو ولعل وعسى» لو عشنا وامُتحنّا لفزنا. . .

ثم إن الله يخبر المؤمنين بهذا الامتحان من أجل الاستعداد له والصبر عليه وتوطين النفس على تحمله حتى إذا وقع هان، فإن الدنيا دار بلاء وسيواجه المؤمنون فيها الاعداء ومكائدهم وحيلهم وقتالهم، فيجب أن يكونوا بمستوى ما أنيط بهم من تكاليف وأحكام. . .

والابتلاء بالأحوال والامتحان فيها يكون بما فرضه الله من حقوق يجب إخراجها منها، كالزكاة والخمس والصدقات، كما يشمل أيضاً ما تتعرض له من إتلاف وسرقات وحرق ونهب واعتداء على أيدي الكفار أو من حوادث الدهر ونكباته. . .

إن على المؤمنين أن يتحملوا كل ما يقع على أموالهم وفيها ويقابلوا ذلك بصبر وأناة وقناعة، إنها من عند الله وهو القادر على التعويض عنها في دار الدنيا أو الثواب عليها في الدار الآخرة. . .

وقد قيل: أنه سبحانه قدّم المال ثم الأنفس للترقي إلى الأشرف.

وقد رأيت بعضهم يذهب إلى أنه سبحانه قدّم المال على الأنفس، لأنه بالمال يتكامل الإنسان في الدارين. . .

وأمّا الابتلاء بالأنفس.. فيما يتعرض له المؤمنون من تكاليف كالصلاة والصيام والحج، أو ما يتعرضون له من الجهاد المؤدي إلى القتل أو الجرح أو الأسر أو غير ذلك مما يتعرض له الإنسان في دار الدنيا...

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾.

وهذا أيضاً من الإخبار بما سيلاقيه المؤمنون على أيدي أهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ وهم مشركو العرب من الأقوال المؤذية كالسّب والشتم والاستهزاء وعيب مقدسات المسلمين وتسفيه ما جاءوا به.

وفي بعض الروايات أن كعب بن الأشرف كان يؤذي المسلمين وكان يهودياً شاعراً يتشبب بنساء المسلمين فيؤذيهم بذلك، وكان عبد الله بن أُبيّ يكيد للنبي ويؤذيه كثيراً...

وعلى كل حال.. فأهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ لم يرعوا حق التسمية التي ناداهم بها الله ـ وهي حجة عليهم ـ بل آذوا المسلمين في مواجهتهم للدعوة ونصبوا العداوة لهم وللنبي ﷺ وما كان منهم من محاولات جادة للقضاء عليه وعليهم حتى لا يبقى لهم أثر عنوان عريض يحكي كيدهم ومدى لؤمهم...

وأمّا مشركو العرب فيكفيك نظرة سريعة عمّا واجهوا به الدعوة والداعي إليها وما شنوه من حروب ومعارك ضد الإسلام والمسلمين، وهو الأذى الكثير الذي أخبر الله عن وقوعه ودعى المسلمين للصمود له وتحمّله لما يعقبه من النصر والظفر...

﴿وَإِن تَصْبِرُوا﴾ على هذا الأذى الكثير وتصمدوا في وجوه المؤذين وتحاولوا بكل ما أوتيتم من دراية وقوة وصبر وأناة أن تتخلصوا منه بما تملكون من طاقات وقدرات، فإن ذلك يعقبه النصر لا محالة.

﴿وَتَتَّقُوا﴾ أي تتقوا الله فلا تجزعوا أو تنهاروا أو تخرجوا عن إرادته وما أراد منكم، بل تبقون في حالة التزام بما أمر، وتطبيق لكل ما جاء من عنده.

﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ إن تصبروا وتتقوا فهذا هو الأمر الذي يجب أن تعقدوا القلوب عليه وتصمدوا له ولا تتنازلوا عنه مهما كانت الأحوال والظروف، لأنه مما أمر الله به وأراد تحقيقه من الأمور الصعبة التي لا يمكن إدراكها أو الوصول إليها وتحقيقها إلا بعد أن تعقد القلوب وتشدّ العزائم لإنجازها والقيام بها، وهذا هو الذي يحقق لكم النصر والفوز. . .

الإتيان بالإشارة إلى البعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾ إنما هو لعلو منزلة التقوى والصبر.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

* * *

اللغة

﴿ٱلْمِيثَٰقَ﴾: العهد المؤكد.

﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ﴾: بيّن الشيء: أظهره.

﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾: كتم الشيء: ستره وأخفاه.

﴿فَنَبَذُوهُ﴾: طرحوه.

﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾: خلف ظهورهم: وهو استعارة لترك الاعتداد به وعدم مراعاته والاهتمام به.

التفسير

وهذه واحدة من جنايات أهل الكتاب، بل هي أهم جناية وأعظمها لأنها أضلّت خلقاً كثيراً وانحرفت بهم عن سواء السبيل... إنها قضية كتمان الحق الذي أخذ الله عليهم بيانه للناس ونَقْله إليهم وكشفه أمامهم فخالفوا ذلك وطرحوه ثم أخفوه عن أعين الناس ومتناول أيديهم...

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾.

أذكر يا محمد! أو اذكروا أيها المسلمون إذ أخذ الله العهد المؤكد من اليهود والنصارى أن يكشفوا للناس ما في الكتاب وما وصلهم منه من بشارات ودلائل وأحكام تعيّن الرسول وتحكي صفاته وتنقل إليهم خصوصياته. . .

إن المراد بأهل الكتاب هم الأحبار والرهبان والذين لهم علم ودراية بالكتب الإلهية كالإنجيل والتوراة. فإن الله أخذ عليهم أن يكشفوا الحقيقة ويظهروا الصدق ويبيّنوا للناس صفات النبي التي وردت في كتبهم حتى يؤمن الناس به ويصدقوه ولا يكفروا به أو يعاندوه. ولكن هذا العهد لم يرعه أهل الكتاب ولم يحفظوه أو يتقوا الله فيه.

﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ أي طرحوه جانباً ولم يتقيّدوا به أو لم يلتفتوا إليه.. أهملوه وأسقطوه من حساباتهم.

﴿وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ استبدلوا هذا العهد المأخوذ عليهم ـ بأن يبيّنوا للناس الحق ويكشفوه لهم ـ استبدلوه بثمن قليل وهو ما كانوا يتمتعون به من سلطة على الناس وما كانوا يستفيدونه من مال ويتقاضونه منهم. . . إن ثمن كتمان الحق هو هذه الدنيا الزائلة وما فيها من حطام ومتع وملذات وهي قليلة حقيرة في جنب الآخرة الدائمة الباقية. . .

﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ تحقير لهذه الصفقة واستهانة لها وازدراء بمن اشترى واستبدل، لأن العاقل لا يشتري ما يفنى بما يبقى ولا يشتري الدنيا ويبيع الآخرة. . .

يبقى أن نقول: إن هذه الآية وإن كانت واردة في أهل الكتاب وخساسة ما ذهبوا إليه وما اشتروه، ولكنها تنطبق على كل من كتم الحق وستره وداهن أهل الدنيا ولم يجهر بما وجب عليه. . .

وفي الحديث عن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال:[1] إن العالم الكاتم علمه يُبعث أنتن أهل القيامة ريحاً تلعنه كل دابة من دواب الأرض الصغار.

(١) وسائل الشيعة، كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، باب ٤٠، حديث ٢.

قال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾.

اللغة

﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾: لا تظننّ.

﴿يَفْرَحُونَ﴾: الفرح: هو السرور.

﴿أَتَوا﴾: فعلوا.

﴿يُحْمَدُوا﴾: الحمد: هو الثناء بالجميل.

﴿بِمَفَازَةٍ﴾: بمنجاة: من فاز: إذا نجا.

التفسير

كان اليهود يخفون صفات النبي الواردة في التوراة لئلا يتمسك بها أتباعهم ومَنْ هم على مثل رأيهم ثم يحبون أن يُحمدوا بأنهم من أهل العلم والتقى والزهد والحق والتمسك بالدين فكشف الله حقيقتهم وبيّن مكرهم.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟﴾ لا تظنن يا محمد! أن اليهود الذين يكتمون أمرك ويخفون صفاتك ويمنعون الناس عن الإيمان بك ثم أكثر من ذلك.

﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾ أي يحبون ويرغبون في أن يمدحهم الناس ويثنوا عليهم ويذكروهم بالتمجيد والثناء على أمر لم يفعلوه أو يقوموا به... يحبون الثناء عليهم بأنهم من أهل العلم والدين والثقة والأمانة وهم على خلاف ذلك وضده، وإذا كانت هذه الصفة مذمومة فإنا نفهم أن من كانت فيه خصلة حميدة أو قام بفعل كريم ثم فرح بحمد الناس له فلا بأس بهذا الفرح والسرور فإنه يتطابق وطبيعة الإنسان وحبه لذاته التي فطره الله عليها...

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ لا تظنن أن فعلهم ذلك وما أتوا به من الكتمان والانحراف، ثم حبهم للثناء عليهم بما لم يفعلوا لا تحسبن ذلك بمبعدٍ لهم من العذاب والوقوع فيه، بل هو واقع عليهم ونازل بهم.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي عذاب مؤلم، وهذا تأكيد لما تقدم، وقيل: إن الآية نزلت في المنافقين.

وقيل: إنها نزلت في قوم تخلّفوا عن الجهاد ثم اعتذروا وأحبوا أن يمدحوا على نياتهم...

والأجدر أن تحمل الآية على كل من قام بعمل باطل ثم يحب أن يُمدح بأنه من أهل الخير والصلاح، وهذا المعنى عام يشمل كثيراً من الأفراد وتكون أسباب النزول مصاديق ذلك العام...

وقد سمعت استشهاد بعض الناس ببعض الآية وهي قوله تعالى: ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾ يريدون ذم من يحب أن يمدح بالخير، وهو لم يأت به... وهو استشهاد في محله ولا بأس به.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وإذا كان سبحانه مالكاً للسماوات والأرض فهو القادر على إهلاك الكفار والمشركين وأهل الكتاب الذين يخفون الحق ويتنكرون

له، ثم يريدون الثناء عليهم بالخير والعمل الصالح، فهو سبحانه القادر على أخذهم فليحذروا سطوته وأخذه. . .

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فقدرة الله مطلقة وكل مخلوقاته في قبضته يعذّب من يستحق العذاب ولا يفلت من يده مجرم كذاب مهما كان قوياً وقادراً وله سطوة أو سلطان. . .

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾.

اللغة

﴿خَلْقِ﴾: إيجاد من لا شيء..

﴿اخْتِلَٰفِ﴾: الاختلاف: المخالفة، وهي أن يأخذ كل واحد طريقاً غير طريق الآخر أو من الاختلاف الذي يعني التعاقب...

﴿لَأَيَٰتٍ﴾: علامات ودلالات.

﴿لِّأُولِي الْأَلْبَٰبِ﴾: أصحاب العقول وذواتها.

﴿قِيَٰمًا﴾: القيام: جمع ومعناه الوقوف والانتصاب.

﴿وَقُعُودًا﴾: القعود: خلاف القيام.

﴿جُنُوبِهِمْ﴾: جمع جنب، وأصله الجارحة وتستعار في الناحية التي تليها.

﴿بَٰطِلًا﴾: عبثاً وبدون غاية.

﴿سُبْحَٰنَكَ﴾: سبّح الله: إذا نزهه عمّا لا يليق به.

﴿فَقِنَا﴾: من وقى، والوقاية: حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره، فقنا: أي احفظنا فلا تدخلنا النار.

﴿أَخْزَيْتَهُ﴾: فضحته وأهنته.

﴿أَنصَارٍ﴾: أعوان.

﴿مُنَادِيًا﴾: النداء: رفع الصوت وظهوره وأصله من الندى أي الرطوبة...

﴿كفر الذنب﴾: عفى عنه وغفره.

﴿سَيِّئَاتِنَا﴾: السيئة من السوء: وهو المستقبح، وهنا يراد بها الذنوب الصغيرة ويراد أيضاً منها الذنوب الكبيرة.

﴿وَتَوَفَّنَا﴾: أمتنا.

﴿ٱلْأَبْرَارَ﴾: جمع برّ، أو بارّ: وهو المتوسع في فعل الخير، العامل بما أمر الله.

﴿ءَاتِنَا﴾: أعطنا.

﴿مَا وَعَدتَّنَا﴾: الوعد، يقال: وعده الأمر وبالأمر، قال له: أنه يجريه له أو ينيله إيّاه.

﴿تُخْلِفُ﴾: أخلف الوعد وتخلّف عنه: إذا أخلّ به ولم يفِ به.

﴿ٱلْمِيعَادَ﴾: الوعد.

التفسير

هذه الآيات لها نغمة خاصة يشعر القلب من خلالها عند تلاوتها بخشوع وخضوع ورقة وتأمل.. إنها تتسرب إلى النفس كما يتسرب الماء في جذور النبات ثم منه تخضرّ الأوراق وتتحرك فيها الحياة والنضارة...

إن وقفة تأمل أمام هذه المذكورات يجعلك تعود بحصيلة إيمانية عالية تطمئن من خلالها إلى صحة مسيرتك في خط الله الموصلة في النهاية إلى الجنة ورضوان الله. . .

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠﴾.

هذه الآيات الكونية مَنْ نظر إليها وتفكر فيها عاد مؤمناً بالله مصدقاً بوجوده ووحدانيته وعلمه وحكمته.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ هذه القبة الزرقاء المرصعة بالنجوم والكواكب من نظر إليها أدرك عظمة الخالق وبديع صنعه.

ملايين النجوم منها الثابت ومنها المتحرك وكلها ضمن نظام دقيق لا تخرج عنه أو تتعداه تتفاوت في الأحجام والسرعة والتأثير مسمّرة في السماء ومَنْ رآها ليلاً أدرك صورة بديعة المنظر جميلة الصورة.

إن توجيه الفكر نحو السماء سيعود بالإنسان إلى الإيمان بالله الذي خلق هذه السماوات وما فيها: وكيف جعلها ضمن جاذبية تمنعها من السقوط، وبالتالي دمار العالم وخرابه. . .

كيف خُلقت؟!. . . وما هي القدرة التي خلقتها؟ ولماذا؟ وما هو الهدف؟ وأسئلة كثيرة يطرحها العاقل على نفسه ولا يعود إلا بالإجابة التي تدفعه للإيمان بقوة خارقة عالمة حكيمة دقيقة لطيفة قادرة. . إنه الله تعالى. . .

وهذا الاستدلال يعبر المؤمن من خلاله إلى الخالق، فإن المخلوق يدل على الخالق - الأثر يدل على المؤثر -

﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ التي ولدنا عليها ونتحرك فيها ونتغذى من خيراتها. . . ما في الأرض من جبال وسهول وبحار وأنهار. . . ما فيها من عجائب وغرائب ودقائق. . . ما فيها من حيوانات وطيور وأشجار. . . لو نظرنا إلى موقعها وأثرها وتكوينها ووجود الحياة عليها؟! وكيف يتم ذلك ضمن مجموعتها بدقة ونظام؟!

لما استطعنا إلاّ الإذعان بأن هناك قوة عليمة حكيمة قادرة لطيفة الصنع هي التي مدّت إليها يدها، فكانت بهذا الخلق البديع، . . . إنه الله خالق هذه الأرض وجاعلها. . .

﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ كيف يتعاقب كل منهما بعد الآخر؟!. . وكيف يتم ذهاب واحد ليأتي الآخر ويحل محله؟ وما لهذا التعاقب من الثمرات؟ وما فيه من المنافع والفوائد التي لولاها لتعسرت الحياة إن لم نقل تتعذّر. . .

﴿لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فمن نظر بعقله وكان من أصحاب العقول لا بدّ وأن يرجع بعد هذا النظر ينظر. . . ﴿فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ لا بد وأن يرجع بعقيدة صافية من كل كدر، نقية من كل شوب ـ إلحاد أو شرك. . .، لا بدّ وأن يرجع بالإيمان بالله وجوداً، وبالإيمان بصفاته المتفرد بها من خالق ومن قدرة ومن حكمة ومن علم، وهكذا. . . إنهم أصحاب العقول يرجعون بحصيلة عقيدية تؤهلهم إلى أن يمدحهم الله في صفات كريمة تعقب هذه الآية بقوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ وذكره سبحانه في هذه الحالات، إمّا لأن الإنسان لا يخرج عنها غالباً، وإمّا أن يراد بذكرها كناية أنهم قوم استغرق الذكر كل حالاتهم وأنهم دائماً على ذكر ربهم لا يفارقونه أو يتخلون عنه. . .

وذِكرُهم لله أن يستشعروا عظمته وبديع صنعه. . . يقرُّون له بالعبودية والطاعة ويتحولون في حركتهم إلى أن يكونوا أداة تتحرك بأمره وتلتزم بما يحكم ويريد. . .

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

يتفكرون في خلق السماوات والأرض وما فيهم من عجائب وغرائب وما يدل

على عظيم الصنع وآثار القدرة ودقة الحكمة والغاية مما يعود معه الإنسان مؤمناً بربه وموحّداً له معتقداً بقدرته وحكمته وجلال صنعه.

إنهم يرجعون بعد تلك الجولة الفكرية في خلق السماوات والأرض إلى الاعتراف بأن أفعاله سبحانه كلها بمقتضى حكمته وعلمه، وكلها لغاية عظيمة يريدها الله سبحانه من خلال ذلك... لم يكن هذا الصنع الكبير البديع وبما فيه من دقة ولطافة عبثاً أو لهواً أو بدون غاية أو هدف...

يقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ حاشا لك يا ربنا أن يكون خلقك هذا عبثاً أو للعبث... أو بدون فائدة ولا ثمرة...

﴿رَبَّنَا﴾ اعتراف بربوبيته وإيمان بوجوده، المربي لنا والمعتني بأصل وجودنا وفي وضعنا على الطريق السليم والأخذ بأيدينا لما فيه إصلاحنا وصلاحنا... فهذا الخلق للسماوات والأرض لم يكن باطلاً ولا عبثاً...

ومنهم من حمل قوله: ﴿بَٰطِلًا﴾ أي غير متماسك ولا مؤتلف الذرات، ولكن الأول هو المتبادر إلى الذهن وعليه المعتمد في هذا المقام...

﴿سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ ننزهك يا رب عن كل باطل أو عبث بل كل أفعالك لغاية ومن أجل حكمة قد تخفى في بعض الأحيان، أو في بعض المصاديق، ولكنك تعلمها وبيدك صنعتها...

سبحانك يا رب! إدفع عنا عذاب النار وارحمنا من شرها فإنا بك مؤمنون... إنا مؤمنون بأنك الخالق المبدع الرازق الحكيم العليم القدير بيدك الأمور وهي إليك صائرة...

قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ١٩٤﴾.

التفسير

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥ﴾ وهذه مقولة أُولي الألباب الذين يدركون مدى خطورة الانحراف والكفر بالله ومعصيته... إنهم يعرفون من خلال ما وصلوا إليه بفكرهم وعقلهم وما وصل إليهم عن طريق الأنبياء والرسل، إن النار هي مقر الكفار ومن كان مقره في النار فقد أهانه الله وأخزاه وعرّضه للعقاب الأليم الذي لا يقوى عليه ابن أُنثى، بل لا يقوى عليه مخلوق من مخلوقات الله.

وهذا القول كما يتراءى لنا ـ والله أعلم بكلامه ـ إن هؤلاء العقلاء ليس فقط في مقام شرح واقع من أُدخل النار فحسب وبيان ما ينتظرهم من الإهانة، بل أيضاً فيه دعاء منهم له أن ينجّيهم منها ومن عذابها ويوفقهم إلى منهاج الطاعة ودوام الالتزام بما أمر، وترك ما نهى...

وفي الآية بيان أن الخزي ـ الإذلال والمقت ـ من أشدّ أنواع العذاب على النفوس إذ مضافاً إلى دخول الظالمين في النار والعذاب فيها فإن لهم الخزي.

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ هذه هي معرفتهم المتألقة التي تحدّد أن من دخل النار فهو ظالم ـ وإن كان كل ظالم ليس له من أنصار ـ أي ليس له من يدفع عنه هذه النار بقوته وقدرته كمن يقتحم السجن فيخلّص سجينه بقوته. . .

لقد سقطت كل القوى أمام قوة الله وليس لهذا الظالم من يخلصه بقوته من النار. . .

إن قلت فكيف بك والشفاعة في هذا المقام وهل تسقط؟. . .

قالوا: إن الشفاعة لا تتضمن قوة ولا تكون بالقهر وإنما تكون بالخضوع والتوسل. . .

وأيضاً هي تعود إلى الله وهو الذي يقبلها أو يردها، وأيضاً الشفاعة ينبغي أن يكون موضوعها قابلاً للشفاعة فلا يُشفع في كافر، لأن الكفر يحجب الشفاعة من حيث أن الموضوع لا يقبل أن يشفّع فيه. . .

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾. هذه حالتهم الطيبة وكيف استقبلوا الدعوة إلى الله والداعي إليه. . . إنهم قوم فطريّون طاهرون لا يعيشون التعقيد ولا الشكوك والتردد، بل ببساطة وعفوية يسمعون النبي يدعو للإيمان بالله فيلتقي هذا النداء مع الفطرة التي أودعها الله فيهم فيستجيبوا له ويتحدّ نداء الأنبياء مع نداء الفطرة فتكون الاستجابة ويكون الإيمان.

دعوة من النبي للإيمان يتلقاها أصحاب القلوب الطيبة بالاستجابة والمبادرة السريعة وبدون توقف أو تردد أو إشكال، لأنها توافق الحقيقة المودعة في نفوسهم والتي فُطروا عليها. .

﴿أَنْ ءَامِنُوا۟﴾ هذا هو نداء المنادي، فالمنادي نادى: ﴿ءَامَنُوا۟﴾ فكانت الاستجابة فوراً لسلامة قلوبهم وطهرها ونظافة العقول التي لم تتلوث بالشكوك والشبهات. . .

وهذا يعبر عنه الدليل السمعي وقد آمنوا من خلاله كما آمنوا من خلال الدليل العقلي عندما نظروا في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار.

ومن الملاحظ أنه سبحانه قدَّم الدليل العقلي على الدليل السمعي لأنه الأصل في الأدلة.

﴿رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ دعاء يخرج من قلب المؤمن بالله العارف بالمعصية والمدرك لها ولأثرها وما تجرّه عليه من ويلات ومصائب ومن نار وعذاب فلذا يدعو الله.. أن يسترها عليه ويغفرها له ولا يؤاخذه بها... إن هذا الإنسان يسقطه ضعفه البشري في معصية كبيرة أو ذنب عظيم، فيحتاج إلى أن يتداركه بالتوبة والتضرع إلى الله والطلب منه أن يغفر ذلك له ويستره عليه ولا يؤاخذه به...

إنها وقفة المؤمن بالله العارف بعظمته وجلاله من جهة، والعارف بصغر نفسه وضعفها أمامه من جهة أخرى.

﴿وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ استرها ولا تفضحنا بها.. والسيئات هنا حملها بعضهم على أنها الصغائر من المعاصي بينما حمل الذنوب على الكبائر...

﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ اجعل مصيرنا وعاقبتنا مصير وعاقبة المطيعين لك العاملين بأمرك الذين لم يخالفوك ولم يعصوك، وأظهر مصاديق هؤلاء الأبرار الذين هم الأنبياء والرسل والأئمة والصالحين عليهم السلام...

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ كرّر ﴿رَبَّنَا﴾ لزيادة التضرع واستدرار الشفقة ولأهمية المطالب وعلو شأنها، يا رب! أعطنا ما وعدتنا من الثواب والأجر واجعلنا من المطيعين لك العاملين بأمرك حتى نؤهل لهذا الثواب الذي حملته رسلك إلينا من قبلك...

طبعاً هذا بعد الوفاة حيث يكون الجزاء معدّاً للمطيعين كما وعد الله والعمدة بالموافاة على الإيمان والطاعة عندما يأتي الموت ليستحق إنجاز هذا الوعد الإلهي...

﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أعصمنا يا رب من الوقوع في المعاصي والآثام ووفقنا لاجتناب الذنوب والانحراف حتى لا ندخل النار ونذل فيها ونخزى. يا رب! وفقنا لإكمال مسيرة الإيمان حتى نبلغ ما وعدتنا فيه...

وهذا وما قبله زيادة في التضرع والخضوع وهضم النفس، بل فناءها أمام عظمة الله...

﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ وعدك سبحانك مُنجَزٌ لا محالة، وقد وعدت أهل الطاعة بالأجر والثواب ودخول الجنة والنجاة من العذاب، فأنجز لنا يا رب ما وعدتنا به فإن وعدك منجز لا محالة...

وهذا ثناء على الله وتمجيد له في نهاية الدعاء.

قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿فَٱسْتَجَابَ﴾: أجاب: أي أعطى ما سأل.

﴿لَآ أُضِيعُ﴾: أصل الضياع: الهلاك.

﴿ذَكَرٍ﴾: الذكر: ضد الأنثى والصنف المختلف معها.

﴿أُنثَىٰ﴾: عكسها الذكر.

﴿هَاجَرُوا۟﴾: الهجرة: هي ترك البلاد الكافرة والخروج منها إلى دار الإيمان.

﴿أُخْرِجُوا۟﴾: خرج خروجاً: برز من مقره، وأخرجوا: أي طردوا منها بالقوة.

﴿دِيَٰرِهِمْ﴾: بلادهم.

﴿وَأُوذُوا۟﴾: من الأذى: وهو ما يصل من الضرر إمّا إلى النفس أو الجسم أو تبعاته دنيوياً كان أو أخروياً.

﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾: من كفَّر الشيء: إذا ستره، ويقصد به هنا العفو.

﴿سَيِّئَاتِهِمْ﴾: السيئات: المعاصي والذنوب.

التفسير

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾.

أصحاب العقول السليمة آمنوا بالله عندما تفكروا في خلق السماوات والأرض، ثم توجهوا إلى الله بالدعاء والذكر والثناء والشكر... إنهم طلبوا من الله أن يقيهم عذاب النار ويغفر ذنوبهم ويدخلهم مدخل الأبرار وأن يعطيهم الأجر والثواب الذين وعدهم به على ألسنة رسله...

إنهم قدموا الإيمان والعمل وطلبوا من الله الأجر عليهما، وهنا يستجيب الله لهم ويقبل دعاءهم...

إنهم صدقوا فيما اعتقدوا وعملوا فكانت النتيجة أن الله قبل منهم وأثابهم على كل أعمالهم...

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ قبل دعاءهم وما طلبوه وأرادوه.

﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ﴾ إني لا أهمل أي عمل من أي عامل بل هو محفوظ مدون ومسجل وأجره محفوظ ومدَّخر.

إن أجر كل عمل تقومون به محفوظ سوف تثابون عليه... إنه سبحانه حكم عدل وحاشا عدله أن يُسقط عملاً كان من منطلق الإيمان والتقوى ولوجهه الكريم...

الآية الكريمة ترهن الأجر والثواب بالعمل وهذا يكشف أن المشاعر وحدها والتمنيات لا يترتب عليها أجر أو ثواب.

﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ فهو سبحانه يحفظ ثواب العاملين سواء كان العامل ذكراً أو أنثى، رجلاً أو امرأة، فالعبرة باستجماع العمل لشروط القبول وبعدها لا ينظر من أي فرد كان من ذكر أو أنثى أسود أو أبيض من هنا أو هناك. . .

إن الفوارق الجنسية لا تؤثر في قبول العمل ورفضه. . . فالذكر مثله مثل الأنثى طالما إن كلاً منهما يعتقد بالله ويعمل لوجهه كما أمر. . .

من هنا نقف أمام العدالة الإلهية التي لا تفرّق بين الذكر والأنثى - في مقام الأجر والثواب - في الآخرة. وإذا كان من فوارق في الدنيا فلأن الأدوار مختلفة باختلاف تركيبة كل منهما وما يتحمله من واجبات تكون عليه ومن حقوق له، وليس لامتياز جنس على جنس اعتباطاً وجزافاً، وهذا أمر واقع يدركه كل منصف، فالرجل له حقول يتحرك فيها طبقاً لطبيعته الرجولية العقلانية، والمرأة لها حقولها في مقام الحمل والإنجاب والتربية، وكل حقل له طبيعة تنسجم والشخص الذي يتولى العمل فيه، ولكن هذا الاختلاف في العمل لا يجعل تفاضلاً لأحدهما على الآخر أو امتيازاً يستحق من خلاله أن يكون المتقدّم أو الحاكم بأمره، بل الجميع يخضع لحكم الله وإرادته دون تفاوت أو امتياز. . .

﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ كأنه تعليل لثواب الذكر والأنثى وعدم إضاعته منهما. . .

﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ حملها بعض المفسرين على أنه إذا كان منشأكم واحد - من حيث أن الذكر من الأنثى والأنثى من الذكر - فيقتضي ذلك وحدة الثواب وأنه لا فرق بينهما فيه. . .

والأقرب أن يحمل ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ على أنهم أهل دين واحد وعقيدة واحدة وعمل واحد يتوجهون فيه نحو الله، فيجب أن يكونوا مشتركين في قبول العمل والإثابة عليه. . .

﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾ هذه مفردات ومصاديق لجنس العمل الذي يتم عليه الأجر والثواب، بل هذه أهم تلك المفردات من الأعمال الصالحة التي يترتب عليها الثواب.

﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ أي تركوا أوطانهم فراراً بدينهم خوفاً من فتنة الأعداء ومحاولاتهم ردّهم عن دينهم، وأظهر مصاديق المهاجرين أولئك الذين تركوا مكة في أيام البعثة النبوية وهاجروا منها إلى الحبشة وأولئك الذين هاجروا إلى المدينة مع النبي فراراً بدينهم. . .

﴿وَأُخْرِجُوا مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ أي أخرجهم الكفار من ديارهم التي يسكنونها وغربوهم عنها إلى خارجها، والخروج من الديار ـ الأوطان ـ كخروج الأرواح من الأبدان لما للوطن من حب جبلت عليه النفوس.

﴿وَأُوذُوا فِى سَبِيلِى﴾ إيذاء الكفار لهم وإضرارهم بهم لأنهم في خط الله، فالإيذاء كان لإيمانهم بالله ولأجل تدينهم بدين الله. . .

﴿وَقَٰتَلُوا وَقُتِلُوا﴾ أي جاهدوا الكفار وقاتلوهم في سبيل الله وقُتلوا شهداء في ساحات النضال والكفاح. . .

إن هؤلاء الذين تمتعوا بهذه الصفات لهم الأجر العظيم وقد بيّنه سبحانه فيما بعد بقوله تعالى:

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ هؤلاء الذين تقدم ذكرهم وامتازوا بهذه الأوصاف الكريمة سوف تشملهم رحمته، وأولى تلك الرحمات أنه سوف يسقط عنهم كل سيئاتهم وذنوبهم التي ارتكبوها. . . إنه يمحو من سجلاتهم كل الذنوب والمعاصي ولا يؤاخذهم بشيء منها.

ثم بعد أن يتأهلوا لدرجة أعلى. . تكون الجنة في انتظارهم فيأتي الأمر الإلهي لهم بدخولها.

﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ إنه سبحانه يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار، استجابة لقولهم: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا﴾ وقد وعدهم سبحانه بقوله ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[1] وهذه الجنات من صفتها أن الأنهار تجري خلالها لتزداد بهجة وزينة وتسر الناظرين وهي جزاء أعمالهم وثمرات جهادهم وأتعابهم.

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ عند الله الجزاء الحسن على الأفعال الطيبة والأعمال الخيّرة، وإذا اتخذ سبحانه على نفسه أن يكون الجزاء حسناً ومن عنده فلا يقدر على الإحاطة به تصور، أو يمكن أن يدركه عقل، لأن كل ما أدرك العقل فهو محدود بحدود التصورات البشرية القاصرة عن إدراك ما عند الله.

(١) التوبة/ ٧٢.

قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾: من غرّه: إذا خدعه وأطمعه بالباطل.

﴿تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾: تنقل فيها وتصرّف.

﴿ٱلْبِلَٰدِ﴾: الأرض، الأقطار، وكل بقعة عامرة محددة تسمى بلد...

﴿مَتَٰعٌ﴾: اسم لما ينتفع به.

﴿مَأْوَىٰهُمْ﴾: المأوى: مصدر أوى يأوي أوياً ومأوى، تقول: آوى إلى كذا: إذا انضم إليه، ومأواه جهنم: منزله الذي ينزل فيه.

﴿جَهَنَّمُ﴾: اسم لنار الله الموقدة، قيل: إن أصلها فارسي معرّب.

﴿ٱلْمِهَادُ﴾: المهد: ما يهيء للصبي للنوم، والمهاد: المكان الممهد الموطأ.

التفسير

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾﴾. هذه الآية تحكي واقع ما كان

يعيشه المشركون في زمن النبي ﷺ أو ما كان يعيشه اليهود على قول آخر، من حيث إنهم قوم يملكون حرية الحركة فيتنقلون في البلاد للتجارة والبيع والشراء وشتى المعاملات الأخرى التي تدرّ عليهم الأرباح ويجنون من خلالها الفوائد والثمار، ومن وراء ذلك تكون حياتهم هنية وعيشتهم رضية يتمتعون بملذات الدنيا ويتنعمون بخيراتها...

وفي المقابل يعيش المسلمون حالة من الحصار عليهم فلا يقدرون على الحركة والانتقال، ولا يملكون حرية يستطيعون من خلالها إجراء معاملة يجنون منها ربحاً يقيم أودهم ويعينهم على قساوة الحياة وصعوبتها...

أمام هذا المشهد تتحرك النفوس وتشرئبُّ الأعناق وتعيش الأسئلة الحائرة في نفوس بعض المسلمين... لماذا يتمتع هؤلاء بالخيرات الوفيرة والربح العظيم ويملكون المال والعقار ويجنون هذه الفوائد ونحن نعيش الجوع والحرمان ونتطلع إلى ما يسد رمقنا ويستر عورتنا فلا نجد من ذلك عين ولا أثر؟!.

ويأتي هذا الخطاب تسلية عن هذه المعاناة وبياناً ترتاح له النفوس المؤمنة الطيبة التي تمتلك رؤية للحياة بمعناها الشامل التي تمتد إلى عالم الآخرة وتعتبر أن الدنيا دار ابتلاء واختبار كما تمتلك رؤية للسعادة تتجاوز حدود هذه الملذات والممتلكات، بل حدود الدنيا بكل ما فيها وترى السعادة في عالم الآخرة هي السعادة الحقيقية لبقائها ودوامها واستمراريتها...

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴿١٩٦﴾﴾. الخطاب وإن كان موجهاً إلى النبي ﷺ لكن يراد معه الأمة أيضاً، لا يخدعنك ما ترى من حركة الذين كفروا وتنقلهم في البلاد وما يربحون ويجمعون ويتملّكون ويتنعّمون لأنه...

﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ طبعاً قلّته إنما هو بالنسبة إلى الآخرة وما فيها، وباعتبار أنه ينقطع بالموت بينما متاع الآخرة يبقى ويدوم ولا ينقطع.

﴿ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾. ثم مع قلته، فإن مصيرهم إلى النار... أي نهايتهم إلى النار وهي نهاية سيئة تعيسة يعيش صاحبها بأشد البؤس والأسى، ويا قبح وسوء ذلك المقام الممهد للعذاب والعقاب...

قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿نُزُلًا﴾: النُزُل: ما يُعد للنزيل، وهو الضيف من أنواع الإكرام.

﴿ٱلْأَبْرَارَ﴾: جمع بار، وقيل: جمع بر.

التفسير

بعد أن ذكر سبحانه الكفار وتوعّدهم بأشد العذاب، ذكر سبحانه هنا الذين اتقوا ووعدهم بالأجر والثواب...

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾ استدراك من سوء حال الكافرين، وأن هؤلاء لا يلحقهم ما لحق أولئك من سوء الحال وقبح المآل...

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾ فأطاعوه في كل ما أمر وتركوا كل ما نهى وساروا في طريق الحق والعدل والهدى، هؤلاء...

﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ﴾ للمتقين

جنات من صفاتها جريان الأنهار خلالها لتزيد بهجة وسروراً وتعطي رونقاً وجمالاً... إنها صورة محببة للنفس مشوّقة لها...

ثم ليست هذه الجنات عارية مؤقتة، بل لهم الخلود فيها والاستقرار والاستمرار لتتم النعمة بدوام الحال فلا تنقطع اللذة أو تنغّص عليهم النعمة...

وهذه الجنات هي لكرامتهم عند الله ﴿نُزُلًا﴾ أي هدية مستعجلة تكريماً لهم لأن النُزُل ما أُعِدَّ للضيف وإكرامه من قِرىً.

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ ما أعدّه الله من الأجر والثواب والجنات ونعيمها خير للأبرار الأتقياء مما يتقلب فيه الكفار من نعيم الدنيا الفاني فشتان بين نعيم دائم ونعيم مؤقت زائل.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩)﴾.

اللغة

﴿أَهْلِ الْكِتَابِ﴾: اليهود والنصارى.

﴿خَاشِعِينَ﴾: الخشوع: الضراعة وأكثر ما يستعمل الخشوع فيما يوجد على الجوارح.

التفسير

أهل الكتاب هم اليهود والنصارى، وقد كان لهم تواجد في الجزيرة العربية، وخصوصاً اليهود حيث كانوا يقطنون المدينة مترقبين خروج النبي الخاتم طبقاً لما وصلتهم من البشارات بخروجه المبارك...

وعندما بُعث النبي كان اليهود أشدُّ الناس عداوة له ولدعوته، وقد سعوا لإطفاء نور الله تارة بالمكائد والحيل وأخرى بزرع بذور الفتن وتأليب القبائل، وثالثة بالحرب المسلحة، وهكذا دواليك...

ولكن ﴿أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ مع توجههم العام في محاربة الرسول ودعوته خرجت منهم فئة لم تخضع لنزواتها وشهواتها ولم تؤثّر عليها مغريات الحياة ومباهجها، فلم تبع الحقيقة التي وصلتها من أن محمداً رسول الله ﷺ بعثه الله إلى الخلق لم تبع هذه الحقيقة بحطام الدنيا وأموالها وزعامتها بل آمنت بالنبي واتبعته متخطيةً كل العقبات متحدية كل المعوّقات. . .

وهذه الآية نزلت في هذه الفئة التي آثرت الحق على الباطل فعرف الله لها هذا الموقف فأثنى عليها هذا الثناء الجميل. . .

وقد قيل في أسباب نزولها: إنها نزلت في عبد الله بن سلام وأصحابه ـ كانوا على اليهودية ـ فأسلموا.

وقيل: نزلت في أربعين من نصارى نجران واثنين وثلاثين من أهل الحبشة وثمانية من الروم كانوا على المسيحية. .

وقيل: إنها نزلت في النجاشي حين مات فصلى عليه النبي ﷺ.

فقال المنافقون: إنه يصلي على نصراني لم يره قط. . . وعلى أي حال سواء صحت أسباب النزول أم لم تصح فالآية تحكي قصة قوم من أهل الكتاب رفضوا التعصب وآمنوا بالحق لمّا جاءهم. . . رفضوا الدنيا ومباهجها وما فيها وآمنوا بالنبي وما جاء به وقد وصفهم الله بخمس صفات. . .

الأولى ـ ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ فالصفة الأولى هي الإيمان بالله وهي أم الخيرات وأسس الأعمال الصالحات، منها يتفرع غيرها وعليها يبنى ما سواها وإذا صحّ الأساس صح ما أشيد عليه وثبت. . .

الإيمان بالله يقتضي الإيمان برسله وبكل ما جاءوا به من قبله إذا أقيمت المعجزات المثبتة لصحة نبوتهم. . .

ولا يمكن أن يكون الإيمان بالله صحيحاً ثم يتنكر الإنسان لمن بعثهم من قبله؟. . .

الثانية: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ أي آمنوا بما أنزل على رسولكم من الكتاب ـ وهو القرآن الكريم ـ وهذا يستدعي الإيمان بالمُنزل عليه كرسول من عند الله لأن الإيمان بالمنزل فرع عن الإيمان بالمُنزل عليه، وهذا بعد أن قامت عندهم الأدلة على صحة نبوته وما جاء به من عند الله.

الثالثة: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ فكانوا مؤمنين بالكتب المتقدمة كالتوراة والإنجيل والأنبياء الحاملين لها...

الرابعة: ﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ في حالة خضوع وتذلل لأن من يعرف ربه ويعرف التكاليف الملقاة عليه يعرف عظمة الله ورحمته، فهو خضوع مملوء بالإكبار والإجلال.

الخامسة: ﴿لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾. تنزيه لهم أن يكونوا كغيرهم من أهل الكتاب الذين حرّفوا كلام التوراة والإنجيل الواردان في صفات النبي محمد ﷺ وأنكروا ذلك مقابل أن تبقى لهم الرئاسة في قومهم والامتيازات الاجتماعية والمالية التي يتقاضونها كرؤساء وأصحاب نفوذ...

فهذه الفئة من أهل الكتاب لم يتّبعوا هذا الأسلوب الرخيص ولم يبيعوا ما نزل من كلام الله على موسى وعيسى بالبشارة بالنبي بمال الدنيا وزعامتها، لأن هذا الثمن حقير وقليل بالنسبة لنعيم الآخرة وثوابها من جهة، ولانقطاعه بالموت والانتقال عنه من الدنيا من جهة أخرى، عكس نعيم الآخرة فإنه باق دائم لا يزول...

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾ هذا الفريق من أهل الكتاب أصحاب الصفات الخمسة لهم ثوابهم عند الله، وثواب الله وأجره كبير يعجز الوصف عن الإحاطة به أو التحديد له وما يمكن أن يتصوره الإنسان، فهو مجموع من نعيم الدنيا المتفرقة التي رآها أو سمع بها أو تخيلها، وبالتالي تبقى قاصرة عن إدراك حقيقة الأجر الذي يعطيه الله لهذه الفئة...

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ سريع الحساب.. لأن علم الله بهم حاضر وما يستحقون جاهز، ولأن السرعة في الحساب توصل الحق إلى أصحابه وتدخل السرور عليهم..

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿ٱصْبِرُوا۟﴾: الصبر: هو حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع، أو عمّا يقتضيان حبسها عنه.

﴿وَصَابِرُوا۟﴾: فيه زيادة في الصبر لأنه في مواجهة الآخرين.

﴿وَرَابِطُوا۟﴾: المرابطة: ترصُّد العدو في الثغور.

﴿تُفْلِحُونَ﴾: الفلاح: الفوز والنجاح.

التفسير

ختم سبحانه هذه السورة الكريمة بهذه الوصية الغالية التي بها يكون الفوز والنجاح والظفر والفلاح...

إنها للذين آمنوا لأنهم المنتفعون بها والمأهلون لكرامة الله...

﴿ٱصْبِرُوا۟﴾ أمر بالصبر ودعا إليه، والصبر في مفهومنا يعني الصمود أمام

الأحداث والمشاكل وأمام التكاليف والواجبات، فلا ينهار أو يسقط أو يتراجع، ولا يضعف أو يتضعضع أو يهون...

إنه المعنى الإيجابي لمواجهة الحياة وما يعترض هذا الإنسان...

الصبر يتجلى في مواجهة التكاليف الإلزامية فيصبر على إقامة الصلاة وأداء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهكذا...

والصبر يتجلى في مواجهة النواهي، فلا يزني أو يقتل أو يسرق أو يعتدي، وهكذا...

الصبر على النفس وشهواتها وما ترغب فيه مما حرَّم الله فيمتنع الصابر عن فعل ذلك أو تناوله، وهكذا...

الصبر على الفقر والحاجة فلا يدفعه ذلك إلى الانحراف وسلب أموال الناس، وهكذا...

الصبر على الغنى فلا يطغى ولا يتكبّر ولا يتجاوز المرسوم له...

الصبر على امتحان السلطة فلا تأخذه سكرة الملك للاعتداء على الآخرين أو التجاوز عليهم بقدرته وقوته، وهكذا...

الحياة بكل شعبها تحتاج إلى الصبر وإلاّ إنهار هذا الإنسان وسقط...

﴿وَصَابِرُوا﴾ بعد أن ذكر الصبر بصيغته العامة وأمر به خصّ بالذكر الصبر في مقام المواجهة مع العدو ولقائه

﴿وَصَابِرُوا﴾ يحمل معنى المقابلة، وأن العدو الذي تواجهونه يحتاج إلى زيادة في الصبر، لأن الجهاد والمواجهة بطبيعة الحال تحتاج إلى صمود وإلى صبر يغلب صبر العدو حتى يتم الانتصار عليه.

﴿وَرَابِطُوا﴾ الربط: هو الشد، والمرابطة: هي ترصُّد العدو في الثغور، لأن المجاهدين يربطون خيولهم هناك...

والمرابطة لا تعني المفاعلة كما يتراءى منها، بل هي فعل واحد على حد سافَرَ وعاين. . .

وهذه دعوة إلى حفظ الثغور التي يمكن للعدو أن يتسلل منها ويحتل أرض المسلمين أو يقتل منهم ويأسر. . . والأمة التي تغفل عن حدودها يطمع فيها القريب والبعيد ويتسلل إليها الصديق والعدو، وتكوّن هذه الثغور نقاط ضعف في البلاد يمكن للعدو أن يمارس الإرهاب ويكيد للأمة بالمؤامرات، ومن هنا كانت المرابطة من الأهمية بمكان استدعت من الله أن يوصي بها. . .

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ احذروه فلا تعصوه وذلك لا يتأتى إلاّ بالقيام بالواجبات وترك المحرمات.

﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ وجيء بكلمة «لعل» التي هي للترجي من أجل أن الفلاح غير محرز على وجه التحقيق، إذ ربما لم تكن هذه الأعمال لوجه الله، أو ربما خالطها غيرها مما يتنافى معها، أو ربما لم يمت الإنسان على الإيمان أو لغير ذلك مما يضر ويفسد العمل، فلا يتم الفلاح فحسُن لذلك الترجي والإتيان بكلمة «لعل». .

الفهرس